المحاسن والأضداد

تأليف

(أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري)

(إمام أهل الأدب المتوفى سنة ٢٥٥ هـ)

الطبعة الأولى

سنة ١٩٧٨م

يطلب من

مكتبة القاهرة

لصاحبها : علي يوسف سليمان

شارع الصنادقية - الأزهر - القاهرة

شركة الطباعه الفنية المتحده

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وآله أجمعين

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ * إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسى فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته وفصاحته وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفا لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة فإن أمكنتهم الحيلة فى إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذى ألف له فهو الذى قصدوه وأرادوه وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقابا ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطنا وأعجزتهم الحيلة سرقوا معانى ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً وأهدوه إلى ملك آخر ومتوا إليه به وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إلى وموسوماً بى . . وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيرى وأحيله على من تقدمنى عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماما يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمى ولم ينسب إلى تأليفى . . وهذا كتاب وسمته (بالمحاسن والاضداد) لم أسبق إلى نحلته ولم يسألنى أحد صنعه .. ابتدأته بذكر محاسن الكتابة والكتب وختمته فى ذكر شىء من محاسن الموت والله يكلؤه من حاسد إذا حسد .

(محاسن الكتابة والكتب)

كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون مثل بناء أزدشير وبناء اصطخر وبناء المدائن والسدير والمدن والحصون . . ثم ان العرب شاركت العجم فى البنيان وتفردت بالكتب والأخبار والشعر والآثار فلها من البنيان غمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر مارد وقصر شعوب والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان : "وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان لأن البناء لا محاله يدرس وتعفى رسومه والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن ومن أمة إلى أمة فهو أبداً جديد والناظر فيه مستفيد وهو أبلغ فى تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير . وكانت العجم تجعل الكتاب فى الصخور ونقشاً فى الحجارة وخلقة مركبة فى البنيان فربما كان الكتاب هو الناتىء وربما كان هو المحفور إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم أو عهداً لأمر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر وعلى الأبلق الفرد وعلى باب الرها يعمدون إلى المواضع المشهورة والأماكن المذكورة فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور وأمنعها من الدروس وأجدر أن يراه من مر به ولا ينسى على وجه الدهور . ولولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة لبطل أكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع . ولولا ما رسمت لنا الأوائل فى كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم لقد بخس حظنا منه، وأهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء وكتب الملاهى وكتب أعوان الصلحاء وكتب أصحاب المراء والخصومات وكتب السخفاء وحمية الجاهلية ، ومنهم من يفرط فى العلم أيام خموله وترك ذكره وحداثة سنه ، ولولا جياد الكتب وحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونازعت إلى حب الكتب وأنفت من حال الجهل وأن يكونوا فى غمار الوحش ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ماعسى أن يكون لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير ،، وسمعت محمد بن الجهم يقول إذا غشيني النعاس فى غير وقت النوم تناولت كتاباً فأجد اهتزازى للفوائد الاريحية التى تعتريني من سرور الاستنباه وعز التبين أشد إيقاظا من نهيق الحمار وهدة الهدم فانى إذا استحسنت كتاباً واستجدته ورجوت فائدته لم أوثر عليه عوضا ولم أبغ به بدلا فلا أزال أنظر فيه ساعة بعد ساعة كم بقى من ورقه مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قبله "، وقال ابن داحة كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن

الخطاب لا يجالس الناس فنزل مقبرة من المقابر وكان لا يزال فى يده كتاب يقرؤه فسئل عن ذلك فقال لم أر أوعظ من قبر ولا آنس من كتاب ولا أسلم من الوحدة ،، وأهدى بعض الكتاب إلى صديق له دفتراً وكتب معه . هديتى هذه أعزك الله تزكو على الانفاق وتربو على الكد لا تفسدها العوارى ولا تخلقها كثرة التقليب وهى إنس فى الليل والنهار والسفر والحضر تصلح للدنيا والآخرة تؤنس فى الخلوة وتمنع من الوحدة مسامر مساعد ومحدث مطاوع ونديم صدق . وقال بعض الحكماء الكتب بساتين العلماء ، وقال آخر . . الكتاب جليس لا مؤنة له ، وقال آخر الكتاب جليس بلا مؤنة . . وقال آخر ذهبت المكارم إلا من الكتب .

(قال الجاحظ) . . وأنا أحفظ وأقول ، الكتاب نعم الذخر والقنية والجليس والعمدة ونعم النشرة ونعم النزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الأنيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملىء علماً وظرف حشى ظرفا وإناء شحن مزاحا إن شئت كان أعيى من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل وإن شئت سرتك نوادره وشجتك مواعظه ومن لك بواعظ مله وبناسك فاتك وناطق أخرس ومن لك بطبيب إعرابى وروى هندى وفارسى يونانى ونديم مولد ونجيب ممتع ومن لك بشىء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده . وبعد فما رأيت بستاناً يحمل فى ردن وروضة تنقل فى حجر ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى آمن من الأرض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ولا أعلم جارا آمن ولا خليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبا أظهر كفاية وعناية ولا أقل املالا ولا ابراما ولا أبعد من مراء ولا أترك لشغب ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال من كتاب ولا أعم بيانا ولا أحسن مواتاة ولا أعجل مكافاة ولا شجرة أطول عمرا ولا أطيب ثمرا ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكا ولا أوجد فى كل إبان من كتاب ولا أعلم نتاجا فى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبـــة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحميدة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبا ووروده خمساوإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك والصديق الذى لا يقليك والرفيق الذى لا يملك والمستمع الذى لا يستزيدك والجار الذى لا يستبطئك والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالملق

ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بيانك وفخم ألفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفى السفر طاعته فى الحضر وهو المعلم إن افتقرت إليه لم يحقرك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر فى كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد فى تجربة وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتثمير مال ورب صنيعة وابتداء إنعام . ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك مع مافى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الردية وجهالتهم المذمومة لكان فى ذلك السلامة والغنيمة وإحراز الأصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن فى ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهيه لقد كان له فى ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنة . وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يمل لأنه وإن كان كتابا واحداً فإنه كتب كثيرة فى خطابه والعلم بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير ، وقال مصعب ابن الزبير . إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون ويحفظون أحسن مايكتبون ويكتبون أحسن ما يسمعون فإذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال فإنك لا ترى ولا تسمع إلا مختاراً ولؤلؤاً منظوماً . وقال لقمان لابنه — يا بنى نافس فى طلب العلم فإنه ميراث غير مسلوب وقرين غير مغلوب ونفيس حظ من الناس وفى الناس مطلوب ، وقال الزهرى . الأدب ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال ولا يبغضه إلا مؤنثهم . وقال إذا سمعت أدبا فاكتبه ولو فى حائط ، وقال منصور بن المهدى للمأمون . أيحسن بنا طلب العلم والأدب قال : والله لأن أموت طالباً للأدب خير لى من أن أعيش قانعاً بالجهل قال : فإلى متى يحسن بى ذلك قال ما حسنت الحياة بك .

﴿ ضده ﴾

الحديث المرفوع رحم الله عبداً أصلح من لسانه . وكان الوليد بن عبد الملك لحنة فدخل عليه أعرابى يوما فقال انصفنى من ختنى يا أمير المؤمنين فقال ومن ختنك قال رجل من الحى لا أعرف اسمه فقال عمر بن عبد العزيز إن أمير المؤمنين يقول لك من ختنك فقال

هوذا بالباب فقال الوليد لعمر ما هذا قال النحو الذى كنت أخبرتك عنه . قال لا جرم فإنى لا أصلى بالناس حتى أتعلمه . قال وسمع أعرابى مؤذنا يقول : أشهد أن محمداً رسول الله فقال يفعل ماذا قال، وقال رجل لزياد : أيها الأمير إن أبينا هلك وأن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا فقال زياد ماضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من ميراث أبيك فلا رحم الله أباك حيث ترك ابنا مثلك . وقال مولى لزياد : أيها الأمير احذوا لنا همار وهش ، فقال : ما تقول ، فقال احذوا لنا ابرا ، فقال زياد . الأول خير من الثانى ، قال واختصم رجلان إلى عمر ابن عبد العزيز فجعلا يلحنان فقال الحاجب . قما فقد أوذيتما أمير المؤمنين ، فقال عمر للحاجب . أنت والله أشد اذاء منهما . قال وقال بشر المريسى وكان كثير اللحن : قضى لكم الأمير على أحسن الوجوه وأهنؤها ، فقال القاسم التمار هذا على قوله .

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشىء ما كان يرزؤها

فكان احتجاج القاسم أطيب من لحن بشر ، قال وكان زياد النبطى شديد اللكنة وكان نحويا فدعى غلامه ثلاثا فلما أجابه قال . من لدن دأوتك إلى أن ديتنى ما كنت تصنأ ، يريد دعوتك وجئتنى وتصنع ، ومر ماسرجويه الطبيب بمعاذ بن مسلم فقال . ياماسرجويه إنى لأجد فى حلقى بححاً ، قال هو من عمل بلغم ، فلما جاوزه قال ترانى لا أحسن أن أقول بلغم ولكنه قال بالعربية فأجبته بضدها .

﴿ محاسن المخاطبات ﴾

حكوا عن ابن القرية ، أنه دخل على عبد الملك بن مروان فبينا هو عنده إذ دخل بنو عبد الملك عليه فقال : من هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين ، قال ولد أمير المؤمنين ، قال بارك الله لك فيهم كما بارك لأبيك فيك ، وبارك لهم فيك كما بارك لك فى أبيك ، قال فشحن فاه درا ، قال وقال عمارة بن حمزة لأبى العباس وقد أمر له بجوهر نفيس وصلك الله يا أمير المؤمنين وبرك فوالله لئن أردنا شكرك على إنعامك ليقصرن شكرنا على نعمتك كما قصر الله بنا عن منزلتك ، قيل ودخل اسحاق بن ابراهيم الموصلى على الرشيد فقال مالك قال :

سوامى سوام المكثرين تجملا ومالى كما قد تعلمين قليل
وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى فذلك شىء ما إليه سبيل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنا ورأى أمير المؤمنين جميل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلا له فى العالمين خليل

فقال الرشيد : هذا والله الشعر الذى صحت معانيه وقويت أركانه ومبانيه ولذ على أفواه القائلين وأسماع السامعين يا غلام احمل إليه خمسين ألف درهم ، قال اسحق . يا أمير المؤمنين كيف أقبل صلتك وقد مدحت شعرى بأكثر مما مدحتك به ، قال الأصمعى . فعلمت أنه أصيد للدراهم منى ، قال . ودخل المأمون ذات يوم الديوان فنظر إلى غلام جميل على أذنه قلم فقال من أنت ، قال . أنا الناشىء فى دولتك المتقلب فى نعمتك المؤمل لخدمتك الحسن ابن رجاء ، فقال المأمون . بالإحسان فى البديهة تتفاضل العقول يرفع عن مرتبة الديوان إلى مراتب الخاصة ويعطى مائة ألف درهم تقوية له ، قال . ووصف يحيى بن خالد الفضل بن سهل وهو غلام على المجوسية للرشيد وذكر أدبه وحسن معرفته فعمل على ضمه إلى المأمون فقال ليحيى يوماً . أدخل إلى هذا الغلام المجوسى حتى أنظر إليه فأوصله فلما مثل بين يديه ووقف تحير فأراد الكلام فارتج عليه فأدركته كبوة فنظر الرشيد إلى يحيى نظرة منكرة لما كان تقدم من تقريظه إياه فانبعث الفضل بن سهل فقال . يا أمير المؤمنين إن من أبين الدلائل على فراهة المملوك شدة إفراط هيبته لسيده ، فقال له الرشيد . أحسنت والله لئن كان سكوتك لتقول هذا إنه لحسن ولئن كان شيئاً أدركك عند انقطاعك إنه لأحسن وأحسن ثم جعل لا يسأله عن شىء إلا رآه فيه مقدما فضمه إلى المأمون ، وقال الفضل بن سهل المأمون وقد سأله حاجة لبعض أهل بيوتات دهاقين سمرقند كان وعده تعجيل انفاذها فتأخر ذلك . هب لوعدك مذكرا من نفسك وهنىء سائلك حلاوة نعمتك واجعل ميلك إلى ذلك فى الكرم حثاً على اصطفاء شكر الطالبين تشهد لك القلوب بحقائق الكرم والألسن بنهاية الجود ، فقال . قد جعلت إليك إجابة سؤالى عنى بما ترى فيهم وآخذك فى التقصير فيما يلزم لهم من غير استئمار أو معاودة فى إخراج الصكاك من أحضر الأموال متناولا قال إذاً لا تجدى معرفتى بما يجب لأمير المؤمنين الهناء به بما يديم له منهم حسن الثناء ويستمد بدعائهم طول البقاء ، وقال الفضل بن سهل للمأمون . . يا أمير المؤمنين اجعل نعمتك صائنة لوجوه خدمك عن إراقة مائها فى غضاضة السؤال فقال والله لاكان ذلك إلا كذلك ، قال ودخل العتابى على المأمون فقال . . خبرت بوفاتك فغمتنى ثم جاءتنى وفادتك فسرتنى فقال يا أمير المؤمنين كيف أمدحك أم بماذا أصفك ولا دين إلا بك ولا دنيا إلا معك قال سلنى ما بدا لك قال يداك بالعطية أطلق من لسانى بالمسئلة ، قال وقدم السعدى أبو وجزة على المهلب بن أبى صفرة . فقال اصلح الله الاميرانى قد قطعت إليك الدهناء وضربت إليك آباط الإبل من يثرب قال فهل اتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة قال لا ولكنى رأيتك لحاجتى أهلا فإن قمت بها فأهل ذلك وأن يحل دونها حائل لم أذمم يومك ولم ايأس من غدك فقال المهلب يعطى ما فى بيت المال فوجد مائة ألف درهم فدفعت إليه فأخذها . وقال :

يامن على الجود صاغ الله راحته   فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك من بالشرق قاطبة   فأنت والجود منحوتان من عود

وقد يجب على العاقل الراغب فى الأدب أن يحفظ هذه المخاطبات ويدمن قراءتها . . وقد قال الأصمعى :

أما لو أعى كل ما أسمع   وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم استفد غير ما قد جمعت   لقيل أنا العالم المقنع
ولكن نفسى إلى كل شىء   من العلم تسمعه تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت   ولا أنا من جمعه أشبع
وأقعد للجهل فى مجلس   وعلمى فى الكتب مستودع
ومن يك فى علمه هكذا   يكن دهره القهقرى يرجع
يضيع من المال ماقد جمعت   وعلمك فى الكتب مستودع
إذا لم تكن حافظا واعياً   فجمعك للكتب ما ينفع

وقال بعضهم . . الحفظ مع الاقلال أمكن وهو مع الإكثار أبعد وتغيير الطبائع زمن رطوبة الغصن أقبل . . وفيها قال الشاعر :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وقيل ، العلم فى الصغر كالنقش فى الحجر والعلم فى الكبر كالعلامة على المدر . . فسمع ذلك الأحنف فقال الكبير أكثر عقلا ولكنه أكثر شغلا . . كما قال :

وإن من أدبته فى الصبى   كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً   بعد الذى أبصرت من يبسه

والصبى عن الصبى أفهم وهو له آلف وإليه انزع . . وكذلك العالم عن العالم والجاهل عن الجاهل . . وقال الله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) لأن الإنسان عن الإنسان أفهم وطباعه بطباعه آنس .

(ضده)

قال : دخل أبو علقمة النحوى على أعين الطبيب فقال . . إنى أكلت من لحوم الجوازىء وطسئت طساة فأصابنى وجع بين الوابلة إلى دأية العنق فلم يزل يربو وينمو حتى خالط

الشراسيف فهل عندك دواء . . قال نعم خذ خوفقا وسربقا ورقرقا فاغسله واشربه بماء فقال لا أدرى ما تقول قال ولا أنا دريت ما قلت . . قال وقال يوما آخر إنى أجد معمعة فى قلبى وقرة فى صدرى فقال له أما المعمعة فلا أعرفها وأما القرقرة فهى ضراط غير نضيج . . قال وأتى رجل الهيثم بن العريان بغريم له قد مطله حقه فقال أصلح الله الأمير إن لى على هذا حقا قد غلبنى عليه فقال له الآخر أصلحك الله إن هذا باعنى عنجدا واستنسأته حولا وشرطت عليه أن أعطيه مياومة فهو لا يلقانى فى لقم إلا اقتضانى ذهبا فقال له الهيثم أمن بنى أمية أنت قال لا قال أفمن بنى هاشم أنت قال لا قال أفمن أكفائهم من العرب قال لا قال ويلى عليك انزعوا ثيابه فلما أرادوا أن ينزعو ثيابه قال أصلحك الله أن إزارى مرعبل قال دعوه فلو ترك الغريب فى موضع لتركه فى هذا الموضع . . قال ومر أبو علقمة ببعض الطرق فهاجت به مرة فوثب عليه قوم فجعلوا يعصرون إبهامه ثم يؤذنون فى أذنه فأفلت من أيديهم فقال مالكم تتكأكئون على كتكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى فقال رجل منهم دعوه فان شيطانه يتكلم بالهندية . . قال وقال لحجام يحجمه أشدد قصب الملازم وأرهف ظبة المشارط وخفف الوضع وعجل النزع وليكن شرطك وخزا ومصك نهزا ولا تكرهن ابيا ولا تردن أتيا فوضع الحجام محاجمه فى جونته وانصرف .

(محاسن المكاتبات)

قال كعب العبسى لعروة بن الزبير . قد أذنبت ذنباً إلى الوليد بن عبد الملك وليس بزيل غضبه شىء فاكتب لى إليه فكتب إليه . . لولم يكن لكعب من قديم حرمته مايغفر له عظيم جريرته لوجب أن لا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذى تأمله القلوب ولا تعلق به الذنوب وقد استشفع بى إليك فوثقت له منك بعفو لا يخالطه سخط فحقق أمله وصدق فى ثقتى بك تجد الشكر وافياً بالنعمة فكتب إليه الوليد . . قد شكرت رغبته إليك وعفوت عنه لمعولة عليك وله عندى ما يحب فلا تقطع كتبك عنى فى أمثاله وفى سائر أمورك . . وكتب عبد الله ابن معاوية بن عبدالله بن جعفر إلى بعض إخوانه .. أما بعد فقد عاقنى الشك عن عزيمة الرأى ابتدأتنى بلطف من غير خبرة ثم أعقبتنى جفاء من غير ذنب فاطمعنى أولك فى إحسانك وأيأسنى آخرك من وفائك فلا أنانى غير الرجاء يجمع لك إطراحا ولا فى غد انتظره منك على ثقة فسبحان من لو شاء كشف إيضاح الرأى فيك فأقمنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف . قال وسخط مسلمة بن عبدالملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة فشكا ذلك إلى عمر بن عبدالعزيز فكتب إليه.. ان من حفظ أنعم الله رعاية ذوى الأسنان ومن إظهار شكر الموهوب صفح

القادر عن الذنب ومن تمام السؤدد حفظ الودائع واستتمام الصنائع وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك فسلبتها عجلة سخطك وما أنصفته غضبته على أن وليته ثم عزلته وخليته وأنا شفيعه فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ولا تخرجه من حسن رأيك فتضيع ما أودعته وتتوى[1] ما أفدته . . فعفى عنه ورده الى عمله .. قال وغضب سليمان بن عبدالملك على ابن عبيد مولاه فشكا الى سعيد بن المسيب ذلك فكتب اليه . . أما بعد فإن أميرالمؤمنين فى الموضع الذى يرتفع قدره عما تقتضيه رعيته وفى عفو أمير المؤمنين سعة للمسيئين . . فرضى عنه . . قال وطلب العتابى من رجل حاجة فقضى له بعضها ومطله ببعض فكتب اليه .. أما بعد فقد تركتنى منتظراً لوعدك منتجزا لرفدك وصاحب الحاجة محتاج الى نعم هنيئة أو لا مريحة والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل . . وقد قلت بيتى شعر

بسطت لسانى ثم أوثقت نصفه فنصف لسانى بامتداحك مطلق
فان أنت لم تنجز عــداتى تركتنى وباقى لسان الشكر باليأس موثق

قال .. وكتب عمرو بن مسعدة الى المأمون فى رجل من بنى ضبة يستشفع له بالزيادة فى منزلته وجعل كتابه تعريضاً .. أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتطولك على فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به وأعلمته أن أميرالمؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام . . فكتب اليه المأمون قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك وأجبناك اليهما ووقفناك عليهما . قال وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون كتابا يستعطفه على الجند . كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من أجناده وقواده فى الطاعة والانقياد على أحسن ماتكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم . فقال المأمون والله لأقضين حق هذا الكلام وأمر بإعطائهم لثمانية أشهر . قال وقدم رجل من أبناء دهاقين قريش على المأمون لعدة سلفت منه فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون فقال لعمرو ابن مسعدة توصل فى رقعة منى إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذى تكتبها تكون لك على نعمتان فكتب .. ان رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته ويأذن له فى الانصراف الى بلده فعل إن شاءالله . فلماقرأ المأمون الرقعة دعا عمرا فجعل يعجبه من حسن لفظها وايجازالمراد فقال عمرو فما نتيجتها يا أمير المؤمنين قال الكتاب له فى هذا الوقت بما وعدناه لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه وبجائزة ألف درهم صــلة على دناءة المطل وسماجة الاغفال ففعل ذلك له . وحدثنا اسماعيل بن شاكر قال لما أصاب أهل مكة السيل

---

(١) التواء : الهلاك

الذى شارف الحجر ومات تحته خلق كثير كتب عبيد الله بن الحسن العلوى وهو والى الحرمين إلى المأمون.. أن أهل حرم الله وجيران بيته وإلاف مسجده وعمرة بلاده قد استجاروا بعز معروفك من سيل تراكمت أخرباته فى هدم البنيان وقتل الرجال والنسوان واجتياح الأصول وجرف الابقال حتى ماترك طارفا ولا تالدا للراجع إليهما فى مطعم ولا ملبس فقد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة إلى البكاء على الامهات والأولاد والآباء والأجداد فأجرهم يا أمير المؤمنين بعطفك عليهم وإحسانك إليهم تجد الله مكافئك عنهم ومثيبك عز الشكر منهم . قال فوجه إليهم المأمون بالأموال الكثيرة . . وكتب إلى عبيد الله أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله أمير المؤمنين فبكاهم بقلب رحمته وأنجدهم بسيب نعمته وهو متبع ما أسلف إليهم بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا إن أذن الله فى تثبيت عزمه على صحة نيته .. قال فصار كتابه هذا آنس لأهل مكة من الأموال التى أنفذها إليهم . . قال وكتب جعفر ابن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل . شكرى لك على ما أريد الخروج منه شكر من سأل الدخول فيه قال وكتب على بن هشام إلى اسحق بن ابراهيم الموصلى . . ما أدرى كيف أصنع أغيب فاشتاق والتقى ولا اشتفى ثم يحدث لى اللقاء الذى طلبت منه الشفاء نوعا من الحرقة للوعة الفرقة . . قال وكتب معقل إلى أبى دلف فلان جميل الحال عند الكرام فإن أنت لم ترتبطه بفضلك عليه فعل غيرك . . وكتب أبو هاشم الحرنى إلى بعض الأمراء غرضى من الأمير معوز والصبر على الحرمان معجز وكتب آخر إلى صديق له أما بعد فقد أصبح لنا من فضل الله ما لانحصيه مع كثرة ما نعصيه وما ندرى ما نشكر أجميل ما نشر أم كثير ماستر أم عظيم ما أبلى أم كثير ما عفى غير أنه يلزمنا فى كل الأمور شكره ويجب علينا حمده فاستزد الله فى حسن بلائه كشكرك على حسن آلائه .

﴿ ضـــده ﴾

(قال الجاحظ) كتب بن المراكبى إلى بعض ملوك بغداد جعلت فداك برحمته قال وقرأت على عنوان كتاب لأبى الحسن الشمرى . للموت لنا قبلة . وقرأت أيضاً على عنوان كتاب إلى الذى كتب إلى .

﴿ محاسن الجواب ﴾

قال دخل رجل على كسرى ابرويز ، فشكى إليه عاملا غصبه على ضيعة له . فقال له كسرى منذ كم هى فى يدك قال منذ أربعين سنة قال فأنت تأكلها أربعين سنة ما عليك أن يأكل

عاملی منها سنة واحدة فقال وماكان علی الملك أن يأكل بهرام جور الملك سنة واحدة فقال ادفنوا فی قفاه فأخرجوه فلما خرج أمكنته التفاتة فقال دخلت بمظلمة وخرجت بثنتين فقال كسرى ردوه وأمر برد ضيعته وصيره فی خاصته . ويقال إن سعيد بن مرة الكندى حين أتى معاوية ، قال له أنت سعيد قال أمير المؤمنين سعيد وأنا ابن مرة . قال ودخل السيد بن أنس الأزدى علی المأمون . فقال أنت السيد فقال أنت السيد يا أمير المؤمنين وأنا ابن أنس . قال وقيل للعباس بن عبد المطلب أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو عليه الصلاة والسلام أكبر منی وأنا ولدت قبله ، قال وقال الحجاج للمهلب أنا أطول أم أنت قال الامير أطول وأنا أبسط قامة منه ، قيل ووقف المهدى علی امرأة من بنی ثعل فقال لها ممن العجوز قالت من طیء قال ما منع طيأ أن يكون فيها آخر مثل حاتم قالت الذی منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك فأعجب بقولها ووصلها ، قيل ولما استوثق أمر العراق لعبد الله بن الزبير وجه مصعب اليه وفداً فلما قدموا عليه قال لهم وددت أن لی بكل خمسة منكم رجلا من أهل الشام فقال رجل من أهل العراق يا أمير المؤمنين علقناك وعلقت بأهل الشام وعلق أهل الشام بآل مروان فما أعرف لنا مثلا إلا قول الأعشى .

علقتها عرضاً وعلقت رجلا غيری وعلق أخرى غيرها الرجل

فما وجدنا جوابا أحسن من هذا ، قال وقال مسلمة بن عبد الملك ، ماشیء يؤتی العبد بعد الإيمان بالله تعالی أحب الی من جواب حاضر فإن الجواب اذا انعقب لم يكن شيئاً .

﴿ ضــــده ﴾

قال اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم فذكر عمرو الزبرقان قال ، بأبی أنت وأمی يا رسول الله إنه لمطعام جواد الكف مطاع فی أدانيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبرقان بأبی أنت وأمی يا رسول الله إنه ليعرف منی أكثر من هذا ولكنه يحسدنی ، فقال عمرو والله يا نبی الله إن هذا لزمر المروءة ضيق العطن لئيم العم أحمق الخال فرأى الكراهية فی وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله فقال يا رسول الله ما كذبت فی الاولی ولقد صدقت فی الاخرى ولكنی رضيت فقلت أحسن ما علمت وسخطت فقلت أسوأ ما أعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما ، وذكروا أن الوليد بن عقبة قال لعقيل بن أبی طالب ، غلبك علی علی الثروة والعدد . . قال وسبقنی واياك الی الجنة ، قال

الوليد أما والله إن شدقيك لمتضخمان من دم عثمان ، قال عقيل مالك ولقريش وانما أنت فيهم كمنيح الميسر ، فقال الوليد والله إنى لارى لو أن أهل الارض اشتركوا فى قتله لوردوا صعودا ، فقال له عقيل كلا أما ترغب عن صحة أبيك . . قال وقال رجل من قريش لخالد بن صفوان ما اسمك قال خالد بن صفوان بن الاهتم ، قال إن اسمك لكذب ما أنت بخالد وأن أباك لصفوان وهو حجر وإن جدك لاهتم والصحيح خير من الاهتم ، قال له خالد من أى قريش أنت ، قال من عبد الدار بن قصى بن كلاب ، قال لقد هشمتك هاشم وأمتك أمية وجمحت بك جمح وخزمتك مخزوم واقصتك قصى فجعلتك عبد دارها تفتح اذا دخلوا وتغلق اذا خرجوا . . قيل ومر الفرزدق فرأى خليفة الشاعر فقال له ، يا أبا فراس من القائل :

هو القين وابن القين لا قين مثله لفطح المساحى أو لجدل الأداهم

قال الفرزدق الذى يقول :

هو اللص وابن اللص لا لص مثله لنقب جدار أو لطر الدراهم

﴿ محاسن حفظ اللسان ﴾

قال أكثم بن صيفى ، مقتل الرجل بين فكيه — يعنى لسانه — وقال رب قول أشد من صول وقال لكل ساقطة لاقطة . . وقال المهلب لبنيه ، اتقوا زلة اللسان فإنى وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من عثرته ويزل لسانه فيكون فيه هلاكه . . قال يونس بن عبيد ، ليست خلة من خلال الخير تكون فى الرجل هى أحرى أن تكون جامعة لأنواع الخير كلها من حفظ اللسان . وقال قسامة بن زهير ، يا معشر الناس إن كلامكم أكثر من صمتكم فاستعينوا على الكلام بالصمت وعلى الصواب بالفكر . وكان يقال ينبغى للعاقل أن يحفظ لسانه كما يحفظ موضع قدمه ومن لم يحفظ لسانه فقد سلطه على هلاكه ، وقال الشاعر :

عليك حفظ اللسان مجتهداً فإن جل الهلاك فى زلله

غيره

وجرح السيف تأسوه فيبرأ وجرح الدهر ما جرح اللسان
جراحات الطعان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

غــيره

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى   ان البــلاء موكل بالمنطق

غــيره

لعمرك ماشيء علمت مــكانه   أحــق بسجن من لسان مذلل
على فيك مما ليس يعنيك قوله   بقفل شديد حيث ما كنت فاقفل

قيل . تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رميت عن قوس واحد قال كسرى . أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت، وقال ملك الهند. اذا تكلمت بكلمة ملكتنى وان كنت أملكها ، وقال قيصر ، لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت ، وقال ملك الصين عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول ، وقال بعضهم ، من حصافة الإنسان أن يكون الاستماع أحب اليه من النطق اذا وجد من يكفيه فإنه لن يعدم الصمت والاستماع سلامة وزيادة فى العلم ، وقال بعض الحكماء ، من قدر على أن يقول فيحسن فإنه قادر على أن يصمت فيحسن ، وقال بعضهم ، كان ابن عبيدة الريحانى المتكلم الفصيح صاحب التصانيف يقول الصمت أمان من تحريف اللفظ وعصمة من زيغ المنطق وسلامة من فضول القول وقال أبو عبيد الله كاتب المهدى ، كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام ، وكان يقال ، من سكت فسلم كان كمن قال فغنم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الله تعالى يكره الانبعاق فى الكلام يرحم الله امرءاً أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته قيل وكلم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله فقال ، أنسانى أول كلامك طول عهده فارق آخره فهمى لتفاوته ، ولما قدم ليقتل بكت امرأته فقال ، لها ما يبكيك قالت تقتل ظالما قال وكنت تحبين أن أقتل حقاً أو أقتل ظالما ، وشتم رجل المهلب فلم يجبه فقيل له حلمت عنه فقال ما أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه ، وقال سلمة بن القاسم عن الزبير قال ، حملت الى المتوكل وأدخلت عليه فقال يا أبا عبد الله الزم أبا عبد الله ـ يعنى المعتز ـ حتى تعلمه من فقه المدنيين فأدخلت حجرة فإذا أنا بالمعتز قد أتى فى رجله نعل من ذهب وقد عثر فسال دمه فجعل يغسل الدم ويقول .

يصاب الفتى من عثرة بلسانه   وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه ترمى برأسه   وعثرته بالرجل تبرا على مهل

فقلت فى نفسى ضممت الى من أريد أن أتعلم منه .

(ضـــده)

سئل بعض الحكماء عن المنطق فقال انك تمدح الصمت بالمنطق ولا تمدح بالصمت المنطق وما عبر به عن شيء فهو أفضل منه ، وسئل آخر عنها فقال أخزى الله المساكتة ما أفسدها للسان وأجلبها للعي ووالله للمماراة في استخراج حق أهدم للعي من النار في يابس العرفج فقيل له قد عرفت ما في المماراة من الذم فقال ما فيها أقل ضرراً من السكتة التي تورث عللا وتولد داء أيسره العي ، وقال بعض الحكماء ، اللسان عضو فإن مرنته مرن وإن تركته حرن ، وممن أفرط في قوله فاستقيل بالحلم ، ما حكي عن شهرام المروزي فإنه جرى بينه وبين أبي مسلم صاحب الدولة كلام فما زال أبو مسلم يحاوره الى أن قال له شهرام يا لقطة فصمت أبو مسلم وندم شهرام على ما سبق به لسانه وأقبل معتذراً خاضعاً ومتنصلا فلما رأى ذلك أبو مسلم قال لسان سبق ووهم أخطأ وانما الغضب شيطان والذنب لي لأنني جرأتك على نفسي بطول احتمالي منك فإن كنت متعمدا للذنب فقد شركتك فيه وان كنت مغلوباً فالعذر يسعك وقد غفرنا لك على كل حال قال شهرام أيها الملك عفو مثلك لا يكون غروراً قال وان عظم ذنبي لن يدع قلبي يسكن ولج في الاعتذار فقال أبو مسلم يا عجباً كنت تسيء وأنا أحسن فإذا أحسنت أسأت .

(محاسن كتمان السر)

قال كان المنصور يقول : الملك يحتمل كل شيء من أصحابه الا ثلاثاً افشاء السر والتعرض للحرم والقدح في الملك ، وكان يقول سرك من دمك فانظر من تملكه ، وكان يقول سرك لا تطلع عليه غيرك وان من أنفذ البصائر كتمان السر حتى يبرم المبروم ، وقيل لأبي مسلم بأي شيء أدركت هذا الأمر قال . ارتديت بالكتمان واتزرت بالحزم وحالفت الصبر وساعدت المقادير فأدركت طلبتي وحزت بغيتي . وأنشد في ذلك :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان اذ حشدوا
ما زلت أسعى عليهم في ديارهم ... والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومـــة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

قال ، وقال عبد الملك بن مروان للشعبي لما دخل عليه ، جنبني خصالا أربعاً لا تطريني في وجهي ولا تجرين على كذبة ولا تغتابن عندي أحداً ولا تفشين إلى سراً . . وقال النبي صلى

الله عليه وسلم ، استعينوا على انجاح حوائجكم بكتمان السر فإن كل ذى نعمة محسود . . وأنشد اليزيدى فى ذلك :

النجم أقرب من سر اذا اشتملت منى على السر أضلاع وأحشاء

غـــيره :

ونفسك فاحفظها ولا تفش للعدى من السر ما يطوى عليه ضميرها
فما يحفظ المكنوم من سر أهله اذا عقد الأسرار ضاع كثيرها
من القـــوم الا ذو عفاف يعينه على ذاك منه صدق نفس وخيرها

قال معاوية بن أبى سفيان ، أعنت على على بن أبى طالب بأربع خصال كان رجلا ظهرة عبلة لا يكتم سراً وكنت كتوما لسرى وكان لا يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجئة وكنت أبادر الى ذلك وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافا وكنت فى أطوع جند وأقلهم خلافا وكنت أحب الى قريش منه فنلت ماشئت فأله من جامع الى ومفرق عنه . . وكان يقال ، لكاتم سره من كتمانه احدى فضيلتين الظفر بحاجته والسلام من شره فمن أحسن فليحمدالله وله المنة عليه ومن أساء فليستغفر الله ، وقال بعضهم : كتمانك سرك يعقبك السلامة وافشاؤك سرك يعقبك الندامة والصبر على كتمان السر أيسر من الندم على إفشائه ، وقال بعضهم ما أقبح بالإنسان أن يخاف على مافى يده من اللصوص فيخفيه ويمكن عدوه من نفسه باظهاره ما فى قلبه من سر نفسه وسر أخيه ومن عجز عن تقويم أمره فلا يلومن إلا نفسه إن لم يستقم له. وقال معاوية ما أفشيت سرى إلى أحد إلا أعقبنى طول الندم وشدة الأسف ولا أودعته جوانح صدرى فحكمته بين أضلاعى إلا أكسبنى مجداً وذكراً وسناء ورفعة فقيل ولا ابن العاص قال ولا ابن العاص . وكان يقول ، ما كنت كاتمه من عدوك فلا تظهر عليه صديقك، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتم سره كانت الخيرة فى يده ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن وضع أخيك على أحسنه ولا تظنن بكلمة خرجت منه سوءاً ما كنت واجدالها فى الخير مذهباً وما كافأت من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله جل اسمه فيه وعليك بإخوان الصدق فإنهم زينة عند الرخاء وعصمة عند البلاء ، وحدث ابراهيم بن عيسى قال ، ذاكرت المنصور ذات يوم فى أبى مسلم وصونه السر وكتمه حتى فعل ما فعل ، فأنشد :

تقسمنى أمران لم أفتتحهما بحزم ولم تعركهما لى الكراكر

وما ساور الأحشاء مثل دفينة ... من الهم ردتها إليك المعاذر
وقد علمت أفناء عدنان أننى ... على مثلها مقدامة متجاسر

وقال آخر

صن السر بالكتمان يرضيك غبه ... فقد يظهر السر المضيع فيندم
ولا تفشين سراً إلى غير أهله ... فيظهر خرق الشر من حيث يكتم
وما زلت فى الكتمان حتى كأننى ... برجع جواب السائلى عنه أعجم
لتسلم من قول الوشاة وتسلمى ... سلمت وهل حى على الدهر يسلم

وقال آخر :

أمنى تخاف انتشار الحديث ... وحظى فى ستره أوفر
ولو لم أصنه لبقيا عليك ... نظرت لنفسى كما تنظر

وقال أبو نواس :

لا تفش أسرارك للناس ... وداو أحزانك بالكاس
فإن إبليس على مابه ... أرأف بالناس من الناس

وقال المبرد . . أحسن ما سمعت فى حفظ اللسان والسر ماروى لأمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه :

لعمرك إن وشاة الرجا ... ل لا يتركون أديماً صحيحاً
فلا تبد سرك إلا إليك ... فإن لكل نصيح نصيحا

وقال العتبى :

ولى صاحب سرى المكتم عنده ... محاريق نيران بليل تحرق
غدوت على أسراره فكسوتها ... ثياباً من الكتمان ما تتخرق
فمن كانت الأسرار تطفو بصدره ... فأسرار صدرى بالأحاديث تغرق
فلا تودعن الدهر سرك أحمقاً ... فإنك إن أودعته منه أحمق
وحسبك فى ستر الأحاديث واعظاً ... من القول ما قال الأديب الموفق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ... فصدر الذى يستودع السر أضيق

وقال آخر :

لا يكتم السر إلا كل ذى خطر والسر عند كرام الناس مكتوم
والسر عندى فى بيت له غلق قد ضاع مفتاحه والباب مردوم

قيل . . ودخل أبو العتاهية وقد ذاع شعره فى عتبة فقال ما أحسنت فى حبك ولا أجملت فى اذاعة سرك . . فقال :

من كان يزعم أن سيكتم حبه أو يستطيع الستر فهو كذوب
الحب أغلب للرجال بقهره من أن يرى للسر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه لم يبد إلا والفتى مغلوب
إنى لأحسد ذا هوى مستحفظاً لم تتهمه أعـين وقلوب

فاستحسن المهدى شعره وقال . . قد عذرناك على إذاعة سرك ووصلناك على حسن شعرك إن كتمان السر أحسن من إذاعته . . وقال زياد لكل مستشير ثقة وإن الناس قد ابتدعت بهم خصلتان إذاعة السر وترك النصيحة وليس للسر موضع إلى أحد رجلين إما آخرى يرجو ثواب الله أو دنياوى له شرف فى نفسه وعقل يصون به حسبه وهما معدومان فى هذا الدهر . وقال المهلب . . ما ضاقت صدور الرجال عن شيء كما تضيق عن السر . . كما قال الشاعر :

ولربما كتم الوقور فصرحت حركاته للناس عن كتمانه
ولربما رزق الفتى بسكوته ولربما حرم الفتى ببيانه

وقال آخر :

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها فسرك عند الناس أفشى وأضيع

وقال آخر :

لسانى كتوم لأسراركم ودمعى نموم لسرى مذيع
فلولا الدموع كتمت الهوى ولولا الهوى لم تكن لى دموع

﴿ محاسن المشورة ﴾

يقال : إذا استخار الرجل ربه واستشار نصيحه واجتهد فقد قضى ما عليه ويقضى الله فى أمره ما يحب . . وقال آخر حسن المشورة من المشير قضاء حق النعمة . . وقيل إذا استشرت فانصح وإذا قدرت فاصفح . . وقيل من وعظ أخاه سراً زانه ومن وعظه جهراً شانه . . وقال آخر الاعتصام بالمشورة نجاة . وقال آخر نصف عقلك مع أخيك فاستشره . وقال آخر إذا أراد الله لعبد هلاكاً أهلكه برأيه . وقال آخر المشورة تقوم اعوجاج الرأى . وقال آخر إياك ومشورة النساء فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن .

﴿ ضــــده ﴾

قال بعض أهل العلم ، لو لم يكن فى المشورة إلا استضعاف صاحبك لك وظهور فقرك إليه لوجب اطراح ما تفيده المشورة والقاء ما يكسبه الامتنان وما استشرت أحداً إلا كنت عند نفسى ضعيفاً وكان عندى قوياً وتصاغرت له ودخلته العزة فإياك وإن ضاقت بك المذاهب واختلفت عليك المسالك وأداك الاستبهام إلى الخطأ الفادح فإن صاحبها أبداً مستذل مستضعف وعليك بالاستبداد فإن صاحبه أبداً جليل فى العيون مهيب فى الصدور ولن تزال كذلك ما استغنيت عن ذوى العقول فإذا افتقرت إليها حقرتك العيون ورجفت بك أركانك وتضعضع بنيانك وفسد تدبيرك واستحقرك الصغير واستخف بك الكبير وعرفت بالحاجة إليهم . وقيل نعم المستشار العلم ونعم الوزير العقل . وممن اقتصر على دون المشورة الشعبى فإنه خرج مع ابن الأشعث فتقدم به على الحجاج فلقيه يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج فقال له أشر على فقال لا أدرى بما أشير ولكن اعتذر بما قدرت عليه وأشار بذلك عليه كافة أصحابه ، قال الشعبى فلما دخلت خالفت مشورتهم ورأيت والله غير الذى قالوا فسلمت عليه بالإمرة ثم قلت أيد الله الأمير إن الناس قد أمرونى أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق والله أن لا أقول فى مقامى هذا إلا الحق قد جهدنا وحرضنا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظهرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وإن عفوت فبحلمك والحجة لك علينا . فقال الحجاج أنت والله أحب إلينا قولا ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ويقول والله ما فعلت ولا شهدت أنت آمن يا شعبى فقلت أيها الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستحلست الخوف وقطعت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفاً . قال صدقت وانصرفت .

﴿ محاسن الشكر ﴾

قال بعض الحكماء . صن شكرك عمن لا يستحقه واستر ماء وجهك بالقناعة . وقال الفضل بن سهل من أحب الازدياد من النعم فليشكر ومن أحب المنزلة فليكف ومن أحب بقاء عزه فليسقط دالته ومكره . ومن ذلك قول رجل لرجل شكره في معروف .

لقد ثبتت في القلب منك مودة　　كما ثبتت في الراحتين الأصابع

قال : واصطنع رجل رجلا فسأله يوماً أتحبني يا فلان قال نعم أحبك حباً لو كان فوقك لأظلك أو كان تحتك لأقلك . وقال كسرى أنوشروان المنعم أفضل من الشاكر لأنه جعل له السبيل إلى الشكر . واختصر حبيب بن أوس هذا في مصراع واحد فقال

لهان علينا أن نقول ونفعلا

الباهلي عن أبي فروة قال ، مكتوب في التوراة أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فإنه لا زوال للنعم إذا شكرت ولا إقامة لها إذا كفرت والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة البغي والغدر وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم ومعروف لا يشكر ، وانشد الحطيئة عمر وكعب الاحبار عنده :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه　　لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال كعب ، يا أمير المؤمنين من هذا الذى قال هذا فإنه مكتوب في التوراة فقال عمر كيف ذلك قال في التوراة مكتوب . . من يصنع الخير لا يضيع عندى لا يذهب العرف بيني وبين عبدى . . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا الاجتهاد فقال . . أفلا أكون عبداً شكوراً . . وفي الحديث إن رجلا قال في الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . . اللهم ربنا لك الحمد حمداً مباركاً طيباً زكياً فلما انصرف صلى الله عليه وسلم قال أيكم صاحب الكلمة قال أحدهم أنا يا رسول الله فقال لقد رأيت سبعة وثلاثين ملكا يبتدرون أيهم يكتبها أولا . . وقيل نسيان النعمة أول درجات الكفر ، وقال أمير المؤمنين على رضى الله عنه المعروف يكفر من كفره لأنه يشكرك عليه أشكر الشاكرين وقد قيل في ذلك :

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها كفور أم شكور
فعند الشاكرين لها جزاء وعند الله ماكفر الكفور

وقال بعض الحكماء ما أنعم الله على عبد نعمة فشكر عليها إلا ترك حسابه عليها . وقال بعض الحكماء عند التراخى عن شكر النعم تحل عظائم النقم . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول لعائشة ما فعل بيتك فتنشده :

تجزيك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

فيقول صلى الله عليه وسلم صدق القائل يا عائشة إن الله إذا أجرى على يد رجل خيراً فلم يشكره فليس لله بشاكر . . وقيل لذى الرمة لم خصصت بلال بن أبى بردة بمدحك قال . . لأنه وطأ مضجعى وأكرم مجلسى وأحسن صلتى فحق لكثير معروفه عندى أن يستولى على شكرى . . ومنهم من يقدم ترك مطالبة الشكر وينسبه إلى مكارم الأخلاق . . من ذلك ما قاله بزرجمهر من انتظر بمعروفه شكرك عاجل المكافأة . وقال بعض الحكماء إن الكفر يقطع مادة الإنعام فكذلك الاستطالة بالصنيعة تمحق الأجر ، وقال على بن عبيدة من المكارم الظاهرة وسنن النفس الشريفة ترك طلب الشكر على الاحسان ورفع الهمة عن طلب المكافأة واستكثار القليل من الشكر واستقلال الكثير مما يبذل من نفسه . وفى فصل من كتاب ولست أقابل أياديك ولا أستديم إحسانك إلا بالشكر الذى جعله الله للنعم حارساً وللحق مؤديا وللمزيد سبباً .

﴿ ضـــده ﴾

قال بعض الحكماء ، المعروف إلى الكرام يعقب خيراً وإلى اللئام يعقب شراً ومثل ذلك مثل المطر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤا وتشرب منه الأفاعى فيعقب سما . وقال سفيان وجدنا أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام وقال أثار جماعة من الأعراب ضبعاً فدخلت خباء شيخ منهم فقالوا أخرجها فقال ماكنت لأفعل وقد استجارت بى فانصرفوا وقدكانت هزيلا فأحضر لها لقاحا وجعل يسقيها حتى عاشت فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته فقال شاعرهم فى ذلك :

ومن يصنع المعروف مع غير أهله يلاق الذى لاقى مجير أم عامر

أقام لها لما أناخت ببابه لتسمن ألبان اللقاح الدرائر
فأسمنها حتى إذا ما تمكنت فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوى المعروف هذا جزاء من يجود باحسان إلى غير شاكر

قيل . : وأصاب أعرابى جرو ذئب فاحتمله إلى خبائه وقرب له شاة فلم يزل يمتص من لبنها حتى سمن وكبر ثم شد على الشاة فقتلها فقال الأعرابى يذكر ذلك :

غذتك شويهتى ونشأت عندى فمن أدراك أن أباك ذيب
فجعت نسية وصغار قوم بشاتهم وأنت لها ربيب
إذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافع أدب الأديب

وفى المثل سمن كلبك يأكلك . . وأنشد :

هم سمنوا كلباً ليأكل بعضهم ولو عملوا بالحزم ما سمنوا كلباً

وقال آخر

وإنى وقيدسا كالمسمن كلبه فخدشه أنيابه وأظافره

ويضرب المثل بسنمار ، وكان بنى للنعمان بن المنذر الخورنق فاعجبه وكره أن يبنى لغيره مثله فرمى به من أعلاه فمات فقيل فيه :

جزينا بنى سعد بحسن بلائهم جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

وقال بشار

أثنى عليك ولى حال تكذبنى فيما أقول فأستحيى من الناس
قد قلت إن أبا حفص لأكرم من يمشى فخاصمنى فى ذاك إفلاسى
حتى إذا قيل ما أعطاك من صفد طأطأت من سوء حالى عندها راسى

ولأبى الهول

كأنى إذ مدحتك يابن معن　　رآنى الناس فى رمضان أزنى
فإن أك رحت عنك بغير شىء　　فلا تفـــرح كذلك كان ظنى

وقال آخر

لحى الله قوم أعجبتهم مدائحى　　فقالوا مقالا فى ملام وفى عتب
أبا حازم تمدح فقلت معذراً　　هبونى امرءاً جربت سيفى فى كلب

وقال آخر

عثمان يعلم أن الحمـــد ذو ثمن　　لكنه يشتهى حمـــداً بمجان
والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا
حتى يروا عنـــده آثار إحسان

وقال آخر

يحب المـــديح أبو خالد　　ويغضب من صلة المـــادح
كبكر تحب لذيذ النكاح　　وتجزع من صولة الناكح

وقال آخر

ولو كان يستغنى عن الشكر سيد　　لعزة ملك أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره　　فقال اشكرونى أيها الثقلان

﴿ محاسن الصدق ﴾

قال بعض الحكماء . عليك بالصدق فما السيف القاطع فى كف الرجل الشجاع بأعز من الصدق والصدق عز وإن كان فيه ما تكره والكذب ذل وإن كان فيه ما تحب ومن عرف بالكذب اتهم فى الصدق . وقيل الصدق ميزان الله الذى يدور عليه العدل والكذب مكيال الشيطان الذى يدور عليه الجور . وقال ابن السماك ما أحسبنى أوجر على ترك

الكذب لأنى أتركه انفة . وقال آخر لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة لكان بذلك حقيقاً فكيف وفيه المأثم والعار . وقال الشعبي عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك فإنه ينفعك واجتنب الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك . وقال بعضهم الصدق عز والكذب خضوع ومدح قوم بالصدق منهم أبو ذر رضى الله عنه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ولا طلعت الشمس على ذى لهجة أصدق من أبى ذر ، ومنهم العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فإنه روى أنه اطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل فقال له جبريل هذا عمك العباس قال نعم : قال إن الله تعالى يأمرك أن تقرأ عليه السلام وتعلمه أن اسمه عند الله الصادق وأن له شفاعة يوم القيامة فاخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فتبسم فقال إن شئت أخبرتك بما به تبسمت وإن شئت أن تقول فقال بل تعلمنى يا رسول الله فقال . لأنك لم تحلف يمينا فى جاهلية ولا إسلام برة ولا فاجرة ولم تقل لسائل لا ، قال والذى بعثك بالحق نبياً ما تبسمت إلا لذلك . ويروى أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى استسر بخلال الزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب فأيهن أحببت تركته ، قال دع الكذب فمضى الرجل فهم بالزنا فقال يسالنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن جحدت نقضت ما جعلته له وإن أقررت حددت فلم يزن فهم بالسرقة وشرب الخمر ففكر فى ذلك فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له قد تركتهن أجمع . فاما من رخص له فى الكذب فيروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، لا يصلح الكذب إلا فى ثلاث كذب الرجل لأهله ليرضها وكذب فى إصلاح ما بين الناس وكذب فى حرب . وروى عن المغيرة بن ابراهيم أنه قال لم يرخص لأحد فى الكذب إلا للحجاج بن علاط فإنه لما فتحت خيبر قال يا رسول الله إن لى عند امرأة من قريش وديعة فأذن لى يا رسول الله أن أكذب عليك كذبة لعلى أستل وديعتى فرخص له فى ذلك فقدم مكة فاخبرهم أنه ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أسيراً فى أيديهم يأتمرون فيه فقائل يقول يقتل وقائل يقول لابل يبعث به إلى قومه فتكون منة فجعل المشركون يتباشرون بذلك ويسيئون العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس يريهم التجمل وأخذ الرجل وديعته فاستقبله العباس وقال ويحك ما الذى أخبرت به فأعلمه السبب ثم أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر ونكح صفية بنت حى بن أخطب وقتل زوجها وأباها ، ثم قال اكتم على اليوم وغداً حتى أمضى ففعل ذلك فلما مضى يومان أخبرهم العباس بالذى أخبره فقالوا ومن أخبرك بهذا قال من أخبركم بضده .

﴿ ضـــده ﴾

قيل : وجد فى بعض كتب الهند ليس لكذوب مروءة ولا لضجور رياسة ولا لملول وفاء ولا لبخيل صديق . وقال قتيبة بن مسلم لا تطلبن الحوائج من كذوب فإنه يقربها وإن كانت بعيدة ويبعدها وإن كانت قريبة ولا إلى رجل قد جعل المسألة مأكلة فإنه يقدم حاجته قبلها ويجعل حاجتك وقاية لها ولا إلى أحمق فإنه يريد نفعك فيضرك . وقيل أمران لاينفكان من كذب كثرة المواعيد وشدة الاعتذار .. وقيل كفاك موبخا على الكذب علمك بأنك كاذب وقال رجل لأبى حنيفة ما كذبت قط قال أما هذه فواحدة . وفى المثل هو أكذب من أخيذ السند ،، وذلك أنه يؤخذ الخسيس منهم فيزعم أنه ابن الملك . وكذلك يقال أكذب من سياح خراسان ، لأنهم يجتازون فى كل بلد ويكذبون للسؤال والمسألة ويقال هو أكذب من الشيخ الغريب ، وذلك أنه يتزوج فى الغربة وهو ابن سبعين سنة فيزعم أنه ابن أربعين . ويقال هو أكذب من مسيلمة وبه يضرب المثل . ومما قيل فى ذلك من الشعر

حسب الكذوب من البليـــة بعض ما يحكى عليه
ما إن سمعت بكذبة من غـــيره نسبت إليه

وقال آخر :

لقـــد أخلفتنى وحلفت حتى إخالك قد كذبت وإن صدقتا
ألا لا تحلفن عـــلى كلام فأكذب ما تكون إذا حلفتا

وقال آخر :

قد كنت أنجز دهراً ما وعدت إلى أن أتلف الوعد ما جمعت من نشب
فإن أكن صرت فى وعدى أخا كذب فنصرة الصدق أفضت بى إلى الكذب

قال الأصمعى ـ قال الخليل بن سهل : يا أبا سعيد أعلمت أن طول رمح رستم كان سبعين ذراعا من حديد مصمت فى غلظ الراقود فقلت هاهنا إعرابى له معرفة فاذهب بنا إليه لحدثه بهذا فذهبت به إلى الاعرابى لحدثه فقال الاعرابى ، قد سمعت بذلك وبلغنا أن رستم هـذا كان هو واسفنديار أتيا لقمان بن عاد بالبادية فوجداه نائماً ورأسه فى حجر أمه فقالت لهما ماشأنكما فقالا بلغنا شدة هذا الرجل فأتيناه فانتبه فزعاً من كلامهما فنفخهما فألقاهما إلى أصبهان فقبرهما اليوم بها ، فقال الخليل قبحك الله ما أكذبك قال يا ابن أخى مابيننا شيئاً الا

وهو دون الراقود قيل وقدم بعض العمال من عمل فدعا قوما إلى طعامه وجعل يحدثهم بالكذب فقال بعضهم : نحن كما قال الله عز وجل (سماعون للكذب أكالون للسحت) .
قيل وكان رجال من أهل المدينة من بين فقيه وراوية وشاعر يأتون بغداد فيرجعون بحظوة وحال حسنة فاجتمع عدة منهم فقالوا لصديق لهم لم يكن عنده شيء من الأدب . لو أتيت العراق فلعلك أن تصيب شيئاً قال أنتم أصحاب آداب تلتمسون بها فقالوا نحن نحتال لك فأخرجوه فلما قدم بغداد طلب الاتصال بعلى بن يقطين وشكا إليه الحاجة فقال ما عندك من الأدب فقال ليس عندى من الأدب شيء غير أنى أكذب الكذبة وأخيل إلى من يسمعها أنى صادق وكان ظريفاً مليحاً فأعجب به وعرض عليه مالا فأبى أن يقبله وقال ما أريد منك إلا أن تسهل إذنى وتدنى مجلسى قال ذاك لك وكان من أقرب الناس إليه مجلساً حتى عرف بذلك ، وكان المهدى قد غضب على رجل من القواد واستصفى ماله وكان يختلف إلى على بن يقطين رجاء أن يكلم له المهدى وكان يرى قرب المدينى ومكانه من على فأتى المدينى القائد عشيا فقال ما البشرى قال لك البشرى وحكمك قال أرسلنى على بن يقطين إليك وهو يقرؤك السلام ويقول قد كلمت أمـــير المؤمنين فى أمرك ورضى عنك وأمر برد مالك وضياعك ويأمرك بالغدو إليه لنغدو معه إلى أمير المؤمنين متشكراً فدعا له الرجل بألف دينار وكسوة وحملان وغدا على على مع جماعة من وجوه العسكر متشكراً فقال له على وما ذاك قال أخبرنى أبو فلان ـ وهو إلى جنبه ـ كلامك أمير المؤمنين فى أمرى ورضاه عنى فالتفت إلى المدينى وقال ماهذا فقال أصلحك الله هذا بعض ذلك المتاع نشرناه فضحك على وقال على بدابتى وركب إلى المهدى وحدثه الحديث فضحك المهدى . وقال إنا قد رضينا عن الرجل ورددنا عليه ماله . وأجرى على المدينى رزقاً واسعاً واستوصى به خيراً ثم وصله . . وكان يعرف بكذاب أمير المؤمنين .

﴿ محاسن العفو ﴾

قيل : أسر مصعب بن الزبير رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه . فقال أيها الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة فأتعلق بأطرافك وأقول رب سل مصعباً فيم قتلنى فقال أطلقوه فقال . أيها الأمير اجعل لى ماوهبت لى من عمرى فى خفض عيش فقال أعطوه مائة ألف درهم قال . بأبى أنت وأمى أشهدك أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا قال لم قال لقوله فيك

إنما مصعب شهاب من اللـــه تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت ولا له كبرياء

فضحك مصعب وقال . لقد تلطفت وإن فيك لموضعا للصنيعة وأمر له بالمائة ألف ولابن قيس الرقيات بخمسين ألف درهم قيل وأمر الرشيد يحي بن خالد بحبس رجل جنى جناية فحبسه ثم سأل عنه الرشيد فقيل هو كثير الصلاة والدعاء فقال للموكل به عرض له بأن تكلمني وتسألني إطلاقه فقال له الموكل ذلك فقال قل لأمير المؤمنين ان كل يوم يمضى من نعمتك ينقص من محنتى والأمر قريب والموعد الصراط والحاكم الله فخر الرشيد مغشيا عليه . ثم أفاق وأمر بإطلاقه .. وقيل ظفر المأمون برجل كان يطلبه فلما دخل عليه قال ياعدو الله أنت الذى تفسد فى الأرض بغير الحق ياغلام خذه إليك فاسقه كاس المنية فقال ياأمير المؤمنين ان رأيت أن تبقينى حتى أؤيدك بمال قال لا سبيل إلى ذلك فقال يا أمير المؤمنين فدعنى أنشدك أبياتاً قال هات فأنشده

زعموا بأن الباز علق مرة عصفور بر ساقه المقدور
فتكلم العصفور تحت جناحه والباز منقض عليه يطير
مانى لما يغنى لمثلك شبعة ولئن أكلت فاننى لحقير
فتبسم الباز المدل بنفسه كرماً وأطلق ذلك العصفور

فقال له المأمون أحسنت ماجرى ذلك على لسانك إلا لبقية بقيت من عمرك فأطلقه وخلع عليه ووصله. وعن بعضهم أن والياً أتى برجل جنى جناية فأمر بضربه فلما مد قال بحق رأس أمك إلا ماعفوت عنى قال أوجع فقال بحق خديها ونحرها قال أضرب قال بحق ثدييها قال أضرب قال بحق سرتها قال ويلكم دعوه لا ينحدر قليلا. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الرجل إذا ظلم فلم ينتصر ولم يجد من ينصره فرفع طرفه الى السماء ودعا قال الله لبيك عبدى أنصرك عاجلا وآجلا . وقال صلى الله عليه وسلم فى قولهم انصر أخاك ظالماً أو مظلوما . . وقد سئل عن ذلك فقيل أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالما فقال تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه . وقال . . فضيل بن عياض بكى أبى فقلت ما يبكيك فقال أبكى على ظالمى ومن أخذ مالى أرحمه غدا إذا وقف بين يدى الله عز وجل وسأله فلا تكون له حجة.. وقال الحسن البصرى أيها المتصدق على السائل يرحمه ارحم أولا من ظلمت وروى عن عبد الله بن سلام قال قرأت فى بعض الكتب قال الله عز وجل إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه ما لا يعرفنى قال خالد بن صفوان إياكم ومجانيق الضعفاء — يعنى الدعاء —

﴿ ضـــده ﴾

قيل لما قالت التغلبية للجحاف بن حكيم السلمى فى وقعته . بالبشر قوض الله عمادك وأطال سهادك وأقل رقادك والله ان قتلت الانساء أسافلهن دمى وأعاليهن ثدى فقال لمن حوله لولا أن تلد مثلها لخليت سبيلها فبلغ ذلك الحسن البصرى فقال . . أما الجحاف فجذوة من نار جهنم قال ولما بنى زياد بناء البصرة أمر أصحابه أن يسمعوا من أفواه الناس فأتى برجل تلا آية (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) قال وما دعاك إلى هذا قال آية من كتاب الله عز وجل خطرت على بالى فتلوتها قال والله لأعملن فيك بالآية الثانية (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) ثم أمر به فبنى عليه ركن من أركان القصر . قال وبعث زياد إلى رجل من بنى تميم فقال أخبرونى بصلحاء كل ناحية فأخبروه فاختار منهم رجالا فضمنهم الطريق . وقال لو ضاع بينى وبين خراسان حبل لعلمت من لقطه . وكان يدفن الناس أحياء وينزع أضلاع اللصوص . قال وقال عبد الملك للحجاج كيف تسير فى الناس ، قال انظر الى عجوز أدركت زياداً فاسئلها عن سيرته فاعمل بها ، فاخذوالله بسنته حتى ماترك منها شيئاً . وذكروا ان الحجاج لما أتى المدينة أرسل إلى الحسن بن الحسن رضى الله عنه فقال هات سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه قال لا أفعل قال فجاء الحجاج بالسيف والسوط فقال والله لأضربنك بهذا السوط حتى أقطعه ثم لأضربنك بهذا السيف حتى تبرد أو تأتينى بهما فقال الناس يا ابا محمد لا تعرض لهذا الجبار قال فجاء الحسن بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه فوضعهما بين يدى الحجاج فأرسل الحجاج إلى رجل من بنى أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له هل تعرف سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم فخلطه بين اسيافه ثم قال اخرجه ثم جاء بالدرع فنظر اليها ثم قال هذاك علامة كانت على الفضل بن العباس يوم اليرموك فطعن بحربة فخرقت الدرع فعرفناها فوجد الدرع على ماقال فقال الحجاج اما والله لو لم تجئنى به وجئت بغيره لضربت به راسك .. وذكروا أن الحجاج قال ذات ليلة لحاجبه اعسس بنفسك فمن وجدته فجئنى به فلما اصبح اتاه بثلاثة فقال ، اصلح الله الأمير ماوجدت الا هؤلاء الثلاثة ، فقال الحجاج لواحد منهم ماكان سبب خروجك بالليل وقد نادى المنادى ان لايخرج احد بالليل قال ، اصلح الله الأمير كنت سكران فغلبنى السكر فخرجت ولا اعقل ، ففكر ساعة ثم قال ، سكران غلبه سكره خلوا عنه لا تعودن ، ثم قال للآخر فأنت ماسبب خروجك قال . . اصلح الله الأمير كنت مع قوم فى مجلس يشربون فوقعت بينهم عربدة فخفت على نفسى فخرجت . ففكر الحجاج ساعة فقال . رجل احب المسالمة خلوا عنه . ثم قال للآخر ماكان سبب خروجك فقال لى والدة عجوز وانا رجل حمال فرجعت الى بيتى فقالت

والدتى ماذقت إلى هذا الوقت طعاماً ولا ذواقاً فخرجت التمس لها ذلك فأخذنى الحسس . ففكر ساعة ثم قال . ياغلام اضرب عنقه فإذا راسه بين رجليه .

﴿ محاسن الصبر على الحبس ﴾

قال الكسروى . . وقع كسرى بن هرمز إلى بعض المحبسين من صبر على النازلة كان كمن لم تنزل به ومن طول فى الحبل كان فيه عطبه ومن أكل بلا مقدار تلف نفسه . . قيل ودخل ابن الزيات على الأفشين وهو محبوس . . فقال يخاطبه .

اصبر لها صبر أقوام نفوسهم   لا تستريح إلى عقل ولا قود

فقال الافشين . من صحب الزمان لم ينج من خيره أو شره ووجد الكرامة والهوان . ثم قال :

لم ينج من خيرها أوشرها أحد   فاذكر شوائبها إن كنت من أحد
خاضت بك المنية الحمقاء غمرتها   فتلك أمواجها ترميك بالزبد

ولعلى بن الجهم لما حبسه المتوكل :

قالت حبست فقلت ليس بضائرى   حبسى وأى مهند لا يغمد
أو ماراأيت الليث يألف غيلة   كبرا وأوباش السباع تردد
والنار فى أحجارها مخبوءة   لا تصطلى إن لم تثرها الأزند
والبدر يدركه الظلام فتنجلى   أيامه وكأنه متجدد
والزاعبية لا يقيم كعوبها   إلا الثقاف وجذوة تتوقد
غير الليالى بادئات عود   والمال عارية يفاد وينفد
لا يؤيسنك من تفرج كربة   خطب أتاك به الزمان الأنكد
فلكل حال معقب ولربما   أجلى لك المكروه عما تحمد
كم من عليل قد تخطاه الردى   فنجا ومات طبيبه والعود
صبراً فان اليوم يعقبه غد   ويد الخلافة لا تطاولها يد
والحبس ما لم تغشه لدنية   شنعاء نعم المنزل المتورد

لو لم يكن فى الحبس إلا أنه ... لا يستذلك بالحجاب الأعبد
بيت يجدد للكريم كرامة ... ويزار فيه ولا يزور ويحمد
أبلغ أمير المؤمنين ودونه ... خوف العدى ومخاوف لا تنفد
أنتم بنو عم النبى محمد ... أولى بما شرع النبى محمد
ما كان من حسن فأنتم أهله ... كرمت مغارسكم وطاب المحتد
أمن السوية يا ابن عم محمد ... خصم تقربه وآخر يبعد
يا أحمد بن أبى دؤاد إنما ... تدعى لكل كريهة يا أحمد
إن الذين سعوا اليك بباطل ... أعداء نعمتك التى لا تجحد
شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا ... فينا وليس كغائب من يشهد
لو يجمع الخصماء عندك منزل ... يوما لبان لك الطريق الأرشد
والشمس لولا أنها محجوبة ... عن ناظريك لما أضاء الفرقد

﴿ ضده ﴾

أنشدنا عاصم بن محمد الكاتب لنفسه لما حبسه أحمد بن عبد العزيز بن أبى دلف . **قوله** :

قالت حبست فقلت خطب أنكد ... أنحى على به الزمان المرصد
لو كنت حراً كان سربى مطلقاً ... ما كنت أحبس عنوة واقيد
لو كنت كالسيف المهند لم يكن ... وقت الكريهة والشدائد يغمد
لو كنت كالليث الهصور لما رعت ... فى الذئاب وجذوتى تتوقد
من قال إن الحبس بيت كرامة ... فمكاشر فى قوله متجلد
ما الحبس إلا بيت كل مهانة ... ومذلة ومكاره لا تنفد
إن زارنى فيه العدو فشامت ... يبدى التوجع تارة ويفند
أوزارنى فيه المحب فموجع ... يذرى الدموع بزفرة تتردد
يكفيك أن الحبس بيت لا يرى ... أحد عليه من الخلائق يحسد
تمضى الليالى لا أذوق لرقدة ... طعماً وكيف يذوق من لا يرقد
فى مطبق فيه النهار مشاكل ... لليل والظلمات فيه سرمد
فالى متى هذا الشتات مؤكد ... وإلى متى هذا البلاء مجدد

مالى مجير غير سيدى الذى ... مازال يكفلنى فنعم السيد
غذيت حشاشة مهجتى بنوافل ... من سيبه وصنائع لا تجحد
عشرين حولا عشت تحت جناحه ... عيش الملوك وحالتى تتزيد
فخلا العدو بموضعى من قلبه ... فحشاه جمراً ناره تتوقـــد
فاغفر لعبدك ذنبه متطولا ... فالحقد منك سجية لا تعهد
واذكر خصائص خدمتى ومقاومى ... أيام كنت جميع أمرى تحمد

وقال عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم :

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها ... فلسنا من الاموات فيها ولا الاحيا
إذا دخل السجان يوما لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا فجـــل حديثنا ... إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فان حسنت كانت بطيئا مجيئها ... وإن قبحت لم تنتظر وأتت سعيا

وقال آخر :

ألا أحد يدعو لاهل محـــلة ... مقيمين فى الدنيا وقد فارقوا الدنيا
كأنهم لم يعرفوا غير دارهم ... ولم يعرفوا غير الشدائد والبلوى

وقال ابن المعتز :

تعلمت فى السجن نسج التكك ... وكنت امرءاً قبل حبسى ملك
وقيدت بعد ركوب الجياد ... وما ذاك إلا بدور الفـــلك
ألم تبصر الطير فى جوهـــا ... تكاد تلاصق ذات الحبـــك
إذا أبصرته خطوب الزمان ... أوقعنه فى حبـــال الشرك
فهذاك من حالق قد يصاد ... ومن قعر بحر يصاد السمك

ووجد فى البيت الذى قتل فيه مكتوب بخطه على الأرض :

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك ... خانتك بعد طوال الامن دنياك

فمرت بنا سحراً طير فقلت لها   طوباك ياليتنى إياك طوباك

وقال أعرابى :

ولما دخلت السجن كبر أهله   وقالوا أبو ليلى الغداة حزين
وفى الباب مكتوب على صفحاته   بأنك تـنزو ثم سوف تلـين

وفى الحديث المرفوع أن يوسف عليه السلام شكى إلى الله تعالى طول الحبس فأوحى إليه أنت حبست نفسك حين قلت (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) ولو قلت العافية أحب إلى لعوفيت قال وكتب يوسف عليه السلام على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء .

﴿ محاسن المودة ﴾

قال بعض الحكماء ليس الانسان ينعم إلا بمودات الاخوان * وقال آخر الازدياد من الاخوان زيادة فى الاجال وتوفير لحسن الحال وقيل عاشروا الناس معاشرة ان عشتم حنوا اليكم وان متم بكوا عليكم وقال :

قد يمكث الناس حيناً ليس بينهم   ود فيزرعه التسليم واللطف
يسلى الشقيقين طول النأى بينهما   وتلتقى شعب شـتى فتأتلف

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه الحسين ، ابذل لصديقك كل المودة ولاتطمئن اليه كل الطمأنينة واعطه كل المواساة ولا تفش إليه كل الأسرار وقال العباس بن جرير . . المودة تعاطف القلوب وائتلاف الارواح وانس النفوس ووحشة الأشخاص عند تنائى اللقاء وظهور السرور بكثرة التزاور وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون الاتفاق فى الخصال . وقال بعضهم من لم يواخ من الأخوان إلا من لاعيب فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه إلا بايثاره إياه على نفسه دام سخطه ومن عاتب على غير ذنب كثر عدوه . وكان يقال أعجز الناس من فرط فى طلب الإخوان . وقال الشاعر فى مثله :

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة   ولكن إخوان الثقات الذخائر

﴿ ضده ﴾

قال المأمون ، ، الإخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لايستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه أحيانا وطبقة كالداء الذى لا يحتاج اليه . وكتب بعض الكتاب أن فلانا أولانى جميلا من البشر مقرونا بلطيف من الخطاب فى بسط وجهه ولين كنف فلما كشفه الامتحان بيسير الحاجة كان كالتابوت المطلى عليه بالذهب المملوء بالعذرة أعجبك حسنه ما دام مطبقا فلما فتح آذاك نتنه فلا أبعد الله غيره . . ومما قيل فى ذلك :

والله لو كرهت كفى منادمتى   لقلت للكف بينى إذ كرهتينى

وقال آخر :

ولو أنى تخالفنى شمالى   لما أتبعتها أبداً يمينى
إذاً لقطعتها ولقلت بينى   كذلك أجتوى من يجتوينى

وقال آخر :

من لم يردك فلا ترده   ليكن كمن لم تستفده
باعد أخاك ببعده   فإذا نأى شبراً فزده

وقال آخر :

تود عدوى ثم تزعم أننى   أودك إن الرأى منك لعازب
وليس أخى من ودنى رأى عينه   ولكن أخى من ودنى وهو غائب

وقال آخر :

إن اختيارك لا عن خبرة سلفت   إلا الرجاء ومما يخطىء النظر
كالمستغيث ببطن السيل يحسبه   حرزاً يبادره إذ بله المطر

وقال آخر :

وصاحب كان لى وكنت له   أشفق من والد على ولد
وكان لى مؤنساً وكنت له   ليست بنا وحشة إلى أحد

كنا كساق مشت بهـــا قدم   أو كذراع نيطت إلى عضد
حتى إذا أمكن الحوادث من   حظى وحل الزمان من عقدى
إزور عنى وكان ينظر من   عينى ويرمى بساعدى ويدى
حتى إذا استرفدت يدى يده   كنت كمسترفد يد الأسد

وقال آخر

فياعجباً لمن ربيت طفلا   ألقمه باطراف البنان
أعلمه الرماية كل يوم   فلما اشتد ساعده رمانى
أعلمه الفتوة كل حين   فلما طر شاربه جفانى
أعلمه الرواية كل وقت   فلما صار شاعرها هجانى

﴿ محاسن الولايات ﴾

سئل عمار بن ياسر رضى الله عنه عن الولاية فقال ، هى حلوة الرضاع مرة الفطام وذكروا أنه كان سبب عزل الحجاج بن يوسف عن المدينة وقد وفد من أهل المدينة منهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله على عبد الملك بن مروان فأثنوا على الحجاج وعيسى ساكت فلماقاموا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك فقام فجلس بين يديه فقال . يا أمير المؤمنين من أنا قال . عيسى بن طلحة بن عبيد الله قال فمن أنت قال عبد الملك بن مروان قال أفجهلتنا أو تغيرت بعدنا قال وما ذاك قال وليت علينا الحجاج بن يوسف يسير بالباطل ويحملنا على أن نثنى عليه بغير الحق والله لئن أعدته علينا لنعصينك وأن قاتلتنا وغلبتنا وأسأت إلينا قطعت أرحامنا ولئن قوينا عليك لنغصبنك فقال له عبد الملك انصرف والزم بيتك ولا تذكرن من هذا شيئاً قال فقام إلى منزله وأصبح الحجاج غاديا إلى عيسى ابن طلحة فقال جزاك الله عن خلوتك بأمير المؤمنين خيراً فقد أبدلنى بكم خيراً وأبدلكم بى غيرى وولانى العراق ، وعن معمر بن وهيب قال . . كان عبد الملك عندما استعفى أهل العراق من الحجاج قال لهم اختاروا أى هذين شئتم — يعنى أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك — مكان الحجاج ، فكتب إليه الحجاج يا أمير المؤمنين أن أهل العراق استعفوا عثمان بن عفان من سعيد بن العاص فاعفاهم منه فساروا إليه من قابل وقتلوه . . فقال صدق ورب الكعبة وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له .

﴿ ضـــده ﴾

كتب عبد الصمد بن المعذل إلى صديق له ولى النفاطات فاظهر تيهاً :

لعمرى لقد أظهرت تيهاً كأنما   توليت للفضل بن مروان عكبرا
دع الكبر واستبق التواضع إنه   قبيح بوالى النفط أن يتغيراً
لحفظ عيون النفط أحدثت نخوة   فكيف به لوكان مسكا وعنبراً

وقال ابن المعتز :

كم تائه بولاية   وبعزله يعدو البريد
سكر الولاية طيب   وخماره صعب شديد

وقال لبيد:

لا تفرحن فكل وال يعزل   وكما عزلت فمن قريب تقتل
وكذا الزمان بما يسرك تارة   وبما يسوءك تارة يتنقـــل

﴿ محاسن الصحبة ﴾

قيل قال علقمة بن ليث لابنه يا بنى إن نازعتك نفسك إلى الرجال يوما لحاجتك إليهم فاصحب من إن صحبته زانك وإن تخففت له صانك وإن قلت صدق قولك وإن صلت شدد صولك اصحب من إذا مددت إليه يدك لفضل مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن بدت منك ثلمة سدها واصحب من لا تأتيك منه البوائق ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق ، وقال آخر اصحب من خولك نفسه وملكك خدمته وتخيرك لزمانه فقد وجب عليك حقه وذمامه . . وكان يقال من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه وقال بعضهم لصاحبه أنا أطوع لك من اليد وأذل من النعل . . وقال بعضهم إذا رأيت كلباً ترك صاحبه وتبعك فارجمه فإنه تاركك كما ترك صاحبه . . وقال ابن ابى داود لرجل انقطع الى محمد بن عبد الملك الزيات . ما خبرك مع صاحبك فقال . لا يقصر فى الإحسان إلى فقال : يا هذا ان لسان حالك يكذب لسان مقالك .

﴿ ضـــده ﴾

قيل كان يوسف بن عمر الثقفي يتولى العراقين لهشام بن عبد الملك وكان مذموما في عمله فخبرني المدائني قال : وزن يوسف بن عمر درهما فنقص حبة فكتب إلى دور الضرب بالعراق بضرب أهلها مائة . قيل وخطب في مسجد الكوفة فتكلم انسان مجنون فقال يا أهل الكوفة ألم أنهكم أن تدخلوا مساجدكم المجانين اضربوا عنقه فضربت عنقه . قال وقال لهمام بن يحيى وكان عاملا له ، يا فاسق خربت مهرجا نقذق قال انى لم اكن عليها انما كنت على ماه دينار وعمرت البلاد فاعاد ذلك عليه مراراً فقال همام قد اخبرتك انى كنت على ماه دينار وتقول خربت مهرجا نقذق لم يزل يعذبه حتى مات . . قال وقال لكاتبه وقد احتبس عن ديوانه يوما ، ما حبسك قال اشتكيت ضرسى قال تشتكى ضرسك وتقعد عن الديوان ودعا الحجام وأمره أن يقلع ضرسين من أضراسه ، وعن المدائني قال . حدثني رضيع كان ليوسف بن عمر من بنى عبس قال كنت لا أحجب عنه وعن خدمته فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث ودعا بخصى له يقال له حديج فقرب إليه واحدة فقال لها إنى أريد الشخوص أفأخلفك أو أشخصك معى فقالت صحبة الأمير أحب إلى ولكنى أحسب أن مقامى وتخلفى اعف وأخف على قلبه فقال أحببت التخلف للفجور يا حديج أضرب فضربها حتى أوجعها ثم أمره أن يأتيه بالثانية وقد رأت مالقيت صاحبتها فقال لها أنى أريد الشخوص أفأخلفك أم أخرجك فقالت ما أعدل بصحبة الأمير شيئاً بل تخرجنى قال أحببت الجماع ما تريدين أن يفوتك ليلة ياحديج أضرب فضربها حتى أوجعها ثم أمره أن يأتيه بالثالثة وقد رأت ما لقيت المتقدمتان فقال لها إنى أريد الشخوص أفأخلفك أم أخرجك قالت الأمير أعلم لينظر أخف الأمرين عليه فليفعله قال اختارى لنفسك قالت ما عندى اختيار فليختر الأمير قال قد فرغت من كل عمل فلم يبق لى إلا أن اختار لك أوجعها يا حديج فضربها حتى أوجعها قال الرجل فكأنما أوجعنى من شدة غيظى عليه فتولت الجارية فتبعها الخادم فلما بعدت قالت الخيرة والله فى فراقك ما تقر عين أحد بصحبتك فلم يفهم يوسف كلامها فقال ما تقول يا حديج قال قالت كذا وكذا فقال يا ابن الخبيثة من امرك أن تعلمنى ياغلام خذ السوط من يده فاوجع رأسه فما زال يضربه حتى اشتفى فتعرف من الغلام الآخر كم ضربت قال لا أدرى قال ياعدوالله اتخرج حاصلى من بيت مالى من غير حساب إقتلوه فقتلوه .

﴿ محاسن التطير ﴾

عن عكرمة قال، كنا جلوساً عند ابن العباس وابن عمر فطار غراب يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال ابن العباس لا خير ولا شر والذى حضرنا من الشعر فى مثله لأبى الشيص :

ما فـــرق الأحباب بعـــد الله إلا الإبل
والنـــاس يلحون غرا ب البين لما جهـــلوا
وما على ظهر غـــرا ب البين تطوى الرحل
ولا إذا صاح غـــرا ب فى الديار ارتحـــلوا
وما غـــراب البين إ لا ناقـــة أو جمـــل

وقال آخر :

أترحل عمن أنت صب بمثله وتلحى غراب البين إنك تظلم
أقم فغراب البين غير مفرق ولا يأتلى إلا على الفصل يحكم

وقال آخر:

غلط الذين رأيتهم بجهـــالة يلحون كلهم غرابا ينعـــق
ما الذنب إلا للجمال فإنها مـــا يشتت شملهم ويفرق
إن الغراب بيمنه يدنى النوى وتشتت الشمل الجميع الأينق

وقال آخر :

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبحه إلا كواذب مما يخبر الفال
والفال والزجر والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

﴿ ضـــده ﴾

حكى عن النعمان بن المنذر، أنه خرج متصيداً ومعه عـــدى بن زيد العبادى

فمر بآرام وهى القبور — فقال عدي ، أبيت اللعن أتدرى ما تقول هذه الآرام قال لاقال إنها تقول :

أيها الركب المخبو ن على الأرض تمرون
لكما كنتم فكنا وكما كنا تكونون

فقال أعد فأعادها فترك صيده ورجع كئيباً . وخرج معه مرة أخرى فوقف على آرام بظهر الحيرة فقال عدى ، أبيت اللعن أتدرى ما تقول هذه الآرام قال لا قال إنها تقول :

رب ركب قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم وكذاك الدهر حالا بعد حال

فانصرف وترك صيده . قال ولما خرج خالد بن الوليد إلى أهل الردة انتهى إلى حى من بنى تغلب فأغار عليهم وقتلهم ، وكان رجل منهم جالساً على شرب له وهو يغنى بهذا البيت .

ألا عللانى قبل جيش أبى بكر لعل منايانا قريب وما ندرى

فوقف عليه رجل من أصحاب خالد فضرب عنقه فإذا رأسه فى الجفنة التى كان يشرب منها . وهذا كقولهم :

﴿ إن البلاء موكل بالمنطق ﴾

﴿ محاسن الوفاء ﴾

قيل فى المثل ، أوفى من فكيهة ، وهى امرأة من بنى قيس بن ثعلبة كان من وفائها أن السليك بن سلكة غزا بكر بن وائل فلم يجد غفلة يلتمسها فخرج جماعة من بكر فوجدوا أثر قدم على الماء فقالوا . إن هذا الأثر لأثر قدم ورد الماء فقعدوا له فلما وافا حملوا عليه فعدا حتى ولج قبة فكيهة فاستجار بها فأدخلته تحت درعها فانتزعوا خمارها فنادت اخوتها فجاءوا عشرة فمنعوهم منها . قال وكان سليك يقول . كانى أجد خشونة شراستها على ظهرى حين أدخلتنى تحت درعها . وقال :

لعمر أبيك والأنباء تنمى لنعم الجار أخت بنى عوارا

من الخفرات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شنارا
عنيت به فكيهة حين قامت لنصل السيف فانتزعوا الخمارا

ويقال أيضاً ، هو أوفى من أم جميل ، وهى من رهط ابن أبى بردة من دوس وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى قتل رجلا من الأزد فبلغ ذلك قومه بالسراة فوثبوا على ضرار بن الخطاب الفهرى ليقتلوه فعدا حتى دخل بيت أم جميل وعاذ بها فقامت فى وجوههم ودعت قومها فمنعوه لها فلما ولى عمر بن الخطاب علمت أنه أخوه فأتته بالمدينة فلما انتسبت له عرف القصة فقال إنى لست بأخيه إلا فى الإسلام وهو غاز وقد عرفنا منتك عليه وأعطاها على أنها ابنة سبيل . ويقال أوفى من السموءل بن عادياء ، وكان من وفائه أن امرأ القيس بن حجر لما أراد الخروج إلى قيصر استودع السموءل دروعا له فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منه السموءل فاخذ الملك ابناً له خارج الحصن وصاح به يا سموءل هذا ابنك فى يدى وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمى وأنا أحق بميراثه فإن دفعت إلى الدروع وإلا ذبحت ابنك فقال . أجلنى فاجله فجمع أهل بيته فكلهم فأشاروا بدفع الدروع وأن يستنقذ ابنه فلما أصبح أشرف عليه . وقال ليس لى إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه وكان يهوديا وانصرف الملك ووافى السموءل بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرىء القيس . وقال فى ذلك :

وفيت بأدرع الكندى إنى إذا ما خان أقــوام وفيت
وقالوا عنده كنز رغيب فلا وأبيك أغدر ما مشيت
بنى لى عاديا حصنا حصينا وبئرا كلما شئت استقيت

وفى ذلك يقول الأعشى :

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به فى جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار
خيره خطتى خسف فقال له مهما تقولن فإنى سامع حار
فقال ثكل وغدر أنت بينهما فاختر فما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له اقتل أسيرك إنى مانع جارى

ويقال . . أوفى من الحارث بن عباد ، وكان من وفائه أنه أسر عدي بن ربيعة ولم يعرفه

فقال له دلني على عدى بن ربيعة ولك الأمان فقال . أنا آمن إن دللتك عليه . قال نعم . قال . فانا عدى بن ربيعة فخلاه . وفى ذلك يقول الشاعر :

لهف نفسى على عدى وقد شا رفه الموت واحتوته المنون

ويقال : هو أوفى من عوف بن محلم ، وكان من وفائه أن مروان القرظ غزا بكر بن وائل ففضوا جيشه وأسره رجل منهم وهو لا يعرفه فاتى به أمه فقالت . إنك تختال باسيرك كانك جئت بمروان القرظ فقال . مروان وما ترجين من مروان قالت . عظم فدائه قال . وكم ترجين من فدائه قالت . مائة بعير قال . لك ذلك على أن تردينى إلى جماعة بنت عوف فاستجار بجماعة ابنته فبعثت به إلى عوف ثم أن عمرو بن هند بعث إلى عوف أن يأتيه بمروان وكان واجداً عليه فى شيء فقال عوف لرسوله . إن جماعة ابنتى قد أجارته ، فقال إن الملك قد آلى أن يعفو عنه أو يضع كفه فى كفه ، فقال عوف ، يفعل ذلك على أن تكون كفى بين أيديهما ، فاجابه عمرو إلى ذلك فجاء عوف بمروان فادخله عليه فوضع يده فى يده ووضع يده بين أيديهما فعفى عنه ، ومنهم الطائى صاحب النعمان ابن المنذر ، وكان من وفائه أن النعمان ركب فى يوم بؤسه وكان له يومان يوم بؤس ويوم نعيم لم يلقه أحد فى يوم بؤسه إلا قتله ولا فى يوم نعيمه إلا أحياه وحياه فاستقبله فى يوم بؤسه أعرابى من طيء فقال ، حيا الله الملك إن لى صبية صغار ألم أوص بهم أحداً . فإن رأى الملك أن يأذن لى فى اتيانهم وأعطيه عهد الله أن أرجع إليه إذا أوصيت بهم حتى أضع يدى فى يده فرق له النعمان ، وقال له لا . . إلا أن يضمنك رجل ممن معنا فإن لم تأت قتلناه ، وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراحيل فنظر إليه الطائى وقال :

يا شريك بن عمرو هل من الموت محاله
يا أخا كل مضاف يا أخا من لا أخا له
يا أخا النعمان فك اليوم عن شيخ غلاله
ابن شيبان قبيل أصلح الله فعاله

فقال شريك . هو على أصلح الله الملك فمضى الطائى وأجل له أجلا يأتى فيه فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكا وجعل يقول له . أن صدر هذا اليوم قد ولى وشريك يقول . ليس لك على سبيل حتى نمسى ، فلما أمسوا أقبل شخص والنعمان ينظر إلى شريك . فقال

ليس لك على سبيل حتى يدنو الشخص فلعله صاحبى فبينما هما كذلك إذ اقبل الطائى فقال النعمان. والله ما رأيت أكرم منكما وما أدرى أيكما أكرم أهذا الذى ضمنك وهو الموت أم أنت وقد رجعت إلى القتل والله لا أكون ألأم الثلاثة فاطلقه وأمر برفع يوم بؤسه ، وانشد الطائى

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى   فابيت عند تجهم الأقوال
إنى امرؤ منى الوفاء خليقة   وفعال كل مهذب بذال

فقال النعمان. ماحملك على الوفاء قال. دينى . قال. وما دينك قال. النصرانية قال أعرضها على فعرضها عليه فتنصر النعمان .

﴿ ضـــده ﴾

قيل كتب صاحب بريد همذان إلى المأمون وهو بخراسان يعلمه أن كاتب صاحب البريد المعزول اخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطئا على إخراج مائتى ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما . فوقع المامون إنا نرى قبول السعاية شرا من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه فأنف الساعى عند ذلك وقال . يا أمير المؤمنين رضى الله عنك المعذرة فإن الساعى وإن كان فى سعايته صادقا لقد كان فى صدقه لئيما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يف لصاحبه ، قال ودخل رجل على سليمان ابن عبد الملك فقال يا أمير المؤمنين عندى نصيحة قال . وما نصيحتك هذه ، قال . فلان كان عاملا ليزيد بن معاوية وعبد الملك والوليد فخانهم فيما تولاه ثم اقتطع أموالا كثيرة جليلة فمر باستخراجها منه ، قال أنت شر منه وأخون حيث اطلعت على أمره وأظهرته ولولا أنى انفر النصاح لعاقبتك ولكن اخترمنى خصلة من ثلاث ، قال . اعرضهن يا أمير المؤمنين ، قال . إن شئت فتشنا عما ذكرت فإن كنت صادقاً مقتناك وإن كنت كاذباً عاقبناك وإن استقلت أقلناك ، فاستقاله الرجل .

﴿ محاسن السخاء ﴾

روى عن نافع قال ، لقى يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال. أخبرنى بأحب الناس إليك وأبغضهم إليك . قال ، أحبهم إلى كل مؤمن بخيل وأبغضهم إلى كل منافق سخى ، قال . ولم ذلك . قال . لأن السخاء خلق الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليـــه فى

بعض سخائه فيغفر له ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : السخى قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار والجاهل سخى أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل وأدوأ الداء البخل . وقال صلى الله عليه وسلم . ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان اللهم عجل لمنفق خلفاً ولممسك تلفاً وملكان يناديان أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . وعن الشعبي قال : قالت أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وكانت تحت الوليد بن عبد الملك . لو كان البخل قميصا ما لبسته أو طريقاً ما سلكتها وكانت تعتق فى كل يوم رقبة وتحمل على فرس فى سبيل الله وكانت تقول ، البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة . وقيل أعتقت هند بنت عبد المطلب فى يوم واحد أربعين رقبة. وقال بعض الحكماء ثواب الجود خلف ومحبة ومكافأة وثواب البخل حرمان وإتلاف ومذمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه . ياعلى كن شجاعا فإن الله يحب الشجاع وكن سخياً فإن الله يحب السخى وكن غيوراً فإن الله يحب الغيور ياعلى وان إنسان سألك حاجة ليس لها بأهل فكن أنت أهلا لها وقال النبي صلى الله عليه وسلم. السخاء شجرة فى الجنة من أخذ منها بغصن مد به إلى الجنة ، وقال عبد العزيز بن مروان لو لم يدخل على البخلاء فى لؤمهم إلا سوء ظنهم بالله عز وجل لكان عظيما ، وقال صلى الله عليه وسلم . تجافوا عن ذنب السخى فإن الله أخذ بيده كلما عثر ، وقال بهرام جور . من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلينظر إلى ماجاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدهم الله فى الجنان فإنه لولا رضاه الجود لم يصطفه لنفسه . وقال الموبذان لابرويز . أكنتم تمنون أنتم وآباؤكم بالمعروف وتترصدون عليه المكافأة ، قال . لا ولا نستحسن ذلك لخولنا وعبيدنا فكيف نرى ذلك وفى كتاب ديننا من فعل معروفا خفياً وأظهره ليتطول به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ألا نعده من الأبرار ولا نذكره فى الأتقياء والصالحين . قيل وسئل الاسكندر ما أكبر ما شيدت به ملكك ، قال ابتدارى إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم . قال وكتب ارسطاطاليس فى رسالته إلى الاسكندر . واعلم أن الأيام تأتى على كل شيء فتخلقه وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ فى قلوب الناس فأودع قلوبهم محبة آبدة تبقى بها حسن ذكرك وكريم فعالك وشرف آثارك . قال ولما قدم بزرجمهر إلى القتل قيل له . انك فى آخر وقت من

أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة فتكلم بكلام تذكر به . فقال . أى شىء أقول الكلام كثير ولكن إن أمكنك أن تكون حديثا حسناً فافعل . قيل . وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابى فى الضيافة فقال الاعرابى . نحن أقرى للضيف. قال وكيف ذلك . قال . لأن أحدنا ربما لا يملك إلا بعيراً فإذا حل به ضيف نحره له فقال له الأعجمى فنحن أحسن مذهباً فى القرى منكم ، قال وما ذاك . قال نحن نسمى الضيف مهمان ومعناه أنه أكبر من فى المنزل وأملكنا به ، وقال بعض الحكماء . بلغ الجود من قام بالمجهود . وقيل . الجواد من لم يضن بالموجود . وقال المأمون . الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . قيل . وشكا رجل إلى إياس بن معاوية كثرة ما يهب ويصل الناس وينفق. قال إن النفقة داعية الرزق وكان جالساً على باب فقال لرجل أغلق هذا الباب فأغلقه فقال . هل تدخل فيه الريح قال . لا. قال فافتحه ففتحه فجعلت الريح تخترق فى البيت فقال . هكذا الرزق أغلقت فلم تدخل الريح فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق . قيل ووصل المأمون محمد بن عباد المهلبى بمائة ألف دينار ففرقها على إخوانه فبلغ ذلك المأمون فقال . يا أبا عبد الله إن بيوت الأموال لا تقوم بهذا . فقال يا أمير المؤمنين البخل بالموجود سوء الظن بالمعبود ، وعن أمية بن يزيد الأموى قال كنا عند عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية فجاءه رجل من أهل بيته فسأله المعونة على تزويج فقال له قولا ضعيفا فيه وعد وقلة إطماع ، فلما قام من عنده ومضى دعا صاحب خزانته فقال اعطه أربعمائة دينار . فاستكثرناها وقلنا . كنت رددت عليه رداً ظننا أنك تعطيه شيئاً قليلا فإذا أنت أعطيته أكثر مما أمل . فقال . انى أحب أن يكون فعلى أحسن من قولى ، وبحاتم يضرب المثل فى السخاء . فحدثنا عن بعض حالات حاتم قيل . كان حاتم جواداً شاعراً وكان حيثما نزل عرف منزله وكان ظفراً إذا قاتل غلب وإذا غنم نهب وإذا سئل وهب وإذا ضرب بالقداح سبق وإذا أسر أطلق ، وكان أقسم ألا يقتل واحد أمه ، قيل : ولما بلغ حاتما قول المتلمس الضبعى :

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير على الفساد
وحفظ المال أيسر من بغاه وضرب فى البلاد بغير زاد

فقال ماله قطع الله لسانه يحرض الناس على البخل أفلا قال :

فلا الجود يفنى المال قبل فنائه ولا البخل فى مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس رزقا بعيش مقتر لكل غد رزق يعود جديد

ألم تر أن الرزق غاد ورائح   وأن الذى أعطاك سوف يعيد

قيل : ونزل على حاتم ضيف ولم يحضر القرى فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه وقال : انك قد أقرضتنى ناقتك فاحتكم على . قال . راحلتين . قال . لك عشرون أرضيت ؟ قال نعم وفوق الرضى . قال : لك أربعون . ثم قال لمن بحضرته من قومه من أتانا بناقة فله ناقتان بعد الغارة فاتوه بأربعين فدفعها إلى الضيف ، وحكوا عن حاتم أنه خرج فى الشهر الحرام بطلب حاجة فلما كان بارض عنزة ناداه أسير فيهم . يا أبا سفانة قد أكلنى الإسار والقمل . قال . والله ما أنا فى بلادى ولا معى شيء وقد أسأت إلى أن نوهت باسمى فذهب إلى العنزيين فساومهم فيه واشتراه منهم وقال . خلوا عنه وأنا أقيم مكانه فى قيده حتى أؤدى فداه ، ففعلوا فاتاهم بفداء . قيل ولما . مات حاتم خرج رجل من بنى أسد يعرف بابى الخيبرى فى نفر من قومه وذلك قبل أن يعلم كثير من العرب بموته فاناخوا بقبره فقال . والله لأحلفن للعرب إنى نزلت بحاتم وسألته القرى فلم يفعل وجعل يضرب القبر برجله ويقول :

عجل أبا سفانة قراكا   فسوف أنبى سائلى نثاكا

فقال بعضهم : مالك تنادى رمة وباتوا مكانهم فقام صاحب القول من نومه مذعورا فقال . ياقوم عليكم مطاياكم فإن حاتماً أتانى فانشدنى :

أبا الخيبرى وأنت امرؤ   ظلوم العشيرة شتامها
فماذا أردت إلى رمة   بدوية صخبت هامها
تبغى أذاها وإعسارها   وحولك طى وأنعامها
وإنا لنشبع أضيافنا   من الكوم بالسيف نعتامها

وقيل فى المثل . هو أجود من كعب بن مامة وكان من أياد وبلغ من جوده أنه خرج فى ركب فيهم رجل من بنى النمر بن قاسط فى شهر ناجر والجأهم العطش فضلوا فتصافنوا ماءهم فجعل النمرى يشرب نصيبه فإذا أراد كعب أن يشرب نصيبه قال . آثر اخاك النمرى فيؤثره حتى أضر به العطش فلما رأى ذلك استحث ناقته وبادر حتى رفعت له أعلام الماء وقيل له رد كعب فإنك وراد فمات قبل أن يرد ونجا رفيقه . ومن قول أبى تمام :

هو البحر من أى النواحى أتيته   فلجته المعروف والجود ساحله
كريم إذا ما جئت للعرف طالبا   حباك بما تحوى عليه أنامله

فلو لم يكن فى كفه غير نفسه　　لجاد بها فليتق الله سـائله

وللبحترى

لو أن كفك لم تجد لمؤمل　　لكفاه عاجل وجهك المتهلل
ولو أن مجدك لم يكن متقادماً　　أغناك آخر سودد عن أول

ولبكر بن النطاح :

بطل بصدر حسامه وسنانه　　أجلان من صدر ومن إيراد
ورث المكارم وابتناها قاسم　　بصفائح وأسنة وجيـاد
يا عصمة العرب التى لو لم تكن　　حيا إذا كانت بغير عماد
إن العيون إذا رأتك حدادها　　رجعت من الإجلال غير حداد
وإذا رميت الثغر منك بعزمة　　فتحت منه مواضع الأسداد
وكأن رمحك منقع فى عصفر　　وكأن سيفك سل من فرصاد
لو صال من غضب أبو دلف على　　بيض السيوف لذبن فى الأغماد
أورى ونور للعداوة والهوى　　نارين نار دم ونار زناد

قال أبو هفان، أنشدت هذه الأبيات عبد العزيز بن أبى دلف بسر من رأى . فقال هل سمعت بمثل هذه الأبيات . قلت . لا . قال . ولغيره فى أبى دلف :

ولو يجوز لقال الناس كلهم　　لولا أبو دلف ما أورق الشجر

قال ابن يحيى النديم : دعانى المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال . أنشدنى قول عمارة فى أهل بغداد . فأنشدته :

من يشترى منى ملوك مخرم　　أبع حسناً وابنى هشام بدرهم
وأعطى رجاء بعد ذاك زيادة　　وأمنح ديناراً بغير تندم
فان طلبوا منى الزيادة زدتهم　　أبا دلف والمستطيل بن أكثم

فقال المتوكل : ويلى على ابن البوال على عقبيه يهجو شقيق دولة العباس قال فهل عندك

من المدح فى أبى دلف القاسم بن عيسى شىء . قلت نعم يا أمير المومنين قول الأعرابى الذى يقول فيه :

أبادلف إن السماحة لم تزل مغلـــلة تشكو إلى الله غلها
فبشرها ربى ببـــلاد قاسم فارسل جبريلا إليها لحلهـــا

وقال غيره :

حر إذا جئته يومـا لتسأله أعطاك ماملكت كفاه واعتذرا
يخفى صنائعه والله يظهرهـا إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

وقال آخر :

فتى عاهد الرحمن فى بذل ماله فليس تراه الدهر إلا على العهد
فتى قصرت آماله عن فعـاله وليس على الحر الكريم سوى الجهد

وقال آخر :

إذا ما أتاه السائلون توقدت عليه مصابيح الطلاقة والبشر
له فى ذرى المعروف نعمى كأنها مواقع ماء المزن فى البلد القفر

وقال آخر :

عاد السرور إليك فى الأعيـاد وسعدت من دنياك بالإسعاد
رفقاً بعبد جـــل ما أوليته رفقاً فقـــد أثقلته بأيادى
مـــلأ النفوس مهابة ومحبة بـــدر بدا متغمراً بسواد
ما إن أرى لك مشبها فيمن أرى إن الكرام قليلة الانـــداد

وقال فى ابن أبى دؤاد :

بدا حين أثرى بإخوانه ففلل عنهم شباة العدم
وحذره الحزم صرف الزمان فبادر قبل انتقال النعم

فليس وإن بخل الباخلو ن يقرع سنا له من ندم
ولاينكت الأرض عند السؤال ليمنع سؤاله عن نعم
ولكن يرى مشرقا وجهه ليرغم فى ماله من رغم

ويروى فى الحديث انه لا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد صالح أبداً . ويقولون . الشحيح أغدر من الظالم اقسم الله بعزته لا يساكنه بخيل فى جنته وقال النبى صلى الله عليه وسلم من فتح له باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدرى متى يغلق عنه . وقال الشاعر فى ذلك :

ليس فى كل ساعة وأوان تتهيـــا صنائع الإحسان
فاذا أمكنت تقدمت فيها حذرا من تعذر الإمكان

وذكر عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه أن أمير المؤمنين علياً صلوات الله عليه بعثه إلى حكيم بن حزام بن خويلد يسأله مالا فانطلق به إلى منزله فوجد فى الطريق صوفا فاخذه ومر بقطعة كساء فاخذها فلما صار إلى المنزل أعطاه طرف الصوف فجعل يفتله حتى صيره خيطاً ثم دعا بغرارة مخرقة فرقعها بالكساء وخيطها بالخيط وصرفها ثلاثين الف درهم فحملت معه قال وأتى قوم قيس بن سعد بن عبادة الانصارى رحمه الله يسألونه فى حمالة فصادفوه فى حائط له يتتبع ما يسقط من التمر فيعزل جيده ورديئه على حدة فهموا بان يرجعوا عنه وقالوا . ما نظن عنده خيراً ثم كلموه فاعطاهم فقال رجل من القوم . لقد رأيناك تصنع شيئاً لا يشبه فعالك فقال وماذاك فاخبروه فقال : ان الذى رأيتم يؤول إلى اجتماع ما ينفع وينمو . ومنها قيل : الذود الى الذود إبل . وأنشد :

رب كبير هاجه صغير وفى البحور تغرق البحور

وقال آخر :

قد يلحق الصغير بالجليل وإنما القرم من الافيل
وسحق النخل من الفسيل

قال واتى رجل طلحة بن عبيد الله فساءله حمالة فرآه يهنأ بعيراله فقال ياغلام اخرج

اليه بدرة فقبضها وقال أردت أن أنصرف حين رأيتك تهنأ البعير فقال إنا لا نضيع الصغير ولا يتعاظمنا الكبير .

﴿ مساوىء البخل ﴾

المثل السائر فى البخل : هو أبخل من مادر . وهو رجل من بنى هلال بن عامر بلغ من بخله أنه كان يسقى ابله فبقى أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدر الحوض به فسمى مادراً . وذكروا ان بنى هلال وبنى فزارة تنافروا إلى أنس بن مدرك وتراضوا به . فقالت بنو هلال يا بنى فزارة أكلتم ايرالحمار فقالت بنو فزارة . . لم نعرفه . وكان سبب ذلك أن ثلاثة اصطحبوا : فزارى وثعلبى وكلابى فصادفوا حمار وحش ومضى الفزارى فى بعض حوائجه فطبخا وأكلا وخبئا للفزارى اير الحمار فلما رجع قالا . قد خبأنا لك حقك فكل . فاقبل يأكل ولا يسيغه فجعلا يضحكان ففطن وأخذ السيف وقام اليهما وقال : لتأكلان منه أو لأقتلنكما فامتنعا فضرب أحدهما فقتله وتناوله الآخر فأكل منه ، فقال فيهم الشاعر :

نشدتك يافزار وأنت شيخ إذا خيرت تخطىء فى الخيار
أصيحانيـــة أدمت بسمن أحب إليك أم إير الحمار
بلى إير الحمار وخصيتاه أحب إلى فزارة من فزارى

فقالت بنو فزارة : منكم يابنى هلال من سقى إبله فلما رويت سلح فى الحوض ومدره بخلا فنفرهم أنس بن مدرك على الهلاليين فاخذ الفزاريون منهم مائة بعير وكانوا تراهنوا عليها ، وفى بنى هلال يقول الشاعر :

لقد جللت خزياً هلال بن عامر بنى عامر طراً بسلحة مادر
فأف لكم لا تذكروا الفخر بعدها بنى عامر أنتم شرار المعاشر

وفى المثل ، هو أبخل من أبى حباحب . وهو رجل فى الجاهلية بلغ من بخله أنه كان يسرج السراج فإذا أراد أحد أن يأخذ منه أطفأه ، فضرب به المثل ، ومنه صاحب نجيح بن سلكة اليربوعى فإنه ذكر : ان نجيحا اليربوعى خرج يوماً يتصيد فعرض له حمار وحش فاتبعه حتى دفع إلى أكمة فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد فى أطمار بين يديه ذهب وفضة ودر وياقوت فدنا منه فتناول بعضها ولم يستطع أن يحرك يده حتى ألقاه فقال : ياهذا ماهذا

الذى بين يديك وكيف يستطاع أخذه وهل هو لك أم لغيرك فإنى أعجب ما أرى أجواد أنت فتجود لنا أم بخيل فنعذرك فقال الأعمى : أطلب رجلا فقد منذ سنين وهو سعد بن خشرم بن شماس فأتنى به نعطك ما تشاء . فانطلق نجيح مسرعا قد استطير فؤاده حتى وصل إلى قومه ودخل خباءه ووضع رأسه فنام لما به من الغم لا يدرى من سعد بن خشرم فأتاه آت فى منامه فقال له . يا نجيح ان سعد بن خشرم فى حى بنى محلم من ولد ذهل بن شيبان . فسأل عن بنى محلم ثم سأل عن خشرم بن شماس فإذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه لحياه نجيح فرد عليه السلام ، فقال له نجيح من أنت ؟ قال أنا خشرم بن شماس قال له فاين ولدك سعد قال خرج فى طلب نجيح اليربوعى وذلك ان آتيا أتاه فى منامه فحدثه أن مالا له فى نواحى بنى يربوع لا يعلم به إلا نجيح اليربوعى فضرب نجيح فرسه ومضى وهو يقول :

أيطلبنى من قد عنانى طلابه فياليتنى ألقاك سعد بن خشرم
أتيت بنى يربوع تبغى لقاءنا وجئت لكى ألقاك حى محلم

فلما دنا من محلته استقبله سعد فقال له نجيح . أيها الراكب هل لقيت سعدا فى بنى يربوع قال أنا سعد فهل تدل على نجيح . قال ، أنا نجيح وحدثه بالحديث ، فقال الدال على الخير كفاعله وهو أول من قالها . فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان فتوارى الرجل الأعمى عنهما وترك المال فاخذه سعد كله فقال نجيح ياسعد قاسمنى . فقال له ، أطو عنى وعن مالى كشحا . وأبى أن يعطيه شيئاً فانتضى نجيح سيفه فجعل يضربه حتى برد فلما وقع قتيلا تحول الرجل الحافظ للمال سعلاة فاسرع فى أكل سعد وعاد المال إلى مكانه فلما رأى نجيح ذلك ولى هارباً إلى قومه . قيل وكان أبو عبس بخيلا وكان إذا وقع الدرهم فى يده نقره باصبعه ثم يقول : كم من مدينة قد دخلتها ويد قد وقعت فيها فالآن استقر بك القرار واطمأنت بك الدار ثم يرمى به فى صندوقه فيكون آخر العهد به . قيل : ونظر بيلمان بن مزاحم إلى درهم فقال فى شق ، لا إله إلا الله ، وفى شق ، محمد رسول الله ماينبغى أن تكون إلا معاذة وقذفه فى صندوقه . وذكروا أنه كان بالرى عامل على الخراج يقال له المسيب فاتاه شاعر يمتدحه فلم يعطه شيئاً ثم سعل سعلة فضرط ، فقال الشاعر :

أتيت المسيب فى حاجة فما زال يسعل حتى ضرط
فقال غلطنا حساب الخراج فقلت من الضرط جاء الغلط

فما زالوا يقولون ذلك حتى هرب منها من غير عزل . قال ، وكتب ارسطاطاليس إلى

رجل بشيء فلم يفعل فكتب إليه ، إن كنت أردت فلم تقدر فمعذور وإن كنت قدرت ولم ترد فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدر ، قال . وسمع أبو الأسود الدؤلى رجلا يقول من يعشى الجائع ، فعشاه ثم قام الرجل ليخرج فقال . هيهات تخرج فتؤذى الناس كما آذيتنى ، ووضع رجله فى الأدهم حتى أصبح ، قال وكان رجل ياتى ابن المقفع فيلح عليه وسأله أن يتغدى عنده ويقول لعلك تظن أنى أتكلف لك شيئاً والله لا أقدم لك إلا ما عندى فلما أتاه لم يجد فى بيته إلا كسراً يابسة وملح جريش ، وجاء سائل إلى الباب فقال له ، وسع الله عليك ، فلم يذهب فقال ، والله لئن خرجت إليك لأدقن رأسك . فقال ابن المقفع للسائل . ويحك لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق وعده لم ترد كلمة ولم تقم طرفة عين ، قال ، وكتب ابراهيم بن سيابة الى صديق له كثير المال يستسلفه . فكتب اليه ، العيال كثير والدخل قليل والمال مكذوب عليه فكتب اليه ، ان كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً وان كنت صادقاً فجعلك الله معذوراً وكتب آخر الى آخر يصف رجلا ، أما بعد فإنك كتبت تسال عن فلان كانك هممت به أو حدثتك نفسك بالقدوم اليه فلا تفعل فإن حسن الظن به لا يقع فى الوهم الا بخذلان الله والطمع فيما عنده لا يخطر على القلب الا بسوء التوكل على الله والرجاء فيما فى يده لاينبغى الا بعد اليأس من رحمة الله إنه يرى الإيثار الذى يرضى به التبذير الذى يعاقب عليه والاقتصاد الذى أمر به الإسراف الذى يعاقب عليه وأن بنى إسرائيل لم يستبدلوا العدس والبصل بالمن والسلوى إلا لفضل أخلاقهم وقديم علمهم وأن الصنيعة مرفوعة والصلة موضوعة والهبة مكروهة والصدقة منحوسة والتوسع ضلالة والجود فسوق والسخاء من همزات الشياطين وأن مواساة الرجال من الذنوب الموبقة والأفضال عليهم من إحدى الكبائر وايم الله إنه يقول إن الله لا يغفر أن يؤثر المرء خصاصة على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن آثر على نفسه فقد ضل ضلالا بعيداً كانه لم يسمع بالمعروف إلا فى الجاهلية الذين قطع الله أدبارهم ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم وان الرجفة لم تاخذ أهل مدين الا لسخاء كان فيهم ولا أهلكت الريح عاداً إلا لتوسع كان منهم فهو يخشى العقاب على الانفاق ويرجو الثواب على الاقتار ويعد نفسه خاسراً ويعدها الفقر ويأمرها بالبخل خيفة أن تمر به قوارع الدهر وأن يصيبه ما أصاب القرون الاولى فاقم رحمك الله مكانك واصطبر على عسرك عسى الله أن يبدلنا واياك خيراً منه زكاة وأقرب رحماً. ولبعض الكتاب أما بعد فإن كثير المواعيد من غير نجح عار على المطلوب إليه وقلتها مع نجح الحاجة مكرمة من صاحبها وقد ردتنا فى حاجتنا هذه فى كثرة مواعيدك من غير نجح لها حتى كأنا قد رضينا بالتعلل لها دون النجاح ، كقول القائل :

لا تجعلنا كـكمون بمزرعـــة　　إن فاته المـاء أروته المواعيد

وكتب آخر ، ما رأيت مثل طيب قولك أمره سوء فعلك ولا مثل بسط وجهك خالفه طول تنكيدك ولا مثل قرب عدتك باعدها إفراط مطلك ولا مثل أنس مذاهبك أوحش منه اختبار عواقبك حتى كأن الدهر أوعدك لطيف الحيلة بالمكر بأهل الخلة وكأنه زينك فيهم بالخديعة لتدرك منهم فرصة الهلكة . وقد قيل : وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتأجيل . وقال بعضهم : وعدتنا مواعيد عرقوب ومطلتنا مطل نعاس الكلب وغررتنا غرور السراب ومنيتنا أماني الكمون . ولبعضهم أما بعد فلا تدعني معلقاً بوعدك فالعذر الجميل أحسن من المطل الطويل فإن كنت تريد الإنعام فانجح وإن تعذرت الحاجة فاوضح واعلمني ذلك لأصرف وجه الطلب إلى غيرك . وذكروا أن فتى من مراد كان يختلف إلى عمرو بن العاص فقال له ذات يوم : ألك امرأة . قال ، لا . قال ، فتزوج وعلى المهر . فرجع إلى أمه فاخبرها الخبر فقالت :

إذا حـــدثتك النفس إنك قادر　　على ماحوت أيدى الرجال فكذب

فتزوج وأتى عمرو بن العاص فاعتل عليه ولم ينجز وعده فشكى ذلك إلى أمه فقالت:

لا تغضبن على امرىء فى ماله　　وعلى كرائم حر مالك فاغضب

ووصف أعرابى رجلا فقال ، له بشر مطمع ومطل مؤيس وكنت منـه أبداً بين الطمع واليأس لابذل سريع ولا مطل مريح ، وقال أعرابى ، أنا من فلان فى أمانى تهبط العصم وخلف يذكر العدم ولست بالحريص الذى إذا وعده الكذوب علق نفسه لديه وأتعب راحلته إليه ، ، وذكر أعرابى رجلا فقال ، له مواعيد عواقبها المطل وثمارها الخلف وعصولها اليأس ، ويقال سرعة اليأس أحد النجحين ، وقال بعضهم مواعيد فلان مواعيد عرقوب ولمع الآل وبرق الخلب وأمانى الكمون ونار الحباحب وصلف تحت الراعدة ، ومما قيل فى ذلك :

أروح وأغدو نحوكم فى حوائجى　　فأصبح فيها غدوة كالذى أمسى
وقد كنت أرجو للصديق شفاعتى　　فقد صرت أرضى أن أشفع فى نفسى

ولأبى نواس :

وعدتنى وعدك حتى إذا   أطمعتنى فى كنز قارون
جئت من الليل بغسالة   تغسل ما قلت بصابون

ولأبى تمام :

يحتاج من يرتجى نوالكم   إلى ثلاث من غير تكذيب
كنوز قارون أن تكون له   وعمر نوح وصبر أيوب

وقال آخر :

إنى رأيت من المكارم حسبكم   أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا

وقال حسان بن ثابت :

إنى لأعجب من قول غررت به   حلو يمد إليه السمع والبصر
لو تسمع العصم من صم الجبال به   ظلت من الراسيات العصم تنحدر
كالخمر والشهد يجرى فوق ظاهره   وما لباطنه طعم ولا خبر
وكالسراب شبيهاً بالغدير وإن   تبغ السراب فلا عين ولا أثر
لا ينبت العشب عن برق وراعدة   غراء ليس لها سيل ولا مطر

وقال آخر :

رأيت أبا عثمان يبذل عرضه   وخبز أبى عثمان فى أحرز الحرز
يحن إلى جاراته بعد شبعه   وجاراته غرثى تحن إلى الخبز

وقال آخر :

ما كنت أحسب أن الخبز فاكهة   حتى نزلت على أوفى بن منصور
الحابس الروث فى أعفاج بغلته   خوفا على الحب من لقط العصافير

وقال آخر :

نوالك دونه خرط القتاد   وخبزك كالثريا فى البعاد

ترى الإصلاح صومك لا لنسك   وكسر الخبز من عمل الفساد
أرى عمر الرغيف يطول جدا   لديك كأنه من قوم عـــاد

وقال آخر :

اللؤم منك على الطعام طباع   فعيال بيتك ما حييت جياع
وإذا يمر بباب دارك سائل   حملت عليه نوابح وسباع
وعلى رغيفك حية مسمومة   وعلى خوانك عقرب وشجاع

وقال آخر :

ياتارك البيت عـــلى الضيف   وهارباً عنه من الخـــوف
ضيفك قد جاء بخـــبز له   فارجع وكن ضيفاً على الضيف
إذا اشتهى الضيف طبيخ الشتا   أتـــاه بالشهوة فى الصيف
وإن دنا المسكين من بابه   شد عـــلى المسكين بالسيف

وقال آخر :

أرى ضيفـــك بالدار   وكرب الجـــوع يغشاه
على خبزك مكتوب   سيكفيكهم اللـــه

وقال آخر :

لأبى نوح رغيـــف   أبـــداً فى حجر دايه
أبـــداً يمسحه الدمـــر   بـــكم ووقايـــه
وله كاتب سر   خـــط فيه بعنايه
فسيكفيكهم اللـــه   إلى آخـــر الآيـــة

وقال آخر :

الخبز يبطى حين يدعو به   كأنه يقدم من قاف
ويمـدح الملح لأصحابه   يقول هـذا ملح سيراف

سيان أكل الخبز فى داره   وقلع عينيه بخطاف

وقال آخر :

فتى لا يغار على عرسه   ولكن يغار على خبزه
فمنه يد الجود مقبوضة   وكف السماحة فى عجزه

وقال آخر :

يصونون أثوابهم فى التخوت   وأزواجهم بذلة فى السكك
ينحون من رام رغفانهم   ويدنون من رام حل التكك

وقال آخر :

أما الرغيف على الخوا   ن فمن حامات الحرم
ما إن يجس ولا يمس   ولا يذاق ولا يشم
فتراه أخضر يابساً   بالى النقوش من الهرم

وقال آخر :

أتينا أبا طاهر مفطرين   إلى داره فرجعنا صياما
وجاء بخبز له حامض   فقلت دعوه وموتوا كراما

وقال آخر :

يبخل بالماء ولو أنه   منغمس فى وسط النيل
شحاً فلا تطمع فى خبزه   ولو تشفعت بجبريل

وعن حذيفة بن محمد الطائى قال .قال الرشيد ما لأحد من المولدين ما لأبى نواس فى الهجاء

وما روحتنا لتذب عنا   ولكن خفت مرزئة الذباب
شرابك كالسراب إذا التقينا   وخبزك عند منقطع التراب

وقال آخر :

خان عهدى عمرو وما خنت عهده ... وجفانى وما تغيرت بعده
ليس لى ما حييت ذنب إليه ... غير أنى يوماً تغديت عنده

وقال الخليل بن أحمد العروضى الازدى

فكفاه لم تخلقا للندى ... ولم يك بخلهما بدعه
فكف على الخير مقبوضة ... كما نقصت مائة تسعة
وكف ثلاثة آلافها ... وتسع مئيها لها شرعه(١)

وقال ابن أبى البغل :

وكل من أجتديه فى بلد ... أروم مما لديه فى صفد
يعقد لى باليسار أربعة ... منقوصة تسعة الى العدد

وقال آخر :

أتيت أبا عمرو أرجى نواله ... فزاد أبو عمرو على حزنى حزنا
فكنت كباغى القرن أسلم أذنه ... فآب بلا أذن ولم يستفد قرنا

﴿ محاسن الشجاعة ﴾

قيل كان باليمامة رجل من بنى حنيفة يقال له جحدر بن مالك وكان لسنا فاتكا شجاعا شاعراً وكان قد أبر على أهل هجر و ناحيتها فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب إلى عامل اليمامة يوبخه بتلاعب جحدر به ويأمره بالتجرد فى طلبه حتى يظفر به فبعث العامل إلى فتية من بنى يربوع بن حنظلة فجعل لهم جعلا عظيما إن هم قتلوا جحدراً أوأتوه به أسيراً ووعدهم أن يوفدهم إلى الحجاج ويسنى فرائضهم فخرج الفتية فى طلبه حتى إذا كانوا قريباً منه بعثوا

---

(١) قلت فى هامش الأصل مانصه وذكر جعفر بن محمد التميمى فى كتابه الجامع فى اللغة لشرعة المثل يقال هذا شرعة ذاك أى مثله وعلى هذا تاولوا قول الخليل رحمه الله فكف وذكر الأبيات الثلاثة ثم قال يريد مثلها أى مثل الاولى وأنا أرى أن تكون شرعة ها هنا دينا وسنة قال هذا لهادينا

إليه رجلا منهم يريه أنهم يريدون الانقطاع إليه والتحرم به فوثق بهم واطمأن إليهم فبينما هم على ذلك إذ شدوه وثاقاً وقدموا به إلى العامل فبعث به معهم إلى الحجاج وكتب يثنى على الفتية فلما قدموا على الحجاج قال له أنت جحدر . قال ، نعم : قال . ماحملك على مابلغنى عنك ، قال ، جراءة الجنان وجفوة السلطان وكلب الزمان ، قال ، وما الذى بلغ من أمرك فيجترىء جنانك ويصلك سلطانك ولا يكلب زمانك ، قال لو بلانى الأمير لوجدنى من صالحى الأعوان وبهم الفرسان وممن أوفى على أهل الزمان قال : الحجاج إنا قاذفوك فى قبة فيها أسد فإن قتلك كفانا مؤنتك وإن قتلته خليناك ووصلناك ، قال : قد أعطيت أصلحك الله الأمنية وأعظمت المنة وقربت المحنة . فأمر به فاستوثق منه بالحديد وألقى فى السجن وكتب إلى عامله بكسكر يأمره أن يصيد له أسداً ضارياً فلم يلبث العامل أن بعث إليه بأسود ضاريات قد أبرت على أهل تلك الناحية ومنعت عامة مراعيهم ومسارح دوابهم فجعل منها واحداً فى تابوت يجر على عجلة فلما قدموا به على الحجاج أمر فالقى فى حيز وأجيع ثلاثاً ، ثم بعث إلى جحدر فأخرج وأعطى سيفاً ودلى عليه فمشى الى الأسد ، وأنشا يقول :

ليث وليث فى مكان ضنك ... كلاهما ذو أنف ومحك
وصولة فى بطشة وفتك ... إن يكشف الله قناع الشك
وظفراً بجؤجؤ وبرك ... فهو أحق منزل بترك

الذئب يعوى والغراب يبكى

حتى إذا كان منه على قدر رمح تمطى الأسد وزأر وحمل عليه فتلقاه جحدر بالسيف فضرب هامته ففلقها وسقط الأسد كأنه خيمة قوضتها الريح فانثنى جحدر وقد تلطخ بدمه لشدة حملة الأسد عليه فكبر الناس ، فقال : الحجاج ياجحدر إن أحببت أن الحقك ببلادك وأحسن صحبتك وجائزتك فعلت بك وإن أحببت أن تقيم عندنا أقمت فاسنيناف ريضتك . قال : أختار صحبة الأمير ففرض له ولجماعة أهل بيته : وأنشأ جحدر يقول :

يا جمل إنك لو رأيت بسالتى ... فى يوم هيج مردف وعجاج
وتقدمى لليث أرسف نحوه ... حتى أكابده على الإحراج
جهم كأن جبينه لما بدا ... طبق الرحا متفجر الأثباج
يرنو بناظرتين تحسب فيهما ... من ظن خالهما شعاع سراج
شثن براثنه كأن نيوبه ... زرق المعاول أو شذاة زجاج

وكأنما خيطت عليه عباءة ... برقاء أو خلق من الديباج
قرنان مخضران قد ربتهما ... أم المنية غير ذات نتاج
وعلمت أنى إن أبيت نزاله ... أنى من الحجاج لست بناج
فمشيت أرسف فى الحديد مكبلا ... بالموت نفسى عند ذاك أناجى
والناس منهم شامت وعصابة ... عبراتهم لى بالحلوق شواجى
ففلقت هامته فخر كأنه ... أطم تقوض مائل الأبراج
ثم انثنيت وفى قميصى شاهد ... مما جرى من شاخب الأوداج
أيقنت أنى ذو حفاظ ماجد ... من نسل أملاك ذوى أتواج
فلئن قذفت الى المنية عامداً ... إنى لخيرك بعد ذلك راجى
علم النساء بانني لا أنثنى ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

وحكى عن الطفيل بن عامر العمرى قال . خرجت ذات يوم أريد الغارة وكنت رجلا أحب الوحدة فبينما أنا أسير إذ ضللت الطريق الذى أردته فسرت أياما لا أدرى أين أتوجه حتى نفد زادى فجعلت آكل الحشيش وورق الشجر حتى أشرفت على الهلاك ويئست من الحياة فبينما أنا أسير اذ أبصرت قطيع غنم فى ناحية من الطريق فملت اليها واذا شاب حسن الوجه فصيح اللسان قال لى . يا ابن العم أين تريد . فقلت . أردت حاجة لى فى بعض المدن وما أظننى إلا قد ضللت الطريق . فقال . أجل إن بينك وبين الطريق مسيرة أيام فانزل حتى تستريح وتطمئن وتريح فرسك فنزلت فرمى لفرسى حشيشاً وجاء إلى بثريد كثير ولبن ثم قام الى كبش فذبحه وأجج ناراً وجعل يكبب لى ويطعمنى حتى اكتفيت فلما جننا الليل قام وفرش لى وقال . قم فادم بنفسك فان النوم أذهب لتعبك وأرجع لنفسك فقمت ووضعت رأسى فبينما أنا نائم اذ أقبلت جارية لم تر عيناى مثلها قط حسنا وجمالا فقعدت الى الفتى وجعل كل واحد منهما يشكو الى صاحبه مايلقى من الوجد به فامتنع على النوم لحسن حديثهما فلما كان فى وقت السحر قامت الى منزلها فلما أصبحنا دنوت منه فقلت له . ممن الرجل . قال أنا فلان بن فلان . فانتسب لى فعرفته فقلت له . ويحك ان أباك لسيد قومه فما حملك على وضعك نفسك فى هذا المكان . فقال ، أنا والله أخبرك كنت عاشقاً لابنة عمى هذه التى رأيتها وكانت هى أيضاً لى وامقة فشاع خبرنا فى الناس فاتيت عمى

فسألته أن يزوجنيها فقال يابني والله ما سألت شططاً وما هي بآثر عندي منك ولكن الناس قد تحدثوا بشيء وعمك يكره المقالة القبيحة ولكن أنظر غيرها في قومك حتى يقوم عمك بالواجب لك . فقلت . لا حاجة لي فيما ذكرت وتحملت عليه بجماعة من قومي فردهم وزوجها رجلا من ثقيف له رئاسة وقدر فحملها الى هنا - وأشار بيده الى خيم كثيرة بالقرب منا - فضاقت علي الدنيا برحبها وخرجت في أثرها فلما رآني فرحت فرحاً شديداً فقلت لها . لا تخبري أحداً اني منك بسبيل ثم أتيت زوجها وقلت . أنا رجل من الازد أصبت دماً وأنا خائف وقد قصدتك لما أعرف من رغبتك في اصطناع المعروف ولي بصر بالغنم ان رأيت أن تعطيني من غنمك شيئاً فأكون في جوارك وكنفك فافعل . قال . نعم وكرامة فاعطاني مائة شاة وقال لي . لا تبعد بها من الحي وكانت ابنة عمي تخرج الي كل ليلة في الوقت الذي رأيت وتنصرف فلما رأى حسن حال الغنم أعطاني هذه فرضيت من الدنيا بما ترى . قال ، فأقمت عنده أياماً فبينا أنا نائم إذ نبهني وقال ، يا أخا بني عامر ، قلت له ، ماشأنك ، قال ، إن ابنة عمي قد أبطأت ولم تكن هذه عادتها ووالله ما أظن ذلك إلا لأمر حادث فحدثني . فجعلت أحدثه ، فأنشأ يقول :

ما بال مية لا تأتي كعادتها — هل هاجها طرب أوصدها شغل
لكن قلبي لا يعنيه غيركم — حتى الممات ولا لي غيركم أمل
لو تعلمين الذي بي من فراقكم — لما اعتذرت ولا طابت لك العلل
نفسي فداؤك قد أحللت بي حرقاً — تكاد من حرها الاحشاء تنفصل
لو كان عادية منه على جبل — لزل وانهد من أركانه الجبل

فوالله ما اكتحل بغمض حتى انفجر عمود الصبح وقام ومر نحو الحي فابطأ عني ساعة ثم أقبل ومعه شيء وجعل يبكي عليه. فقلت له ، ماهذا ، قال هذه ابنة عمي افترسها السبع فأكل بعضها ووضعها بالقرب مني فأوجع والله قلبي ثم تناول سيفه ومر نحو الحي فابطأ عني هنيهة ثم أقبل الي وعلى عاتقه ليث كأنه حمار فتأملت له . ماهذا . قال . صاحبي . قلت . وكيف علمته . قال . إني قصدت الموضع الذي أصابها فيه وعلمت أنه سيعود الى مافضل منها فجاء قاصداً الى ذلك الموضع فعلمت أنه هو فحملت عليه فقتلته ثم قام فحفر في الأرض فأمعن وأخرج ثوبا جديداً وقال. يا أخي بني عامر إذا أنا مت فادرجني معها في هذا الثوب ثم ضعنا في هذه الحفرة وهل التراب واكتب هذين البيتين على قبرنا وعليك السلام

كنا على ظهرها والعيش فى مهل ... والدهر يجمعنا والدار والوطن
فخاننا الدهر فى تفريق الفتنا ... واليوم يجمعنا فى بطنها الكفن

ثم التفت إلى الأسد وقال :

ألا أيها الليث المدل بنفسه ... هبلت لقد جرت يداك لناحزنا
وغادرتنى فرداً وقد كنت آلفا ... وصيرت آفاق البلاد لنا سجنا
أأصحب دهراً خانني بفراقها ... معاذ إلهى أن أكون له خدنا

ثم قال . يا أخا بنى عامر إذا فرغت من شأننا فصح فى أدبار هذه الغنم فردها إلى صاحبها ثم قام إلى شجرة فاختنق حتى مات فقمت فادرجتهما فى ذلك الثوب ووضعتهما فى تلك الحفرة وكتبت البيتين على قبرهما ورددت الغنم الى صاحبها وسألنى القوم فاخبرتهم الخبر فخرج جماعة منهم فقالوا والله لننحرن عليه تعظيما له فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة وتسامع الناس فاجتمعوا الينا فنحرت ثلاثمائة ناقة ثم انصرفنا . وقيل لما كان من أمر عبد الرحمن بن الأشعث الكندى ماكان قال الحجاج اطلبوا لى شهاب بن حرقة السعدى فى الأسرى أو القتلى فطلبوه فوجدوه فى الأسرى فلما ادخل على الحجاج قال له من أنت قال أنا شهاب بن حرقة قال والله لأقتلنك قال لم يكن الأمير بالذى يقتلنى قال ولم قال لأن فى خصالا يرغب فيهن الأمير قال وما هن قال ضروب بالصفيحة هزوم للكتيبة أحمى الجار وأذب عن الذمار وأجود على العسر واليسر غير بطىء عن النصر قال الحجاج ما أحسن هذه الخصال فاخبرنى باشد شىء مر عليك قال نعم أصلح الله الأمير .

بينا أنا أسير * ومركبى وثير ... فى عصبة من قومى * فى ليلتى ويومى
يمضون كالاجادل * فى الحرب كالبواسل ... أنا المطاع فيهم * فى كل ما يليهم
فسرت خمساًعوماً * وبعد خمس يوما ... حتى وردت أرضاً * ما أن ترام عرضا
من بلد البحرين * عند طلوع العين ... فجئتهم نهارا * النمس المغارا
حتى إذاكان السحر * من بعد ماغاب القمر ... إذا أنا بعير * يقودها خفير
موقرة متاعا * مقبلة سراعا ... فصلت بالسنان * مع سادة فتيان
فسقتها جميعاً * احثها سريعاً ... أريد رمل عالج * امسح بالمناجج

أسير في الليـــالي * خرقاً بعيداً خالي وقد لقينا تعباً * وبعد ذاك نصبا
حتى اذا هبطنا * من بعد ما صعدنا عنت لنا بيدانه * قد كان فيها عانه
رميتها بقـــوسي * في مهمه كالترس حتى أذا ما أمعنت * بالقفر ثم درمت
وردت قصراً منهلا * في جوفه طام حلا وعنـــده خيمه * في جوفها نعيمه
عـــزيزة كالشمس * فاتت جميع الانس فجئت مهري عندها * حتى وقفت معها
حييت ثم ردت * في لطف وحيت فقلت يالعـــوب * والغفلة المروب
هـــل عندكم قراء * إذ نحن بالعـــراء قال نعم برحب * في لطف وقرب
أربع هنا عتيـــدا * ولا تكن بعيداً حتى يجئك عامر * مثل الهلال زاهر
فجئت عن قريب * في باطن الكثيب حتى رأيت عامراً * يحمل ليثا خادرا
على عتيق سابح * كمثل طود الامح

قال : وكان الحجاج متكئاً فاستوى جالسا ثم قال . ويحك دعنا من السجع والرجز وخذ في الحديث . قال . نعم أيها الامير ثم نزل فربط فرسه وجمع حجارة وأوقد عليها نارا وشق عن بطن الأسد وألقى مراقه في النار فجعلت أصلح الله الأمير أسمع للحم الأسد نشيشاً فقالت له نعيمة قد جاءنا ضيف وأنت في الصيد . قال . فما فعل ، قالت . ها هوذاك بظهر الكثيب والخيمة فأومأت إلى فأتيتها فإذا أنا بغلام أمرد كان وجهه دارة القمر فربط فرسي الى جنب فرسه ودعاني إلى طعامه فلم امتنع من أكل لحم الأسد لشدة الجوع فأكلت أنا ونعيمة منه بعضه وأتى الغلام على آخره ثم مال إلى رق فيه خمر فشرب ثم سقاني فشربت ثم شرب الغلام حتى أتى على آخره فبينا نحن كذلك إذ سمعت وقع حوافر خيل أصحابي فقمت وركبت فرسي وتناولت رمحي وصرت معهم ثم قلت ياغلام خل عن الجارية ولك ما سواها ، فقال ، ويلك احفظ الممالحة ، قلت لا بد من الجارية فالتفت إليها وقال لها قفي ثم قال يا فتيان هل لكم في العافية وإلا فارس وفارس فبرز اليه رجل من أصحابي فقال له الغلام ، من أنت فسبت أقاتل من لا أعرفه ولا أقاتل الا كفؤا أعرفه فقال أنا عاصم بن كلبة السعدي فشد عليه . وأنشأ يقول .

إنك يا عاصم بي لجاهـــل إذ رمت أمراً أنت عنه ناكل
إني كمي في الحروب باسل ليث إذا اصطك الليوث بازل
ضراب هامات العدى منازل قتال أقــــران الوغا مقاتل

ثم طعنه فقتله وقال يافتيان هل لكم فى العافية وإلا فارس وفارس -فتقدم اليه آخر من أصحابى فقال له الغلام . من أنت فقال أنا صابر بن حرقة فشد عليه وأنشأ يقول .

إنك والإله لست صابراً على سنــان يجلب المقادرا
ومنصل مثــل الشهاب باترا فى كف فرم يمنع الحرائر
إنى إذا رمت أمراً فآسراً يكون قرنى فى الحروب باترا

ثم طعنه فقتله وقال . يا فتيان هل لكم فى العافية وإلا فارس افارس فلما رأيت ذلك هالنى أمره وأشفقت على أصحابى فقلت . احملوا عليه حملة رجل واحد فلما رأى ذلك أنشأ يقول .

الآن طاب الموت ثم طابا إذ تطلبون رخصة كعابا
ولا نريد بعــدها عتابا

فركبت نعيمة فرسها وأخذت رمحها فما زال يجالدنا ونعيمة حتى قتل منا عشرين رجلا فاشفقت على أصحابى فقلت . ياغلام قد قبلنا العافية والسلامة . فقال . ماكان أحسن هذا لوكان أولا ونزلنا وسالمنا ثم قلت يا عامر بحق الممالحة من أنت قال أنا عامر بن حرقة الطائى وهذه ابنة عمى ونحن فى هذه البرية منذ زمان ودهر ما مر بنا أنسى غيركم فقلت من أين طعامكم قال حشرات الطير والوحش والسباع قلت فمن أين شرابكم قال الخمر أجلبها من بلاد البحرين كل عام مرة أو مرتين قلت أن معى مائة من الإبل موقرة متاعا فخذ منها حاجتك فقال لا أرب لى فيها ولو أردت ذلك لكنت أقدر عليه فارتحلنا عنه منصرفين فقال الحجاج الآن يا عدو الله طاب قتلك لغدرك بالفتى قال . كان خروجى على الأمير أصلحه الله أعظم من ذلك فإن عفى عنى الأمير رجوت أن لا يؤاخذنى بغيره فاطلقه ووصله ورده إلى بلده .

﴿ ضده ﴾

قال : دخل أبو زبيد الطائى على عثمان بن عفان فى خلافته وكان نصرانيا فقال له بلغنى أنك تجيد وصف الأسد . فقال له . لقد رأيت منه منظرا وشهدت منه مخبرا لا يزال ذكره يتجدد على قلبى . قال هات ما مر على رأسك منه . قال خرجت يا أمير المؤمنين فى صيابة من افناء

قبائل العرب ذوى شارة حسنة ترتمى بنا المهارى بأكسائها القزوانيات ومعنا البغال عليها العبيد يقودون عتاق الخيل نريد الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك الشام فاخروط بنا المسير فى حمارة القيظ حتى إذا عصبت الأفواه وذبلت الشفاه وشالت المياه وأذكت الجوزاء المعزاء وذاب الصيخد وصر الجندب وضاق العصفور الضب فى وجاره ، قال قائلنا : أيها الركب غوروا بنا فى دوح هذا الوادى فإذا واد كثير الدغل دائم الغلل شجراؤه مغنة وأطياره مرنة فحططنا رحالنا بأصول دوحات كنهبلات فأصبنا من فضلات المزاود وأتبعناها بالماء البارد فإنا لنصف حر يومنا ومماطلته ومطاولته إذ صر أقصى الخيل أذنيه وفحص الأرض بيديه ثم ما لبث أن جال ثم حمحم وبال فهمهم ثم فعل فعله الذى يليه واحد بعد واحد فتضعضعت الخيل وتكعكعت الإبل وتقهقرت البغال فمن نافر بشكاله وناهض بعقاله فعلمنا أن قد أتينا وأنه السبع لا شك فيه ففزع كل امرىء منا إلى سيفه واستله من جربانه ثم وقفنا له رزدقا فأقبل يتظالع فى مشيته كأنه مجنوب أو فى هجار لصدره نحيط ولتلاعيمه غطيط ولطرفه وميض ولأرساغه نقيض كأنما يخبط هشيما أو يطأ صريما وإذا هامة كالمجن وخد كالمسن وعينان سجراوان كأنهما سراجان يقدان وقصرة ربلة ولهزمة رهلة وكتد مغبط وزور مفرط وساعد مجدول وعضد مفتول وكف شثنة البراسن إلى مخالب كالمحاجن ثم ضرب بذنبه فأرهج وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة وفم أشدق كالغار الأخرق ثم تمطى فأسرع بيديه وحفز وركيه برجليه حتى صار ظله مثليه ثم أقعى فاقشعر ثم مثل فاكفهر ثم تجهم فازبأر فلا والذى بيده فى السماء ما اتقيناه بأول من أخ لنا من بنى فزارة كان ضخم الجزارة فوهصه ثم أقعصه فقضقض متنه وبقر بطنه فجعل يلغ فى دمه فذمرت أصحابى فبعد لأى ما استقدموا فكر مقشعر الزبرة كأن به شيهما حوليا فاختلج من دونى رجلا أعجر ذا حوايا فنفضه نفضة فتزايلت أوصاله وانقطعت أوداجه ثم نهم فقرقر ثم زفر فبربر ثم زأر فجرجر ثم لحظ فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه عن شماله ويمينه فارتعشت الأيدى واصطكت الأرجل وأطت الأضلاع وارتجت الأسماع وحمجت العيون وانخزلت المتون ولحقت الظهور البطون ثم ساءت الظنون . . وأنشأ يقول :

عبوس شموس مصلخد خنابس	جرىء على الأرواح للقرن قاهر
منيع ويحمى كل واد يرومه	شديد أصول الماضغين مكابر
براثنه شثن وعيناه فى الدجى	كجمر الغضا فى وجهه الشر ظاهر
يدل بأنياب حداد كأنها	إذا قلص الاشداق عنها خناجر

فقال عثمان اكفف لا أم لك فلقد أرعبت قلوب المسلمين ولقد وصفته حتى كأنى أنظر إليه يريد يواثبنى . وقيل فى المثل هو أجبن من هجرس ـ وهو القرد ـ وذلك أنه لاينام إلا وفى يده حجر مخافة أن يأكله الذئب ، وحدثنا رجل بمكة قال . إذا كان الليل رأيت القرود تجتمع فى موضع واحد ثم تبيت مستطيلة واحداً فى أثر واحد فى يد كل واحد منهم حجر لئلا ترقد فيأتيها الذئب فيأكلها وإن نام واحد وسقط الحجر من يده فزع فتحرك الآخر فصار قدامه فلا تزال كذلك طول الليل فتصبح وقد صارت مع الموضع الذى باتت فيه على ثلاثة أميال أو أكثر جبناً ، وقيل . هو أجبن من صافر ، وهو طائر يتعلق برجليه وينكس رأسه ثم يصفر ليلته كلها خوفاً من أن ينام فيؤخذ ، وقيل أيضاً هو أجبن من المنزوف ضرطاً ، وكان من حديثه أن نسوة من العرب لم يكن لهن رجل فتزوجت واحدة منهن برجل كان ينام إلى الضحى فاذا انتبه ضربنه وقلن له قم فاصطبح ويقول لو لعادية نبهتنى ـ أى خيل عادية عليكن مغيرة فأدفعها عنكن فلما رأين ذلك فرحن وقلن إن صاحبنا لشجاع ثم أقبلن وقلن تعالين نجربه فاتينه كما كن يأتينه فايقظنه فقال لو لعادية نبهتنى . فقلن له . نواصى الخيل معك ، فجعل يقول الخيل الخيل ويضرط حتى مات فضرب به المثل . وقيل لجبان انهزمت فغضب الأمير عليك ، قال يغضب الأمير وأنا حى أحب إلى من أن يرضى وأنا ميت ، وقيل لبعض المجان مالك لا تغزو ، قال والله إنى لابغض الموت على فراشى فكيف أمر إليه ركضاً ، قال . وقال الحجاج لحميد الارقط وقد أنشده قصيدته يصف فيها الحرب ياحميد هل قاتلت قط ، قال لا أيها الامير الا فى النوم قال وكيف كانت وقعتك ، قال انتبهت وأنا منهزم ، ومما قيل فى ذلك من الشعر :

ظلت تشجعنى هند بتضليل ... وللشجاعة خطب غير مجهول
هاتى شجاعا لغير القتل مصرعه ... أو جدك ألف جبان غير مقتول
الحرب توسع من يصلى بها حربا ... يتم العيال واشكال المثاكيل
اسم الوغى اشتق من غوغاء يحربها ... يغدون للموت كالطير الأبابيل
والله لو أن جبريلا تكفل لى ... بالنصر ما خاطرت نفسى لجبريل
هل غير أن يعذرونى أننى فشل ... فكل هذا نعم فاغروا بتعزيلى
إن أعتذر من فرارى فى الوغى أبداً ... كان اعتذارى رديداً غير مقبول
اسمع أخبرك عن بأسى بذى سلب ... خلاف بأس المساعير الهاليل
لما بحت منهم نحوى عشوزنة ... شماء تشرع فى عرضى وفى طولى

فقلت ويحكم لا ترهبوا جلدى رمحى كسير وسيفى غير مصقول
لما اتقيتهم طوعا بذات يد وانصعت أطوى الفلا ميلا إلى ميل
الله خلصنى منهم وفلسفتى حتى تخلصت مخضوب السراويل

وقال آخر :

أضحت تشجعنى هند فقلت لها إن الشجاعة مقرون بها العطب
لا والذى حجت الأنصار كعبته ما يشتهى الموت عندى من له أرب
للحرب قوم أضل الله سعيهم إذا دعتهم إلى حوماتها وثبوا
ولست منهم ولا أهوى فعالهم لا القتل يعجبنى منهم ولا السلب

وقال آخر :

يقول لى الأمير بغير جرم تقدم حين حل بنا المراس
فمالى إن أطعتك فى حياة ولا لى غير هذا الراس راس

﴿ محاسن حب الوطن ﴾

قال عمر بن الخطاب لولا حب الوطن لخرب بلد السوء ، وكان يقال بحب الأوطان عمرت البلدان ، وقال جالينوس يتروح العليل بنسيم أرضه كما تتروح الأرض الجدبة ببَل المطر ، وقال بقراط يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فان الطبيعة تنزع إلى غذائها ، ومما يؤكد ذلك قول اعرابى وقد مرض بالحضر فقيل له ما تشتهى . فقال مخيضاً رويا وضباً مشويا ، وقد قيل أحق البلدان بنزاعك اليها بلد أمصك حلب رضاعه ، وقيل احفظ أرضا أرسخك رضاعها وأصلحك غذاؤها وارع حمى اكتنفتك فناؤه ، وقيل لا تشك بلداً فيه قبائلك ، وقيل من علامة الرشد أن تكون النفس إلى أوطانها مشتاقة وإلى مولدها تواقة وحدثنا بعض بنى هاشم قال . قلت لاعرابى من أين اقبلت قال من هذه البادية قلت وأين تسكن منها قال مساقط الحمى حمى ضرية ما إن لعمر الله أريد بها بدلا ولا ابتغى عنها حولا حفتها الفلوات فلا يملوح ماؤها ولا تحمى تربتها ليس فيها أذى ولا قذى ولا وعك ولا موم ونحن بأرفه عيش وأوسع معيشة وأسبغ نعمة ، قلت ما طعامكم قال بخ بخ الهبيد

والضباب واليرابيع مع القنافذ والحيات وربما والله أكلنا القد واشتوينا الجلد فلا نعلم أحداً أخصب منا عيشاً فالحمد لله على ما رزق من السعة وبسط من حسن الدعة ، وقيل لأعرابى كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شىء ظله فقال وهل العيش الا ذاك يمشى أحدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان ثم ينصب عصاه ويلقى عليها كساه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه فى إيوان كسرى ، وقال بعض الحكماء عسرك فى بلدك خير من يسرك فى غربتك . وقيل لأعرابى ما الغبطة قال الكفاية ولزوم الأوطان والجلوس مع الإخوان وقيل فما الذل قال التنقل فى البلدان والتنحى عن الأوطان ، وقال بعض الادباء الغربة ذلة والذلة قلة وقال الآخر لا تنهضن عن وطنك ووكرك فتنقصك الغربة وتضمك الوحدة ، وشبهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذى ثكل أبويه فلا أم ترأمه ولا أب يحدب عليه ، وكان يقال الغريب عن وطنه ومحل رضاعه كالغرس الذى زايل أرضه وفقد شربه فهو ذاو لا يثمر وذابل لا ينضر ، وكان يقال الجالى عن مسقط رأسه كالعير الناشز عن موضعه الذى هو لكل سبع فريسة ولكل كلب قنيصة ولكل رام رمية . وأحسن من ذلك وأصدق قول الله عز وجل (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) وقال تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) فقرن جل ذكره الجلاء عن الوطن بالقتل . وقال تقدست أسماؤه (وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) فجعل القتال بازاء الجلاء وقال النبى صلى الله عليه وسلم الخروج عن الوطن عقوبة . ومما قيل فى ذلك من الشعر :

إذا ما ذكرت الثغر فاضت مدامعى ... وأضحى فؤادى نهبة للمهاهم
حنيناً إلى أرض بها اخضر شاربى ... وحلت بها عنى عقود التمائم
وألطف قوم بالفتى أهل أرضه ... وأرعاهم للمرء حق التقادم

وقال آخر :

أحن إلى أرض الحجاز وحاجتى ... خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظرى من نحو نجد بنافعى ... أجل لا ولكنى على ذاك أنظر
ففى كل يوم نظرة ثم عبرة ... لعينيك يجرى ماؤها يتحدر
متى يستريح القلب فاما مجاور ... حزين وإما نازح يتذكر

وقال آخر :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وقال ابن أبى السرح قرأت على حائط بيتى شعر . . وهما

إن الغريب ولو يكون ببلدة يجبى إليه خراجها لغريب
وأقل ما يلقى الغريب من الأذى أن يستذل وأن يقال كذوب

قال وقرأ على حائط بعسكر مكرم :

إن الغريب إذا نادى موجعاً عند الشدائد كان غير مجاب
فإذا نظرت إلى الغريب فكن له مترحماً لتباعد الأحباب

وقال وقرأت على حائط ببغداد :

غريب الدار ليس له صديق جميع سؤاله أين الطريق
تعلق بالسؤال لكل شيء كما يتعلق الرجل الغريق
لا تجزع فكل فتى سيأتى على حالاته سعة وضيق

قال ووجدت على حائط مكتوب :

عليك سلام الله يا خير منزل رحلنا وخلفناك غير ذميم
فإن تكن الأيام فرقن بيننا فما أحد من ريبها بسليم

وقال آخر :

وإن اغتراب المرء من غير حاجة ولا فاقة يسمو لها لعجيب
فحسب امرىء ذلا ولو أدرك الغنى ونال ثراء أن يقال غريب

وقال آخر :

إن الغريب وإن يكن فى غبطة لمعذب وفؤاده محزون
ومتى يكون مع التغرب عاشقاً ومفارقاً يارب كيف يكون

وقال آخر :

إن الغريب ذليل أين ما سلكا لو أنه ملك كل الورى ملكا
إذا تغنى حمام الأيك فى غصن حن الغريب إلى أوطانه فبكى

وقال آخر

سل الله الإياب من المغيب فكم قد رد مثلك من غريب
وسل الحزن منك بحسن ظن ولا تيأس من الفرج القريب

وقال آخر

تصبر ولا تعجل وقيت من الردى لعل إياب الظاعنين قريب
فقلت وفى قلبى جوى لفراقها ألا لا تصبرنى فلست أجيب

وقال آخر

أعاذل حبى للغريب سجية وكل غريب للغريب حبيب
لئن لم أجزع من البين إن مضرا لطيتهم إنى إذاً لكذوب
بل غرات الشوق أضرمت الحشا ففاضت لها من مقلتى غروب

وقال آخر

إذا اغترب الكريم رأى أموراً مجللة يشيب لها الوليد

وقال آخر

ما كنت أحسب أن يكون هكذا تفرقنا سريعا
بخل الزمان على أن نبقى كما كنا جميعاً
فأحلنى فى بلدة وأحلك البلد الشسيعا
قد كنت أنتظر الوصال فصرت أنتظر الرجوعا

وقال آخر .

نسيم الخزامى والرياح التى حرت بنجد على نجد تذكرنى نجداً
أتانى نسيم السدر طيبا إلى الحمى فذكرنى نجداً فقطعنى وجداً

وفى معناه (الدعاء للمسافر) بأيمن طالع وأبشر طائر . ولا كبا لك مركب ولا أشت مذهب ولا تعذر عليك مطلب . . سهل الله لك السير وأنالك القصد وطوى لك البعد بسرة الظافر وكرامة المدخر . . على الطائر الميمون والكوكب السعد إلى حيث تتقاصر أيدى الحوادث عنك وتتقاعس نوائب الأيام دونك بسهولة المطلب ونجاح المنقلب . . كان الله لك فى سفرك خفيرا وفى حضرك ظهيراً بسعى نجيح وأوب سريع . . صرك الله محلك وهداك رحلك وسر بأوبتك أهلك ولا زلت آمنا مقيما وظاعنا بأسعد جد وانجح مطلب واسر منقلب واكرم بدأة وأحمد عاقبة . . اشخص مصحوبا بالسلامة والكلاءة آيبا بالنجح والغبطة محوطا فيما تطالعه بالعناية والشفقة . . فى ودائع الله وكنفه وجواره وستره وأمانه وحفظه وذمامه ، وقال رجل للنبى صلى الله علية وسلم . . إنى أريد سفراً ، فقال : فى كنف الله وستره زودك الله التقوى ووجهك إلى الخير حيث ماكنت استخلف الله فيك واستخلفه منك ، وقال الشاعر :

فى كنف الله وفى ستره من ليس يخلو القلب من ذكره

وقال آخر :

ارحل أبا بشر بايمن طائر وعلى السعادة والسلامة فانزل

(ضده)

قال بعض حكماء الفلاسفة اطلبوا الرزق فى البعد فانكم إن لم تكسبوا مالا غنمتم عقلا كثيراً . وقال آخر لا يألف الوطن الا ضيق العطن ، وقيل لا توحشنك الغربة اذا آنستك النعمة ، وقيل الفقير فى الأهل مصروم والغنى فى الغربة موصول ، وقال لا تستوحش من الغربة اذا أنسك مصروما ، وقيل أوحش قومك ماكان فى ايحاشهم أنسك واهجر وطنك ما نبت عنه نفسك ، وأنشد :

لا يمنعنك خفض العيش فى دعة — نزوع نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حللت بها — أهلا بأهل وجيرانا بجيران

وقال آخر :

نبت بك الدار فسر آمنا — فلاقى حيث انتهى دار

وفى معناه (الدعاء على المسافر) بالبارح الاشام والسانح الأعضب والصرد الأنكد والسفر الأبعد . لا استمرت به مطيته ولا استتبت به أمنيته ولا تراخت منيته . بنحس مستمر وعيش مر . لاقرى إذا استضاف ولا أمن إذا خاف ، ويقال إن عليا عليه السلام لما اتصل به مسير معاوية قال لا أرشد الله قائده ولا أسعد رائده ولا أصاب غيثا ولا سار إلا ريثا ولا رافق إلا ليثا أبعده الله وأسحقه وأوقد على أثره وأحرقه لا حط الله رحله ولا كشف محله ولا بشر به أهله . لا زكى له مطلب ولا رحب له مذهب ولا يسر له مراما ولا فرج الله له غمه ولا سرى همه . لا سقاه الله ماء ولا حل عقده ولا أورى زنده . جعله الله سفر الفراق وعصى الشقاق ، وأنشد .

بأنكد طـــائر وبشر فال — لأبعد غاية وأخس حال
بحد السد حيث يكون منى — كما بين الجنوب إلى الشمال
غريبا تمتطى قدميك دهرآ — على خوف تحن إلى العيال

وقال آخر :

إذا استقلت بك الركاب — فحيث لا درت السحاب
وحيث لا تبتغى فلاحـــآ — وحيث لا يرتجى إياب
وحيث ما درت فيــــه يوما — قاتلك الذئب والغـــراب

وقال آخر :

فسر بالنحوس إلى بلدة — تعمر فيهـــا ولا ترزق
ولا تمرع الأرض من زهرة — ولا يثمر الشجر المورق
تغيض البحار بهـــا مرة — ويكدى السحاب بها المغدق

وقال آخر

أدنى خطاك الهند والصين   وكل نحس بك مقرون
بحيث لا يأنس مستوحش   وحيث لا يفرح محزون
تهوى بك الأرض إلى بلدة   ليس بها ماء ولا طين

﴿ محاسن الدهاء والحيل ﴾

الهيثم بن الحسن بن عمار قال: قدم شيخ من خزاعة أيام المختار فنزل على عبد الرحمن ابن أبان الخزاعى فلما رأى ما تصنع سوقة المختار من الإعظام جعل يقول: يا عباد الله أبا المختار يصنع هذا والله لقد رأيته يتتبع الاماء بالحجاز فبلغ ذلك المختار فدعا به وقال ما هذا الذى بلغنى عنك. قال الباطل، فأمر بضرب عنقه، فقال، لا والله لا تقدر على ذلك. قال، ولم. قال أما دون أن أنظر إليك وقد هدمت مدينة دمشق حجر حجرا وقتلت المقاتلة وسبيت الذرية ثم تصلبنى على شجرة على نهر والله إنى لا أعرف الشجرة الساعة وأعرف شاطىء ذلك النهر فالتفت المختار إلى أصحابه فقال لهم. إن الرجل قد عرف الشجرة فحبس حتى إذا كان الليل بعث إليه فقال، يا أخا خزاعة أو مزاح عند القتل. قال، أنشدك الله أن أقتل ضياعا. قال، وما تطلب ههنا. قال. أربعة آلاف درهم أقضى بها دينى. قال، ادفعوها إليه وإياك أن تصبح بالكوفة فقبضها وخرج عنه، قال كان سراقة البارقى من ظرفاء أهل الكوفة فأسره رجل من أصحاب المختار فاتى به المختار فقال له أسرك هذا قال سراقة كذب والله ما أسرنى إلا رجل عليه ثياب بيض على فرس أبلق فقال المختار إلا إن الرجل قد عاين الملائكة خلوا سبيله فلما أفلت منه أنشأ يقول:

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى   رأيت البلق دهما مصمتات
أرى عينى ما لم ترأياه   كلانا عالم بالترهات
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً   على قتالكم حتى الممات

وعنه قال، كان الأحوص بن جعفر المخزومى يتغدى فى دير اللج فى يوم شديد البرد ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقى فلما كان على ظهر الكوفة وعليه الوبر والخز وعليهما الأطمار قال حمزة لسراقة: أين يذهب بنا فى البرد ونحن فى أطمار. قال: سأكفيكه

فبينما هو يسير إذ دنا منهم راكب مقبل فحرك سراقة دابته نحوه وواقفه ساعة ولحق بالأحوص فقال له ما خبرك الراكب قال : زعم أن خوارج خرجت بالقطقطانة قال بعيد . قال إن الخوارج تسير فى ليلة ثلاثين فرسخا وأكثر وكان الأحوص أحد الجبناء فثنى رأس دابته وقال ردوا طعامنا نتغدى فى المنزل فلما حاذى منزله قال لأصحابه : ادخلوا ومضى إلى خالد بن عبد الله القسرى فقال خرجت خارجة بالقطقطانة فنادى خالد فى العسكر فجمعهم ووجه خيلا تركض نحو اللج لتعرف الخبر فاعلموه أنه لا أصل للخبر فقال للاحوص من أعلمك بهذا قال سراقة قال وأين هو قال فى منزلى فارسل إليه من أتاه به قال أنت أخبرته عن الخارجة قال ما فعلت أصلح الله الأمير قال له الأحوص أتكذبنى بين يدى الأمير قال خالد ويحك أصدقنى قال نعم أخرجنا فى هذا البرد وقد ظاهر الخز والوبر ونحن فى أطمارنا هذه فأحببت أن أرده فقال له خالد ويحك وهذا مما يتلاعب به وسراقة هذا هو القائل .

قالوا سراقة عنين فقلت لهم الله يعــــلم أنى غير عنين
فإن ظننتم بى الشيء الذى زعموا فقربونى من بنت ابن ياسين

وذكروا أن شبيب بن يزيد الخارجى مر بغلام مستنقع فى الفرات فقال له ياغلام اخرج إنى أسألك فعرفه الغلام فقال له إنى أخاف أفآمن أنا إذا خرجت حتى ألبس ثيابى قال نعم فخرج وقال والله لا ألبسها اليوم فضحك شبيب وقال خدعتنى ورب الكعبة ووكل به رجلا من أصحابه يحفظه ن لا يصيبه أحد بمكروه قال وكان رجل من الخوارج يقول

فمنـــا يزيد والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

فسار البيت حتى سمعه عبد الملك بن مروان فأمر بطلب قائله فأتى به فلما وقف بين يديه قال . أنت القائل :

(ومنا أميرُ المؤمنين شبيب)

قال لم أقل هكذا يا أمير المؤمنين إنما قلت

ومنا أميرَ المؤمنين شبيب

فضحك عبد الملك وأمر بتخلية سبيله فتخلص بدهائه وفطنته لإزالة الإعراب من الرفع

إلى النصب ، وزعموا أن عمرو بن معدى كرب هجم فى بعض غاراته على شابة جميلة منفردة وأخذها فلما أمعن بها بكت فقال ، ما يبكيك . قالت أبكى لفراق بنات عمى هن مثلى فى الجمال وأفضل منى خرجت معهن فانقطعنا عن الحى قال وأين هن قالت خلف ذلك الجبل وودت إذ أخذتنى أنك أخذتهن معى فامض إلى الموضع الذى وصفته فمضى الى هنالك فما شعر بشىء حتى هجم عليه فارس شاك فى السلاح فعرض عليه المصارعة فصرعه الفارس ثم عرض عليه ضروبا من المناوشة فغلبه الفارس فى كلها فسأله عمرو عن اسمه فإذا هو ربيعة ابن مكدم الكنانى فاستنقذ الجارية . وعن عطاء أن مخارق بن عفان ومعن بن زائدة تلقيا رجلا ببلاد الشرك ومعه جارية لم يريا أحسن منها شبابا وجمالا فصاحا به خل عنها ومعه قوس فرمى بها وهابا الإقدام عليه ثم عاد ليرمى فانقطع وتره وسلم الجارية وأسند فى جبل كان قريباً منه فابتدراه وأخذا الجارية وكان فى اذنها قرط فيه درة فانتزعاه من اذنها فقالت وما قدر هذه لو رايتما درتين معه فى قلنسوته وفى القلنسوة وترقد اعده ونسيه من الدهش فلما سمع قول المراة ذكر الوتر فاخذه وعقده فى قوسه فوليا ليست لهما همة الا النجاة وخليا عن الجارية ، وعن الهيثم قال كان الحجاج حسوداً لا تتم له صنيعة حتى يفسدها فوجه عمارة بن تميم اللخمى الى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فظفر به وصنع ما صنع ورجع الى الحجاج بالفتح ولم ير منه ما احب وكره منافرته وكان عاقلا رفيقاً فجعل يرفق به ويقول ايها الأمير اشرف العرب انت من شرفته شرف ومن وضعته اتضع وما ينكر ذلك لك مع رفقك ويمنك ومشورتك ورأيك وما كان هذا كله الا بصنع الله وتدبيرك وليس احد اشكر لبلائك منى ومن ابن اشعث وما خطره حتى عزم الحجاج على المسير الى عبد الملك فاخرج عمارة معه وعمارة يومئذ على اهل فلسطين أمير فلم يزل يلطف بالحجاج فى مسيره ويعظمه حتى قدموا على عبد الملك فلما قامت الخطباء بين يديه وأثنت على الحجاج فقال يا أمير المؤمنين سل الحجاج عن طاعتى ومناصحتى وبلائى قال الحجاج يا أمير المؤمنين صنع وصنع ومن بأسه ونجدته وعفافه كذا وكذا وهو أيمن الناس نقيبة وأعلمهم بتدبير وسياسة ولم يبق فى الثناء عليه غاية فقال عمارة قد رضيت يا أمير المؤمنين قال نعم فرضى الله عنك حتى قالها ثلاثا فى كلها يقول قد رضيت قال عمارة فلا رضى الله عن الحجاج يا امير المؤمنين ولا حفظه ولا عافاه فهو والله السيء التدبير الذى قد افسد عليك اهل العراق وألب الناس عليك وما اتيت الا من قبله ومن قلة عقله وضعف رأيه وقلة بصره بالسياسة فلك والله امثالها إن لم تعزله فقال الحجاج مه يا عمارة فقال لامه ولا كرامة كل امرأة له طالق وكل مملوك له حر إن سار تحت راية الحجاج ابداً قال انى اعلم أنه ما خرج هذا منك إلا عن معتبة ولك

عندى العتبى وارسل إليه ارجع إليه فقال ما كنت أظن أن عقلك على هذا ارجع إليه بعد الذى كان من طعنى عليه وقولى عند أمير المؤمنين ما قلت فيه لا ولا كرامة .

﴿ ضــده ﴾

قيل فى المثل ، هو احمق من عجل ، وهو بن لجيم وذلك أنه قيل له ما سميت فرسك ففقأ عينه وقال سميته الأعور . فقال الشاعر فيه .

رمتنى بنو عجل بداء أبيهم وأى امرىء فى الناس أحمق من عجل
أليس أبوهم عار حين جواده فصارت به الأمثال تضرب فى الجهل

وقيل ، هو أحمق من هبنقه وبلغ من حمقه أنه ضل له بعير فجعل ينادى من وجد بعيرى فهو له فقيل له ولم تنشده قال واين حلاوة الظفر والوجدان ، واختصمت إليه الطفاوة وبنو راسب فى رجل ادعى هؤلاء وهؤلاء فيه فقالوا قد رضينا بحكم أول طالع يطلع علينا فطلع عليهم هبنقة فلما رأوه قالوا انظروا بالله من طلع علينا فلما دنا قصوا عليه القصة فقال هبنقه الحكم فى هذا بين اذهبوا به إلى نهر البصرة فألقوه فيه فان كان راسبيا رسب وإن كان طفاويا طفى فقال الرجل لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين ولا حاجة لى فى الديوان وقيل هو أحمق من دغة وهى مارية بنت مغنج تزوجت فى بنى العنبر وهى صغيرة فلما ضربها المخاض ظنت أنها تريد الخلاء فخرجت تتبرز فصاح الولد فجاءت منصرفة فصاحت يا أماه هل يفتح الجعر فاه قالت نعم ويدعو أباه فسبت بنو العنبر بذلك فقيل بنو الجعراء . وقيل هو أحمق من باقل وكان اشترى عنزا بأحدى عشر درهما فسئل بكم اشتريت العنز ففتح كفيه وفرق أصابعه واخرج لسانه يريد أحد عشر درهما فعيروه وبذلك قال الشاعر :

يلومون فى حمقه باقلا كأن الحماقة لم تخلق
فلا تكثروا العذل فى عيه فللصمت أجمل بالأموق
خروج اللسان وفتح البنان أحب إلينا من المنطق

ومما قيل فيه أيضاً من الشعر :

ياثابت العقل كم عاينت ذا حمق الرزق أغرى به من لازم الجرب
فإننى واجد فى الناس واحدة الرزق أروع شىء عن ذوى الأدب

وخصلة ليس فيها من يخالفنى   الرزق والنوك مقرونان فى سبب

وقال آخر :

أرى زمنا نوكاه أسعد خلقه   على أنه يشقى به كل عاقل
علا فوقه رجلاه والرأس تحته   فكب الأعالى بارتفاع الأسافل

وقال آخر :

كم من قوى قوى فى تقلبه   مهذب اللب عنه الرزق منحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط   كأنه من خليج البحر يغترف

﴿ محاسن المفاخرة ﴾

قال رسول الله ﷺ أنا سيد ولد آدم ولا فخر . وسمع رسول الله ﷺ رجلا ينشد بيتاً من شعر :

إنى امرؤ حميرى حين تنسبنى   لا من ربيعة آبائى ولا مضر

فقال له ذلك الأم لك وأبعد عن الله ورسوله . وقال بعضهم :

إذا مضر الحمراء كانت أرومتى   وقام بنصرى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت   يداى الثريا قاعداً غير قائم

شعيب بن ابراهيم عن على بن زيد عن عبد الله بن الحارث عن عبد المطلب بن ربيعة عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه بنفر من قريش وهم يقولون انما محمد فى أهله مثل نخلة نبتت فى كناسة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوجد منه فخرج حتى قام فيهم خطيبا ثم قال ايها الناس من انا . قالوا انت رسول الله : قال افانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ان الله عز وجل خلق خلقه فجعلنى من خير خلقه ثم جعل الخلق الذى انا منهم فريقين

فجعلنى من خير الفريقين من خلقه ثم جعل الخلق الذى انا منهم شعوباً فجعلنى فى خيرهم شعباً ثم جعلهم بيوتاً فجعلنى من خيرهم بيتا فانا خيركم بيتاً وخيركم والدا وإلى مياه لكم قم ياعباس فقام عن يمينه ثم قال قم يا سعد فقام عن يساره فقال يقرب امرئ منكم عما مثل هذا وخالا مثل هذا ، وحدثنا سنان بن الحسن التسترى عن اسماعيل بن مهران العسكرى عن ابان بن عثمان عن عكرمة عن ابن عباس رحمهما الله تعالى عن على بن ابى طالب كرم الله وجهه قال لما امر رسول الله ﷺ أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه وابو بكر وكان عالما بانساب العرب فوقفنا على مجلس من مجالس العرب عليهم الوقار والسكينة فتقدم ابو بكر فسلم عليهم فردوا عليه السلام فقال ممن القوم فقالوا من ربيعة ، قال من هامتها أم لهازمها . قالوا بل من هامتها العظمى . قال واى هامتها قالوا ذهل ، قال ذهل الأكبر أم ذهل الأصغر قالوا بل الاكبر ، قال فمنكم عوف الذى كان يقال لا حر بوادى عوف قالوا لا ، قال افمنكم بسطام بن قيس صاحب اللواء ومنتهى الأحياء قالوا لا قال افمنكم جساس بن مرة حامى الذمار ومانع الجار . قالوا لا قال افمنكم المزدلف صاحب العمامة قالوا لا ، قال أفأنتم اخوال الملوك من كندة قالوا لا ، قال افانتم اصهار الملوك من لخم قالوا لا ، قال فلستم من ذهل الأكبر إذاً انتم من ذهل الأصغر . فقام إليه اعرابى غلام حين بقل وجهه فاخذ بزمام ناقته ورسول ﷺ واقف على ناقته يسمع مخاطبته فقال :

لنا على سائلنا ان نسأله　　　والعبء لا نعرف أو تحمله

يا هذا إنك قد سألتنا أى مسألة شئت فلم نكتمك شيئاً فاخبرنا من أنت ، فقال أبو بكر من قريش فقال بخ بخ اهل الشرف والرئاسة خبرنى من اى قريش انت . قال من بنى تيم ابن مرة ، قال افمنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر فكان يقال له مجمع قال ابو بكر لا قال افمنكم هاشم الذى يقول فيه الشاعر :

عمرو العلى هشم الثريد لقومه　　　ورجال مكة مسنتون عجاف

قال أبو بكر لا ، قال أفمنكم شيبة الحمد الذى كان وجهه يضىء فى الليلة الداجية مطعم الطير قال لا ، قال أفمن المفيضين بالناس أنت ، قال لا ، قال ، أفمن أهل الرفادة أنت قال لا ، قال أفمن اهل السقاية أنت ، قال لا ، قال أفمن أهل الحجابة أنت . قال لا ، قال أما والله لو شئت لاخبرتك لست من اشراف قريش . فاجتذب ابو بكر زمام ناقته منه كهيئة المغضب ، فقال الأعرابى :

صادف در السيل در يدفعه   فى هضبة ترفعه وتضعـــه

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال على كرم الله وجهه فقلت يا أبا بكر لقد وقعت من هذا الاعرابى على باقعة قال أجل ، يا أبا حسن ما من طامة إلا وفوقها طامة وأن البلاء موكل بالمنطق ، قال وأتى الحسن بن على رضى الله عنهما معاوية بن أبى سفيان وقد سبقه ابن عباس رحمه الله فأمر معاوية بانزاله فبينا معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وزياد المدعى إلى أبى سفيان يتحاورون فى قديمهم وجدهم إذ قال معاوية قد أكثرتم الفخر ولو حضركم الحسن بن على وعبد الله بن عباس لقصروا من أعنتكم ، فقال زياد وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وما يقومان لمروان بن الحكم فى غرب منطقه ولا لنا فى بواذخنا فابعث إليهما حتى نسمع كلامهما فقال معاوية لعمرو ما تقول فى هذا الليل فابعث إليهما فى غد فبعث معاوية بابنه يزيد إليهما فأتيا فدخلا عليه وبدأ معاويه فقال إنى أجلكما وأوقع قدركما عن المسامرة بالليل ولا سيما أنت يا أبا محمد فإنك ابن رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة فشكر له فلما استويا فى مجلسهما علم عمرو أن الحدة ستقع به فقال والله لا بد أن أتكلم فإن قهرت فسبيل ذلك وإن قهرت اكون قد ابتدأت فقال يا حسن إنا قد تفاوضنا فقلنا إن رجال بنى أمية أصبر على اللقاء وأمضى فى الوغاء وأوفى عهداً وأكرم خيما وأمنع لما وراء ظهورهم من بنى عبد المطلب ، ثم تكلم مروان بن الحكم فقال كيف لا يكون ذلك وقد قارعناهم فغلبناهم وحاربناهم فملكناهم فإن شئنا عفونا وإن شئنا بطشنا ، ثم تكلم زياد فقال ما ينبغى لهم أن ينكروا الفضل لأهله ويجحدوا الخير فى مظانه نحن الحملة فى الحروب ولنا الفضل على سائر الناس قديما وحديثا ، فتكلم الحسن بن على رضى الله عنه فقال ليس من الحزم أن يصمت الرجل عند ايراد الحجة ولكن من الإفك أن ينطق الرجل بالخنا ويصور الكذب فى صورة الحق يا عمرو افتخارا بالكذب وجراءة على الافك ما زلت أعرف مثالبك الخبيثة أبديها مرة بعد مرة أتذكر مصابيح الدجى وأعلام الهدى وفرسان الطراد وحتوف الافران وأبناء الطعان وربيع الضيفان ومعدن العلم ومهبط النبوة وزعمتم أنكم احمى لما وراء ظهوركم وقد تبين ذلك يوم بدر حين نكصت الابطال وتساورت الأقران واقتحمت الليوث واعتركت المنية وقامت رحاها على قطبها وفرت عن نابها وطار شرار الحرب فقتلنا رجالكم ومن النبى ﷺ على ذراريكم وكنتم لعمرى فى هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بنى عبد المطلب ثم قال وأما أنت يا مروان فما أنت والإكثار فى قريش وأنت ابن طليق وأبوك طريد تتقلب فى خزاية إلى ضوءة وقد أوتى بك إلى أمير

المؤمنين يوم الجمـــل فلما رأيت الضرغام قد دميت براثنه واشتبكت أنيابه كنت كما قال الأول :

بصبصن ثم رمين بالأبعار

فلما من عليك بالعفو وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك وغصصت بريقك لا تقعد منا مقعد أهل الشكر ولكن تساوينا وتجارينا ونحن من لا يدركنا عار ولا يلحقنا خزاية ثم التفت إلى زياد وقال وما أنت يا زياد وقريش ما أعرف لك فيها أديما صحيحاً ولا فرعاً نابتا ولا قديماً ثابتاً ولا منبتاً كريما كانت أمك بغياً يتداولها رجالات قريش وفجار العرب فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً فادعاك هذا — يعني معاوية — فما لك والافتخار تكفيك سمية ويكفينا رسول الله ﷺ وأبي سيد المؤمنين الذي لم يرتد على عقبية وعماى حمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار في الجنة وأنا وأخي سيدا شباب أهل الجنة ، ثم التفت إلى ابن عباس فقال إنما هي بغاث الطير انقض عليها البازي فأراد ابن عباس أن يتكلم فاقسم عليه معاوية أن يكف فكف ثم خرجا فقال معاوية أجاد عمرو الكلام أولا لولا أن حجته دحضت وقد تكلم مروان لولا أنه نكص ثم التفت إلى زياد فقال ما دعاك إلى محاورته ما كنت إلا كالحجل في كف العقاب . فقال عمرو أفلا رميت من ورائنا ، قال معاوية "إذاً كنت شريككم في الجهل أفأفاخر رجلا رسول الله ﷺ جده وهو سيد من مضى ومن بقى وأمه فاطمة سيدة نساء العالمين ثم قال لهم والله لئن سمع أهل الشام ذلك أنه للسوأة السوآء فقال عمرو لقد أبقى عليك ولكنه طحن مروان وزيادا طحن الرحا بثفالها ووطئهما وطء البازل القراد بمنسمه . فقال زياد والله لقد فعل ولكنك يا معاوية تريد الإغراء بيننا وبينهم لا جرم والله لا شهدت مجلسا يكونان فيه إلا كنت معهما على من فاخرهما فخلا ابن عباس بالحسن رضى الله عنه فقبل بين عينيه وقال أفديك يا ابن عمى والله ما زال بحرك يزخر وأنت تصول حتى شفيتنى من أولاد البغايا ثم أن الحسن رضى الله عنه غاب أياما ثم رجع حتى دخل على معاوية وعنده عبد الله بن الزبير فقال معاوية يا أبا محمداني اظنك تعبا نصبا فأت المنزل فأرح نفسك فقام الحسن رضى الله عنه فخرج فقال معاوية لعبد الله ابن الزبير لو افتخرت على الحسن فأنت ابن حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته ولأبيك في الاسلام نصيب وافر ، فقال ابن الزبير انا له ثم جعل ليلته يطلب الحجج فلما اصبح دخل على معاوية وجاء الحسن رضى الله عنه فحياه معاوية وسأله عن مبيته فقال خير مبيت واكرم مستفاض فلما استوى في مجلسه قال له ابن الزبير لولا انك خوار في الحروب غير مقدام

ما سلمت لمعاوية الأمر وكنت لا تحتاج إلى اختراق السهوب وقطع المراحل والمفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه وكنت حريا ان لا تفعل ذلك وانت ابن على فى باسه ونجدته فما ادرى ما الذى حملك على ذلك أضعف حال أم وهى نحيزة ما اظن لك مخرجا من هذين الحالين اما والله لو استجمع لى ما استجمع لك لعلمت اننى ابن الزبير وانى لا انكص عن الأبطال وكيف لا اكون كذلك وجدتى صفية بنت عبد المطلب وابى الزبير حوارى رسول الله ﷺ واشد الناس باساً واكرمهم حسباً فى الجاهلية واطوعهم لرسول الله ﷺ فالتفت الحسن إليه وقال اما والله لولا ان بنى امية تنسبنى إلى العجز عن المقال لكففت عنك تهاونا بك ولكن سأبين ذلك لتعلم انى لست بالكليل ألإياى تعير وعلى تفتخر ولم تك لجدك فى الجاهلية مكرمة إلا بزوجه عمتى صفية بنت عبد المطلب فبذخ بها على جميع العرب وشرف بمكانها فكيف تفاخر من فى القلادة واسطتها وفى الاشراف سادتها نحن اكرم اهل الأرض زنداً لنا الشرف الثاقب والكرم الغالب ثم تزعم انى سلمت الأمر لمعاوية فكيف يكون ويحك كذلك وانا ابن اشجع العرب ولدتنى فاطمة سيدة النساء وخيرة الأمهات لم افعل ويحك ذلك جبنا ولا فرقا ولكنه بايعنى مثلك وهو يطلب بترة ويداجينى المودة فلم اثق بنصرته لانكم بيت غدر وأهل أحن ووتر فكيف لا تكون كما اقول وقد بايع امير المؤمنين ابوك ثم نكث بيعته ونكص على عقبيه واختدع حشية من حشايا رسول الله ﷺ ليضل بها الناس فلما دلف نحو الأعنة ورأى بريق الأسنة قتل بضيعة لا ناصر له وأتى بك أسيراً وقد وطئتك الكماة باظلافها والخيل بسنابكها واعتلاك الأشتر فغصصت بريقك واقعيت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته الليوث فنحن ويحك نور البلاد وإملاكها وبنا تفتخر الأمة وإلينا تلقى مقاليد الاصول وانت تختدع النساء ثم تفتخر على بنى الأنبياء لم تزل الأقاويل منا مقبولة وعليك وعلى أبيك مردودة دخل الناس فى دين جدى طائعين وكارهين ثم بايعوا امير المؤمنين صلوات الله عليه فسار إلى ابيك وطلحة حين نكثا البيعة وخدعا عرس رسول الله ﷺ فقتلا عند نكثهما بيعته وانى بك أسيراً تبصبص بذنبك فناشدته الرحم إلا يقتلك فعفى عنك فأنت عتاقة أبى وانا سيدك وأبى سيد ابيك فذق وبال امرك فقال ابن الزبير اعذرنا يا ابا محمد فإنما حملنى على محاورتك هذا واشتهى الإغراء بيننا فهلا إذ جهلت امسكت عنى فإنكم اهل بيت سجيتكم الحلم ، قال الحسن يا معاوية انظر اأكع عن محاورة احد ويحك اتدرى من اى شجرة انا والى من انتمى انته قبل ان أسمك بسمة يتحدث بها الركبان فى آفاق البلدان ، قال ابن الزبير وهو لذلك اهل فقال معاوية اما انه قد شفا بلابل صدرى منك ورمى مقتلك فبقيت فى يده كالحجل فى كف البازى يتلاعب بك كيف شاء فلا اراك تفتخر

على أحد بعد هذا ، وذكروا ان الحسن بن على صلوات الله عليهما دخل على معاوية فقال فى كلام جرى من معاوية فى ذلك :

فيما الكلام وقد سبقت مبرزا سبق الجواد من المدى والمقوس

فقال معاوية ، إياى تعنى والله لآتينك بما يعرفه قلبك ولا ينكره جلساؤك انا ابن بطحاء مكة انا ابن أجودها جودا وأكرمها أبوة وجدودا واوفاها عهودا انا ابن من ساد قريشا ناشئاً ، فقال الحسن ، اجل اياك اعنى افعلى تفتخر يا معاوية وانا ابن ماء السماء وعروق الثرى وابن من ساد أهل الدنيا بالحسب الثاقب والشرف الفائق والقديم السابق وابن من رضاه رضى الرحمن وسخطه سخط الرحمن فهل لك أب كأبى أو قديم كقديمى فإن تقل نعم تكذب فقال ، اقول لا تصديقا لقولك ، فقال الحسن رضى الله عنه :

الحـــق ابلج لا تزيغ سبيله والحق يعرفه ذوو الألباب

قال ، وقال معاوية ذات يوم وعنده أشراف الناس من قريش وغيرهم اخبرونى باكرم الناس أبا وأما وعما وعمة وخالا وخالة وجدا وجدة ، فقام مالك بن عجلان واومى إلى الحسن بن على صلوات الله عليه فقال ، هوذا أبوه على بن ابى طالب وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ وجدته خديجة بنت خويلد ، فسكت القوم ونهض الحسن فاقبل عمرو بن العاص على مالك فقال . أحب بنى هاشم حملك على أن تكلمت بالباطل ، فقال ابن عجلان ما قلت إلا حقا وما أحد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق إلا لم يعط أمنيته فى دنياه وختم له بالشقاء فى آخرته بنو هاشم أنضركم عوداً وأوراكم زنداً أكذلك هو يا معاوية ، قال اللهم نعم ، قال واستأذن الحسن بن على رضى الله عنه على معاوية وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص فأذن له فلما أقبل قال عمرو قد جاءكم الفهه العيى الذى كأن بين لحييه عقلة ، فقال عبد الله بن جعفر : مه والله لقد رمت صخر ململة تنحط عنها السيول وتقصر دونها الوعول لا تبلغها السهام فاياك والحسن إياك فإنك لا تزال راتعا فى لحم رجل من قريش ولقد رميت فما برح سهمك وقدحت فما أورى زندك فسمع الحسن الكلام فلما أخذ بمجلسه قال يا معاوية لا يزال عندك عبد يرتع فى لحوم الناس أما والله لئن شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الأمور وتحرج منه الصدور ثم أنشأ يقول :

أتأمر يا معاوى عبد سهم بشتمى والمـــلا منا شهود

إذا أخذت مجالسها قريش فقد علمت قريش ما تريد
أأنت تظل تشتمنى سفاها لضغن ما يزول ولا يبيد
فهل لك من أب كأبى تسامى به من قد تسامى أو تكيد
ولا جد كجدى يا ابن حرب رسول الله إن ذكر الجدود
ولا أم كأمى من قريش إذا ما حصل الحسب التليد
فما مثلى تهكم يا ابن حرب ولا مثلى ينهنهه الوعيد
فمهلا لا تهج منا أموراً يشيب لهولها الطفل الوليد

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية ابعث إلى الحسن بن على فأمره أن يخطب على المنبر فلعله يحصر فيكون فى ذلك ما نعيره به فبعث إليه معاوية فأمره أن يخطب فصعد المنبر وقد اجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على بن أبى طالب ابن عم النبى أنا ابن البشير النذير السراج المنير أنا ابن من بعثه الله رحمة للعالمين أنا ابن من بعث إلى الجن والانس أنا ابن مستجاب الدعوة أنا ابن الشفيع المطاع أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب أنا ابن اول من يقرع باب الجنة أنا ابن من قاتلت معه الملائكة ونصر بالرعب من مسيرة شهر وأمعن فى هذا الباب ولم يزل حتى أظلمت الأرض على معاوية فقال يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك ، قال الحسن إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله ﷺ وعمل بطاعته وليس الخليفة من دان بالجور وعطل السنن واتخذ الدنيا أبا وأماً ولكن ذلك ملك أصاب ملكا يمتع به قليلا ويعذب بعده طويلا وكان قد انقطع عنه واستعجل لذته وبقيت عليه التبعة فكان كما قال الله تعالى (وأن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) ثم انصرف . فقال معاوية لعمرو ، ما أردت إلا هتكى ما كان أهل الشام يرون أحداً مثلى حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا قال وقدم الحسن بن على رضى الله عنه على معاوية فلما دخل عليه وجد عنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة وصناديد قومه ووجوه أهل بيته ووجوه أهل اليمن وأهل الشام فلما نظر إليه معاوية أقعده على سريره وأقبل عليه بوجهه يريه السرور به وبقدومه فحسده مروان وقد كان معاوية قال لهم لا تحاوروا هذين الرجلين فقد قلداكم العار عند أهل الشام — يعنى الحسن بن على رضى الله عنه وعبد الله بن عباس — فقال مروان يا حسن لولا حلم أمير المؤمنين وما قد بناه له آباؤه الكرام من المجد

والعلا ما أقعدك هذا المقعد ولقتلك وأنت لهذا مستحق بقودك الجماهير إلينا فلما قاومتنا وعلمت ألا طاقة لك بفرسان أهل الشام وصناديد بنى أمية أذعنت بالطاعة واحتجزت بالبيعة وبعثت تطلب الأمان أما والله لولا ذلك لأراق دمك ولعلمت إنا نعطى السيوف حقها عند الوغى فاحمد الله إذا ابتلاك بمعاوية وعفى عنك بحلمه ثم صنع بك ما ترى فنظر إليه الحسن وقال ويلك يا مروان لقد تقلدت مقاليد العار فى الحروب عند مشاهدتها والمخاذلة عند مخالطتها هبلتك أمك لنا الحجج البوالغ ولنا عليكم إن شكرتم النعم السوابغ ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار فشتان ما بين المنزلتين تفتخر ببنى أمية وتزعم أنهم صبر فى الحرب أسد عند اللقاء ثكلتك الثواكل أولئك البهاليل السادة والحماة الذادة والكرام القادة بنو عبد المطلب أما والله لقد رأيتهم أنت وجميع من فى المجلس ما هالتهم الأهوال ولا حادوا عن الأبطال كالليوث الضارية الباسلة الحنقة فعندها وليت هاربا وأخذت أسيراً فقلدت قومك العار لأنك فى الحروب خواراً تهريق دمى فهلا أهرقت دم من وثب على عثمان فى الدار فذبحه كما يذبح الجمل وأنت تثغو ثغاء النعجة وتنادى بالويل والثبور كالمرأة الوكعاء ما دفعت عنه بسهم ولا منعت دونه بحرب قد ارتعدت فرائصك وغشى بصرك واستغثت كما يستغيث العبد بربه فانجيتك من القتل ثم جعلت تبحث عن دمى وتحض على قتلى ولو رام ذاك معاوية معك لذبح كما ذبح ابن عفان وأنت معه أقصر يداً وأضيق باعا وأجبن قلبا من أن تجسر على ذلك ثم تزعم أنى ابتليت بحلم معاوية أما والله لهو أعرف بشأنه واشكر لنا إذ وليناه هذا الأمر فمتى بدا له فلا يغضين جفنه على القذى معك فوالله لأعنفن أهل الشام بجيش يضيق فضاؤه ويستأصل فرسانه ثم لا ينفعك عند ذلك الروغان والهرب ولا تنفع بتدريجك الكلام فنحن من لا يجهل آباؤنا الكرام القدماء الأكابر وفروعنا السادة الأخيار الأفاضل أنطق إن كنت صادقا. فقال عمرو ينطق بالخنا وتنطق بالصدق ثم أنشأ يقول.

قد يضرط العير والمكواة تأخذه   لا يضرط العير والمكواة فى النار

ذق وبال أمرك يا مروان فاقبل عليه معاوية فقال قد نهيتك عن هذا الرجل وأنت تأبى إلا انهماكا فيما لا يعنيك أربع على نفسك فليس أبوه كأبيك ولا هو مثلك أنت ابن الطريد الشريد وهو ابن رسول الله ﷺ الكريم ولكن رب باحث عن حتفه بظلفه فقال مروان أرم دون بيضتك وقم بحجة عشيرتك ثم قال لعمرو لقد طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصيتيك ومنها ثنيت أعنتك وقام مغضبا فقال معاوية لا تجار البحار فتغمرك ولا الجبال فتقهرك واسترح من الاعتذار قال ولقى عمرو بن العاص الحسن بن على عليهما السلام فى الطواف فقال يا حسن أزعمت أن

الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك فقد رأيت الله أقامه بمعاوية فجعله ثابتا بعد ميله وبينا بعد خفائه أفيرضى الله قتل عثمان أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين عليك ثياب كغرقى البيض وانت قاتل عثمان والله إنه لا لم للشعث وأسهل للوعث أن يورِدك معاوية حياض أبيك فقال الحسن صلوات الله عليه إن لأهل النار علامات يعرفون بها وهى الالحاد فى دين الله والموالاة لأعداء الله والانحراف عن دين الله والله إنك لتعلم أن عليا لم يتريث فى الأمر ولم يشك فى الله طرفة عين وايم الله لتنتهين يا ابن العاص أو لأقرعن قصتك - يعنى جبينه - بقراع وكلام وإياك والجراءة على فانى من عرفت لست بضعيف المغمز ولا بهش المشاشة - يعنى العظام - ولا بمرىء المأكلة وانى لمن قريش كأوسط القلادة معرق حسبى لا أدعى لغير أبى وقد تحاكمت فيك رجال من قريش فغلب عليك ألأمها حسبا وأعظمها لعنة فاياك عنى فانما أنت نجس ونحن أهل بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيرا . قال واجتمع الحسن بن على صلوات الله عليهما وعمرو بن العاص فقال الحسن قد علمت قريش بأسرها انى منها فى عز أرومتها لم اطبع على ضعف ولم أعكس على خسف أعرف نسبى وادعى لأبى فقال عمرو وقد علمت قريش أنك ابن أقلها عقلا وأكثرها جهلا وان فيك خصالا لو لم يكن فيك إلا واحدة منها لشملك خزيها كما شمل البياض الحالك وايم الله لئن لم تنته عما أراك تصنع لأكبسن لك حافة جلد العائط إذ اعتاطت رحمها فما تحمل أرميك من خللها بأحر من وقع الاثافى أعرك منها أديمك عرك السلمة فانك طالما ركبت المنحدر ونزلت فى أعراض الوعر التماسا للفرقة وإرصادا للفتنة ولن يزيدك الله فيها إلا فظاعة فقال الحسن أما والله لوكنت تسمو بحسبك وتعمل برأيك ما سلكت فج قصد ولا حللت رابية مجد أما والله لو اطاعنا معاوية لجعلك بمنزلة العدو الكاشح فانه طال ما تأخر شأوك واستسر داؤك وطمح بك الرجا إلى الغاية القصوى التى لا يورق بها غصنك ولا يخضر منها رعيك أما والله لتوشكن يا ابن العاص أن تقع بين لحيى ضرغام ولا ينجيك منه الروغان إذا التقت حلقتا البطان ، ابن المنذر عن أبيه عن الشعبى عن ابن عباس أنه دخل المسجد وقد سار الحسين ابن على رضى الله عنه إلى العراق فإذا هو بابن الزبير فى جماعة من قريش قد استعلاهم بالكلام فجاء ابن عباس فضرب بيده على عضد ابن الزبير وقال أصبحت والله كما قال الشاعر .

يالك من قنبرة بمعمر ... خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى ... قد ذهب الصياد عنك فابشرى
لا بد من أخذك يوما فاصبرى

خاف الحجاز من الحسين بن علي وأقبلت تهدر في جوانبها فغضب ابن الزبير وقال والله انك لترى انك أحق بهذا من غيرك فقال ابن عباس انما يرى ذلك من كان في حال شك وأنا من ذلك على يقين قال وبأى شيء استحق عندك انك بهذا الأمر احق مني فقال ابن عباس لأنا أحق بمن يدل بحقه وبأى شيء استحق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا فقال ابن الزبير استحق عندي اني أحق بها منكم لشرفي عليكم قديما وحديثا فقال أنت أشرف أم من شرفت به فقال ان من شرفت به زادني شرفا إلى شرفي قال فمني الزيادة أم منك فتبسم ابن عباس فقال ابن الزبير يا ابن عباس دعني من لسانك هذا الذي تقلبه كيف شئت والله يابني هاشم لا تحبوننا أبداً قال ابن عباس صدقت نحن أهل بيت مع الله لا نحب من ابغضه الله قال يا ابن عباس أما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة قال انما يصفح عمن أقر وأما من هر فلا والفضل لأهل الفضل قال ابن الزبير فأين الفضل قال عند أهل البيت لا تصرفه عن أهله فتظلم ولا تضعه في غير أهله فتندم قال ابن الزبير أفلست من أهله قال بلى إن نبذت الحسد ولزمت الجد وانقضى حديثهما وروى عن ابن عباس أنه قال قدمت على معاوية وقد قعد على سريره وجمع من بني أمية ووفود العرب عنده فدخلت وسلمت وقعدت فقال يا ابن عباس من الناس فقلت نحن قال فإذا غبتم قلت فلا احد قال فانك ترى اني قعدت هذا المقعد بكم قلت نعم فبمن قعدت قال بمن كان مثل حرب بن امية قلت من كفأ عليه اناءه واجاره بردائه قال فغضب وقال أرحني من شخصك شهرا فقد امرت لك بصلتك واضعفتها لك فلما خرج ابن عباس قال لخاصته الا تسالوني ما الذي اغضب معاوية قالوا بلى فقل بفضلك قال ان اباه حربا لم يلق احداً من رؤساء قريش في عقبة ولا مضيق الا تقدمه حتى يجوزه فلقيه يوما رجل من تميم في عقبه فتقدمه التميمي فقال حرب انا حرب بن امية فلم يلتفت إليه وجازه فقال موعدك مكة فخافه التميمي ثم اراد دخول مكة فقال من يجيرني من حرب بن امية فقيل له عبد المطلب فقال عبد المطلب اجل قدراً من ان يجير على حرب فاتى ليلا إلى دار الزبير بن عبد المطلب فدق بابه فقال الزبير لعبده قد جاءنا رجل اما طالب قرى واما مستجير وقد اجبناه إلى ما يريد ثم خرج الزبير إليه فقال التميمي .

لاقيت حربا في الثنية مقبلا — والصبح ابلج ضوؤه للسارى
فدعا بصوت واكتنى ليروعني — وسما على سمو ليث ضارى
فتركته كالكلب ينبح ظله — واتيت قــرم معالم وفخار

ليثاً هزبراً يستجار بعـــزه | رحب المباءة مكرما للجار
ولقد حلفت بمكة وبزمزم | والبيت ذى الأحجار والاستار
إن الزبير لمانعى من خوفه | ماكبر الحجاج فى الأمصار

فقدمه الزبير وأجاره ودخل به المسجد فرآه حرب فقام إليه فلطمه فحمل عليه الزبير بالسيف فولى هاربا يعدو حتى دخل دار عبد المطلب فقال أجرنى من الزبير فاكفأ عليه جفنة كان هاشم يطعم فيها الناس فبقى تحتها ساعة ثم قال له أخرج قال وكيف أخرج وعلى الباب تسعة من بنيك قد احتبوا بسيوفهم فألقى عليه رداء كان كساه إياه سيف بن ذى يزن له طرتان خضراوان فخرج عليهم فعلموا أنه قد أجاره عبد المطلب فتفرقوا عنه قال وحضر مجلس معاوية عبد الله بن جعفر فقال عمرو بن العاص قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمنى والطربات بالتغنى محب للقيان كثير مزاحه شديد طماحه صدود عن الشبان ظاهر الطيش رخى العيش أخاذ بالسلف منفاق بالسرف فقال ابن عباس كذبت والله أنت وليس كما ذكرت ولكنه لله ذكور ولنعمائه شكور وعن الخنا زجور جواد كريم سيد حليم إذا رمى أصاب وإذا سئل أجاب غير حصر ولا هياب ولا عيابة مغتاب حل من قريش فى كريم النصاب كالهزبر الضرغام الجرىء المقدام فى الحسب القمقام ليس بدعى ولا دنى لا كمن اختصم فيه من قريش شرارها فغلب عليه جزارها فأصبح ألأمها حسبا وأدناها منصبا ينوء منها بالذليل ويأوى منها إلى القليل مذبذب بين الحيين كالساقط بين المهدين لا المضطر فيهم عرفوه ولا الظاعن عنهم فقدوه فليت شعرى بأى قدر تتعرض للرجال وبأى حسب تعتد به عند النضال أبنفسك وأنت الوغد اللئيم والنكد الذميم والوضيع الزنيم أم بمن تنمى إليهم وهم أهل السفه والطيش والدناءة فى قريش لا بشرف الجاهلية شهروا ولا بقديم فى الإسلام ذكروا جعلت تتكلم بغير لسانك وتنطق بالزور فى غير أقرانك والله لكان أبين للفضل وأبعد للعدوان أن ينزلك معاوية منزلة البعيد السحيق فإنه طالما سلس داؤك وطمح بك رجاؤك إلى الغاية القصوى التى لم يخضر فيها رعيك ولم يورق فيها غصنك فقال عبد الله ابن جعفر اقسمت عليك لما أمسكت فإنك عنى ناضلت ولى فاوضت فقال ابن عباس دعنى والعبد فإنه قد يهدر خاليا ولا يجد ملاحيا وقد أتيح له ضيغم شرس للاقران مفترس وللارواح مختلس فقال ابن العاص دعنى يا أمير المؤمنين انتصف منه فوالله ما ترك شيئا قال ابن عباس دعه فلا يبقى المبقى إلا على نفسه فوالله إن قلبى لشديد وإن جوابى لعتيد وإنى لكما قال نابغة بنى ذبيان .

وقدماً قد قرعت وقارعونى   فما نزر الكلام ولا شجانى
يصد الشـــاعر العراف عنى   صدود البكر عن قرم هجان

قال وبلغ عائشة بنت عاثم ثلب معاوية وعمرو بن العاص لبنى هاشم فقالت لأهل مكة أيها الناس إن بنى هاشم سادت فجادت وملكت وملكت وفضلت وفضلت واصطفت واصطفيت ليس فيها كدر عيب ولا إفك ريب لا خسروا طاغين ولا خازين ولا نادمين ولا هم من المغضوب عليهم ولا الضالين إن بنى هاشم أطول الناس باعا وأمجد الناس أصلا وأعظم الناس حلما وأكثر الناس علما وعطاء منا عبد مناف المؤثر وفيه يقول الشاعر :

كانت قريش بيضـــة فتفلقت   فالمح خالصها لعبد مناف

وولده هاشم الذى هشم الثريد لقومه وفيه ، يقول الشاعر :

عمرو العــــلا هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

ومنا عبد المطلب الذى سقينا به الغيث وفيه يقول أبو طالب :

ونحن سنى المحل قام شفيعنا   بمكة يدعو والميـــاه تغور

وابنه أبو طالب عظيم قريش وفيه يقول الشاعر:

آتيته ملكا فقـــام بحاجتى   وترى العليج خائباً مذموما

ومنا العباس بن عبد المطلب أردفه رسول الله ﷺ وأعطاه ماله وفيه يقول الشاعر

رديف رسول الله لم نر مثله   ولا مثـــله حتى القيامة يولد

ومنا حمزة سيد الشهداء وفيه يقول الشاعر :

أبا يعلى بك الأركان هدت   وأنت المـاجد البر الوصول

ومنا جعفر ذو الجناحين أحسن الناس حالا وأكملهم كمالا ليس بغدار ولا جبان أبدله الله بكلتى يديه جناحين يطير بهما فى الجنة وفيه يقول الشاعر :

هاتوا كجعفرنا ومثل علينا كانا أعز الناس عند الخالق

ومنا أبو الحسن على بن أبي طالب صلوات الله عليه أفرس بنى هاشم وأكرم من احتبى وانتعل وفيه يقول الشاعر :

على ألف الفرقان صحفـــا ووالى المصطفى طفلا صبيا

ومنا الحسن بن على عليه السلام سبط رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة وفيه يقول الشاعر :

يا أجل الأنام يا ابن الوصى أنت سبط النبى وابن على

ومنا الحسين بن على حمله جبريل عليه السلام على عاتقه وكفاه بذلك فخرا وفيـــه يقول الشاعر :

حب الحسين ذخـــيرة لمحبه يا رب فاحشرنى غداً فى حزبه

يا معشر قريش والله ما معاوية كأمير المؤمنين على ولا هو كما يزعم هو والله شانىء رسول الله ﷺ وأنى آتية معاوية وقائلة له ما يعرق منه جبينه ويكثر منه عويله وأنينه فكتب عامل معاوية إليه بذلك فلما أبلغه أنها قربت منه أمر بدار ضيافة فنظفت وألقى فيها فرش فلما قربت من المدينة استقبلها يزيد فى حشمه ومماليكه فلما دخلت المدينة أتت دار أخيها عمرو بن عاشم فقال لها يزيد أن أبا عبد الرحمن يأمرك أن تنتقلى إلى دار ضيافته وكانت لا تعرفه فقالت من أنت كلاك الله قال أنا اليزيد بن معاوية قالت فلا رعاك الله يا ناقص لست بزائد فتغير لون يزيد وأتى أباه فأخبره فقال هى أسن قريش وأعظمهم حلماً قال يزيدكم تعدلها قالت كانت تعد على عهد رسول الله ﷺ أربعمائة عام وهى من بقية الكرام فلما كان من الغد أتاها معاوية فسلم عليها فقالت على المؤمنين السلام وعلى الكافرين الهوان والملام ثم قالت أفيكم عمرو بن العاص قال عمرو ها أنا ذا قالت أنت تسب قريشاً وبنى هاشم وأنت أهل السب وفيك السب وإليك يعود السب يا عمرو إنى والله عارفة بك وبعيوبك وعيوب أمك وإنى أذكر ذلك ولدت من أمة سوداء مجنونة حمقاء تبول من قيامها وتعلوها اللئام وإذا لامسها الفحل فكان نطفتها أنفذ من نطفته ركبها فى يوم واحد أربعون رجل وأما أنت فقد رأيتك غاوياً غير مرشد ومفسداً غير مصلح والله لقد رأيت

فحل زوجتك على فراشك فما غرت ولا أنكرت وأما أنت يا معاوية فما كنت فى خير ولا ربيت فى نعمة فمالك ولبنى هاشم انساؤك كنسائهم أعطى أمية فى الجاهلية والاسلام ما أعطى هاشم وكنى فخراً برسول الله ﷺ فقال معاوية أيتها الكبيرة أنا كاف عن بنى هاشم قالت فإنى أكتب عليك كتابا فقد كان رسول الله ﷺ دعا ربه أن يستجيب لى خمس دعوات فاجعل تلك الدعوات كلها فيك فخاف معاوية فحلف أن لا يسب بنى هاشم أبداً فهذا ما كان بين معاوية وبين بنى هاشم من المفاخرة ، قال وكان على بن عبد الله بن عباس عند عبد الملك بن مروان فأخذ عبد الملك يذكر أيام بنى أمية فبينا هو على ذلك إذ نادى المنادى بالأذان فقال اشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقال على .

هذى المكارم لاقعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

فقال عبد الملك الحق فى هذا أبين من أن يكابر . على بن محمد النديم قال دخلت على المتوكل وعنده الرضى . فقال يا على من اشعر الناس فى زماننا ، قلت البحترى ، قال وبعده . قلت مروان بن ابى حفصة عبدك فالتفت إلى الرضى فقال : ياابن عم من اشعر الناس ، قال على بن محمد العلوى قال وما تحفظ من شعره قال قوله .

لقد فاخرتنا من قريش عصابة   بمط خدود وامتداد اصابع
فلما تنازعنا القضاء قضى لنا   عليهم بما نهوى نداء الصوامع

فقال المتوكل ما معنى قوله — نداء الصوامع — قال الشهادة . قال وأبيك انه اشعر الناس ومما قيل فى هذا المعنى من الشعر قوله ايضا :

بلغنا السماء بأنسابنــــا   ولولا السماء لجزنا السماء
فحسبك من سؤدد أننــــا   بحسن البــلاء كشفنا البلاء
إذ ذكر النـــاس كنا ملوكا   وكانوا عبيداً وكانوا إماء
يطيب الثنـــاء لآبائنـــا   وذكر على يطيب الثنـــاء
هجانى رجـــال ولم اهجهم   أبى الله لى ان اقـــول الهجاء

وقال آخر :

واني من القـــوم الذين عرفتهم إذا مات منهم سيد قام صاحبه
اضاءت لهم احسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

وقال آخر

خطباء حين يقـــول قائلهم بيض الوجوه مقاول لسن
لا يفطنـــون لعيب جارهم وهم لحفظ جوارهم فطن

﴿ ضده ﴾

عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال قال رسول الله ﷺ لا تفتخروا بآبائكم فى الجاهلية فوالذى نفسى بيده لما يدحرج الجعل برجله خير من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية قال وكان الحسن البصرى يقول يا ابن آدم لم تفتخر وإنما خرجت من سبيل بولين نطفة مشجت بأقذار . وقال بعضهم لرجل افتخر ويحك واولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وانت فيما بينهما وعاء عذرة فما هذا الافتخار ، وروى عن ابن عباس انه قال الناس يتفاضلون فى الدنيا بالشرف والبيوتات والإمارات والغنى والجمال والهيئة والمنطق ويتفاضلون فى الآخرة بالتقوى واليقين واتقاهم احسنهم يقيناً وأزكاهم عملا وارفعهم درجة وقيل فى ذلك :

يزين الفتى فى الناس صحة عقله وإن كان محظورا عليه مكاسبه
وشين الفتى فى الناس صحة عقله وإن كرمت آباؤه ومناسبه

وقيل لعامر بن قيس ما تقول فى الإنسان قال وما اقول فيمن ان جاع صرع وإن شبع بغى وطغى . وقال بعض الحكماء لا يكون الشرف بالنسب ، الا ترى ان اخوين لأب وام يكون احدهما اشرف من الآخر ولو كان ذلك من قبل النسب لما كان لأحد منهم على الآخر فضل لأن نسبهما واحد ولكن ذلك من قبل الأفعال لأن الشرف إنما هو بالفضل لا بالنسب قال الشاعر :

ابوك ابى والجد لا شك واحد ولكننا عودان آس وخروع

وبلغنا عن المدائني أنه قال : ليس السؤدد بالشرف وقد ساد الأحنف بن قيس بحلمه وحصين بن المنذر برأيه ومالك بن مسمع بمحبته فى العامة وسويد بن منجوف بعطفه على أرامل قومه وساد المهلب بن أبى صفرة بجميع هذه الخصال ، وأما الشرف بالدين فالحديث المعروف عن النبى ﷺ أنه أتاه أعرابى فقال بأبى أنت وأمى يا رسول الله من أكرم الناس حسباً ، قال أحسنهم خلقا وأفضلهم تقوى فانصرف الأعرابى فقال ردوه ثم قال يا أعرابى لعلك أردت أكرم الناس نسباً ، قال نعم يا رسول الله قال "يوسف الصديق صديق الله بن يعقوب اسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فأين مثل هؤلاء الآباء فى جميع الدنيا ماكان مثلهم ولا يكون مثلهم أحد أبدا . وقال الشاعر فى ذلك .

ولم أر كالأسباط أبناء واحد   ولا كأبيهم والدا حين ينسب

قال ودخل عيينة بن حصن الفزارى على رسول الله ﷺ فانتسب له فقال انا ابن الأشياخ الأكارم فقال ﷺ انت إذا يوسف "صديق الرحمن عليه السلام ابن" يعقوب اسرائيل الله او اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله . وقال ﷺ خير "البشر" آدم "وخير "العرب" محمد وخير الفرس سلمان الفارسى وخير "الروم" صهيب" وخير الحبشة بلال قال وسمع عمر بن الخطاب وهو خليفة صوتا ولغطا بالباب فقال لبعض من عنده اخرج فانظر من كان من المهاجرين الأولين فأدخله فخرج الرسول فوجد بلالا وصهيبا وسلمان فأدخلهم وكان ابو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو فى عصابة من قريش جلوسا على الباب فقال : يا معشر قريش انتم صناديد العرب واشرافها وفرسانها بالباب ويدخل حبشى وفارسى ، ورومى فقال سهيل : يا أبا سفيان انفسكم فلوموا ولا تذموا امير المؤمنين دعى القوم فأجابوا ودعيتم فأبيتم وهم يوم القيامة اعظم درجات واكثر تفضيلا فقال ابو سفيان لا خير فى مكان يكون فيه بلال شريفا (فأما صناعات الأشراف) فإنه روى ان ابا طالب كان يعالج العطر والبز واما ابو بكر وعمر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فكانوا بزازين ، وكان سعد بن أبى وقاص بعذق النخل وكان أخوه عقبة نجاراً وكان العاص بن هشام اخو أبى جهل بن هشام جزارا ، وكان الوليد بن المغيرة حدادا ، وكان عقبة بن ابى معيط خمارا ، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت خياطا ، وكان ابو سفيان بن حرب يبيع الزيت والادم ، وكان امية بن خلف يبيع البرم ، وكان عبد الله بن جدعان نخاسا وكان العاص ابن وائل يعالج الخيل والإبل، وكان جرير بن عمرو وقيس ابو الضحاك بن قيس ومعمر بن عثمان وسيرين بن محمد بن سيرين كانوا كلهم حدادين، وكان المسيب ابو سعيد زياتا وكان ميمون بن مهران

بزازا ، وكان مالك بن دينار وراقا ، وكان ابو حنيفة صاحب الراى خزازا وكان مجمع الزاهد حائكا ، قيل اتخذ يزيد بن المهلب بستانا فى داره بخراسان فلما ولى قتيبة بن مسلم جعله لإبله فقال مرزبان مرو : هذا كان بستاناً وقد اتخذته لإبلك . فقال قتيبة ابى كان اشتربان وكان ابو يزيد بستانبان فنها صار ذلك كذلك ، قال وذكروا ان المأمون ذكر اصحاب الصناعات فقال : السوقة سفل والصناع انذال والتجار بخلاء والكتاب ملوك على الناس والناس اربعة اصحاب الحرف وهى إمارة وتجارة وصناعة وزراعة فمن لم يكن منهم صار عيالا عليهم .

﴿ محاسن الثقة بالله سبحانه ﴾

قيل — خطب سليمان بن عبد الملك فقال . الحمد لله الذى انقذنى من ناره بخلافته . وقال الوليد بن عبد الملك لأشفعن للحجاج بن يوسف وقرة بن شريك عند ربى . وقال الحجاج يقولون مات الحجاج مه ما ارجو الخير كله إلا بعد الموت والله ما رضى الله البقاء إلا لأهون خلقه عليه اليس إبليس إذ قال (رب انظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) وقال ابو جعفر المنصور الحمد لله الذى اجارنى بخلافته وانقذنى من النار بها . وحدثنى ابراهيم بن عبد الله عن انس بن مالك قال دخلنا على قوم من الأنصار وفيهم فتى عليل فلم نخرج من عنده حتى قضى نحبه فاذا عجوز عند راسه فالتفت إليها بعض القوم فقال استسلمى لأمر الله واحتسبى قالت امات ابنى قال نعم ، قالت احق ما تقولون قلنا نعم فمدت يدها إلى السماء وقالت اللهم انك تعلم انى اسلمت لك وهاجرت الى نبيك محمد صلوات الله رجاء أن تغيثنى عند كل شدة فلا تحملنى هذه المصيبة اليوم فكشف ابنها الذى سجيناه وجهه وما برحنا حتى طعم وشرب وطعمنا معه .

﴿ ضده ﴾

قال عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، يا معشر الحواريين إن ابن آدم مخلوق فى الدنيا فى اربع منازل هو فى ثلاث منها واثق وهو فى الرابعة سيء الظن يخاف خذلان الله إياه فاما المنزلة الأولى فانه خلق فى ظلمات ثرث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة فوفاه الله رزقه فى جوف ظلمة البطن فاذا اخرج من ظلمة البطن وقع فى اللبن لا يخطو إليه بقدم ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض إليه بقوة بل يكره إليه إكراها ويوجر إيجارا حتى ينبت عليه لحمه ودمه فاذا ارتفع عن اللبن فى المنزلة الثالثة من الطعام من ابويه يكسبان عليه

من حلال وحرام فإن ماتا عطف عليه الناس هذا يطعمه وهذا يسقيه وهذا يؤويه وهــذا يكسوه فإذا وقع فى المنزلة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلا خشى ان لا يرزق فيثبت على الناس فيخون أماناتهم ويسرق امتعتهم ويغصبهم اموالهم مخافة خذلان الله تعالى إياه .

(محاسن طلب الرزق)

قال عمرو بن عتبة من لم يقدمه الحزم أخره العجز ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يا ابن آدم أحدث لى سفراً أحدث لك رزقا ، وفى بعض الحديث سافروا تغنموا ، وقال الكميت بن زيد الاسدى :

ولن يريح هموم النفس إن حضرت   حاجات مثلك الا الرحــل والجمل

وقال أبو تمام الطائى .

وطول مقام المرء فى الحى مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجــدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة   إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال بعض الحكما. لا تدع الحيلة فى التماس الرزق بكل مكان فان الكريم محتال والدنى عيال ، وأنشد :

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى   تعيش ذا يسار أو تموت فتعذرا
ولا ترض من عيش بدون ولا تنم   وكيف ينام الليل من كان معسرا

وتقول العامة كلب جوال خير من أسد رابض وتقول من غلى دماغه ، صائفا غلت قدره شاتيا ، وقال عبد الله بن طاهر من سعى رعى ومن لزم المنام رأى الأحلام ، هذا المعنى سرقه من توقيعات أنوشروان فانه يقول هرك روذ جرد هرك خسبد خواب بيند، وأنشد :

كفى حزناً أن النوى قذفت بنا   بعيداً وأن الرزق أعيت مذاهبه
ولو أننا إذ فرق الدهر بيننــا   غنى واحــد منا تمول صاحبه
ولكننا من دهرنــا فى مؤونة   يكالبنا طوراً وطوراً نكالبه

وقال آخر :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقتراً من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عــذراً أو ينال غنيمة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال آخر :

وليس الرزق عن طلب حثيث ولكن ادل دلوك فى الدلاء
تجئك بملئها وحيناً وطــوراً تجىء بحمأة وقليــل ماء

﴿ ضده ﴾

قيل : وجد فى بعض خزائن ملوك العجم لوح من حجارة مكتوب عليه كن لما لاترجو أرجى منك لما ترجو فان موسى عليه السلام خرج ليقتبس نارافنودى بالنبوة وبلغنا عن ابن السماك انه قال لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض وكن اليوم مشغولا بما أنت مسئول عنه غداً وإياك والفضول فان حسابها يطول . قال الشاعر :

إنى علمت وعلم المــرء ينفعه أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى له فيعنينى تطلبــه ولو قعدت أتانى لا يعنينى

وقال آخر :

لعمرك ما كل التعطل ضــائر ولا كل شغل فيه للمرء منفعه
إذا كانت الارزاق فى القرب والنوى عليك سواء فاغتنم لذة الدعة

وقال آخر :

سهل عليك فإن الرزق مقدور وكل مستأنف فى اللوح مسطور
أتى القضــاء بما فيه لمــدته وكل ما لم يكن فيه فمحظور
لا تكذبن فخير القول أصدقه إن الحريص على الدنيا لمغرور

وقال آخر :

لا تعتبن على العبــاد فإنما يأتيك رزقك حين يؤذن فيــه

وقال آخر :

هى المقادير تجرى فى أعنتها فاصبر فليس لها صبر على حال

يوما تريش خسيس القوم ترفعه دون السماء ويوما تخفض العالى

وقال آخر .

اصبر على زمن جم نوائبه فليس من شدة إلا لها فرج

تلقاه بالامس فى عمياء مظلمة ويصبح اليوم قدلاحت له السرج

وقال آخر :

الا رب راج حاجة لاينالها وآخر قد تقضى له وهو آئس

يجول لها هذا وتقضى لغيره فتأتى الذى تقضى وهو جالس

وقال آخر :

فلما ان عنيت بما ألاقى وأعيتنى المسائل بالقروض

دعوت الله لا أرجو سواه ورب العرش ذو فرج عريض

وقال آخر :

ياصاحب الهم إن الهم منفرج ابشر بخير كأن قد فرج الله

اليأس يقطع احيانا بصاحبه لا تيأسن فان الصانع الله

إذا ابتليت فثق بالله وارض به إن الذى يكشف البلوى هو الله

وقال آخر :

واذا تصبك من الحوادث نكبة فاصبر فكل بلية تنكشف

(محاسن المواعظ)

قال الاصمعى حججت فنزلت ضرية فاذا اعرابى قد كور عمامته على رأسه وقد تنكب قوسا فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال ايها الناس انما الدنيا دار ممر والاخرة دار مقر فخذوا

من ممركم لمقركم ولا تهتكوا استاركم عند من يعلم اسراركم. اما بعد فانه ان يستقبل احد يوما من عمره الا بفراق آخر من اجله فاستعجلوا لانفسكم لما تقدمون عليه لا لما تظعنون عنه وراقبوا من ترجعون إليه فإنه لا قوى أقوى من خالق ولا ضعيف اضعف من مخلوق ولا مهرب من الله إلا إليه وكيف يهرب من يتقلب بين يدى طالبه (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور) وقال بعض الاعراب أن الموت ليقتحم على بنى آدم كاقتحام الشيب على الشباب ومن عرف الدنيا لم يفرح بها فهو خائف ولم يحزن فيها على بلوى ولا طالب أغشم من الموت ومن عطف عليه الليل والنهار ارديا ومن وكل به الموت أفناه .. وقال اعرابى كيف يفرح بعمر تنقصه الساعات وبسلامة بدن معرض للافات لقد عجبت من المرء يفر من الموت وهو سبيله ولا أرى أحدا إلا استدركه الموت .. وقيل وجد فى كتاب من كتب بزرجمهر صحيفة مكتوب فيها ان حاجة الله إلى عباده أن يعرفوه فمن عرفه لم يعصه طرفة عين كيف البقاء مع الفناء وكيف يأسى المرء على مافاته والموت يطلبه ، وقال كسرى لم يكن من حق عليه ان يقتل وانى لنادم على ذلك(١) . قال وحضرت الوفاة رجلا من حكماء فارس فقيل له كيف يكون حال من يريد سفراً بعيداً بغير زاد ويقدم على ملك عادل بغير حجة ويسكن قبراً موحشاً بغير انيس .

(ضــده)

قيل ، لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جزع أبوه عليه جزعا شديداً فقال ذات يوم لمن حضره هل من منشد شعرا يعزينى به او واعظ يخفف عنى فأتسلى به ، فقال رجل من اهل الشام . يا امير المؤمنين كل خليل مفارق خليله بأن يموت او بأن يذهب إلى مكان . فتبسم عمر بن عبد العزيز وقال مصيبتى فيك زادتنى إلى مصيبتى مصيبة ، واصيب الحجاج ابن يوسف بمصيبة وعنده رسول لعبد الملك بن مروان فقال . ليت انى وجدت انسانا يخفف عنى مصيبتى ، فقال له الرسول اقول ، قال : قل قال كل انسان مفارق صاحبه بموت او بصلب او بنار تقع عليه من فوق البيت أو يقع عليه البيت أو يسقط فى بئر أو يغشى عليه أو يكون شىء لا يعرفه ، فضحك الحجاج وقال مصيبتى فى أمير المؤمنين أعظم حين وجه مثلك رسولا .

---

(١) هكذا فى الأصول وفى العبارة نقص .

(محاسن فضل الدنيا)

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها مسجد انبياء الله ومهبط وحيه ومصلى ملائكته ومتجر أوليائه يكسبون فيها الرحمة ويربحون فيها الجنة فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وشوقت بسرورها إلى السرور وببلائها إلى البلاء تخويناً وتحذيراً وترغيباً وترهيباً فيا أيها الذام للدنيا والمفتتن بغرورها متى غرتك أبمصارع آبائك من البلى أو بمضاجع أمهاتك تحت الثرى كم عللت بكفيك وكم مرضت بيديك تبتغى لهم الشفاء وتستوصف لهم الاطباء وتلتمس لهم الدواء لم تنفعهم بطلبتك ولم تشفعهم بشفاعتك ولم تستشفهم باستشفائك بطبك مثلت بهم الدنيا مصرعك ومضجعك حيث لا ينفعك بكاؤك ولا يغنى عنك احباؤك ثم التفت إلى قبور هناك فقال يا اهل الثراء والعز الأزواج قد نكحت والأموال قد قسمت والدور قد سكنت هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ثم قال لمن حضر : والله لو أذن لهم لأجابوا بأن خير الزاد التقوى ، وأنشد :

ما أحسن الدنيا وإقبالها إذا أطاع الله من نالها

من لم يواس الناس من فضلها عرض للادبار إقبالها

قال ابو حازم الدنيا طالبة ومطلوبة طالب الدنيا يطلبه الموت حتى يخرجه منها وطالب الاخرة تطلبه الدنيا حتى توفيه رزقه ، وقال الحسن البصري بينا انا اطوف بالبيت اذا انا بعجوز متعبدة فقلت من أنت ، فقالت من بنات ملوك غسان قلت فمن أين طعامك ، قالت اذا كان آخر النهار جاءتنى امراة متزينة فتضع بين يدى كوزا من ماء ورغيفين ، قلت لها أتعرفينها ، قالت اللهم لا ، قلت هى الدنيا خدمت ربك جل ذكره فبعث اليك الدنيا فخدمتك .

﴿ ضــده ﴾

زعموا أن زياد بن أبيه مر بالحيرة فنظر إلى دير هناك فقال لخادمه لمن هذا قيل له هذا دير حرقة بنت النعمان بن المنذر فقال ميلوا بنا إليه لنسمع كلامها فجاءت إلى وراء الباب فكلمها الخادم قال لها . كلمى الأمير ، فقالت أ أوجز أم أطيل . قال بل أوجزى قالت . كنا أهل بيت طلعت الشمس علينا وما على الأرض أحد أعزمنا وما غابت تلك الشمس حتى

رحمنا عدونا قال . فأمر لها بأوساق من شعير فقالت ، أطعمتك يد شبعاء جاعت ولا أطعمتك يد جوعاء شبعت . فسر زياد بكلامها فقال لشاعر معه قيد هـذا الكلام ليدرس . فقال :

سل الخير أهل الخير قدما ولا تسل فتى ذاق طعم الخير منذ قريب

ويقال : إن فروة بن إياس بن قبيصة انتهى إلى دير حرقة بنت النعمان فألقاها وهى تبكى فقال لها مايبكيك ، قالت مامن دار امتلأت سروراً إلا امتلأت بعد ذلك ثبوراً ثم قالت :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها نقلب تارات بنا وتصرف

قال : وقالت حرقة بنت النعمان لسعد بن أبى وقاص لاجعل الله لك إلى لئيم حاجة ولا زالت لكريم إليك حاجة وعقد لك المنن فى أعناق الكرام ولا أزال بك عن كريم نعمة ولا أزالها بغيرك إلا جعلك سبباً لردها عليه ، قال وقال عبد الملك بن مروان لسلم بن يزيد الفهمى أى الزمان أدركت أفضل وأى ملوكه أكمل ، قال أما الملوك فلم أر إلا ذاما وحامداً وأما الزمان فرفع أقواماً ووضع آخرين وكلهم يذم زمانه لأنه يبلى جديدهم ويهرم صغيرهم وكل مافيه منقطع إلا الأمل ، قال فاخبرنى عن فهم . قال هم كما قال الشاعر :

درج الليل والنهار على فهم بن عمرو فأصبحوا كالرميم
وخلت دارهم فأضحت قفاراً بعد عز وثروة ونعيم
وكذاك الزمان يذهب بالنا س وتبقى ديارهم كالرسوم

قال فمن يقول منكم :

رأيت الناس مذ خلقوا وكانوا يحبون الغنى من الرجال
وإن كان الغنى أقل خيراً بخيلا بالقليل من النوال
فلا أدرى علام وفيم هذا وماذا يرتجون من المحال
ألدنيا فليس هناك دنيا ولا يرجى لحادثة الليالى

قال : أنا : قد كتمتها ، قال ، ولما دخل على صلوات الله عليه المدائن فنظر إلى إيوان كسرى أنشد بعض من حضره . قول الأسود بن يعفر

ماذا أأمل بعـــد آل محرق   تركوا منازلهم وبعـد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق   والقصر ذى الشرفات من سنداد
نزلوا بأنقـــرة يسيل عليهم   ماء الفرات يجئ من أطواد
أرض تخيرها لطيب نسيمها   كعب بن مامة وابن أم دواد
جرت الرياح على محل ديارهم   فكأنمـا كانوا على ميعاد
فإذا النعـيم وكل ما يلهى به   يوماً يصـير إلى بلى ونفاد

وقال على صلوات الله عليه . أبلغ من ذلك قول الله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) . وقال عبد الله بن المعتز أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام ،، وقال غيره طلاق الدنيا مهر الجنة ، وذكروا أن إعرابياً ذكر الدنيا فقال هى جمة المصائب رنقة المشارب . وقال آخر الدنيا لا تمتعك بصاحب . قال أبو الدرداء من هوان الدنيا على الله تعالى أنه لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها . وقال إذا أقبلت الدنيا على إمرىء أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه . وقال الشاعر :

أيا دنيا حسرت لنـا قنـاعا   وكان جمال وجهك فى النقاب
ديار طالما حجبت وعزت   فاصبح أذنها سهل الحجاب
وقد كانت لنـا الأيام ذلت   فقـد قرنت بأيام صعاب
كان العيش فيهـا كان ظلا   يقلبـه الزمان إلى ذهاب

قال الأصمعى . وجد فى دار سليمان بن داود عليه السلام على قبة مكتوبا

ومن يحمد الدنيا لشىء يسره   فسوف لعمرى عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة   وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وكان ابراهيم بن أدهم ينشد :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا　　فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وقال أبو العتاهية:

يامن ترفع بالدنيـــا وزينتها　　ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف القوم كلهم　　فانظر إلى ملك فى زى مسكين
ذاك الذى عظمت فى الناس همته　　وذاك يصلح للدنيا وللدين

وقال آخر:

هب الدنيا تساق إليك عفواً　　أليس مصير ذاك إلى زوال

وقال محمود الوراق :

هى الدنيا فلا يغررك منها　　مخائل تستفز ذوى العقول
أقل قليلهـا يكفيك منهـا　　ولكن لست تقنع بالقليل
تشيد وتبتنى فى كل يوم　　وأنت على التجهز للرحيل
ومن هذا على الأيام تبقى　　مضار به بمدرجة السيول

وقال آخر :

دنيا تداولهـا العبـاد ذميمة　　شيبت بأكره من نقيع الحنظل
وثبات دنيـــا ما تزال ملمة　　منها فجائع مثل وقع الجندل

وقال آخر :

حتى متى انت فى دنياك مشتغل　　وعامل الله بالرحمن مشغول

وقال أبو نواس الحسن بن هانىء :

دع الحرص على الدنيـا　　وفى العيش فلا تطمع
ولا تجمع لك المـــال　　فما تدرى لمن تجمع

ولا تدرى أفى أرضـــــك أم فى غيرها تصرع

قال الأصمعى : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول بينا أنا أدور فى بعض البرارى إذا أنا بصوت :

وإن امرأ دنياه أكثر همه لمستمسك منها بحبل غرور

فقلت آنسى أم جنى فلم يجبنى أحد فنقشته على خاتمى ، قال وسمع يحيى بن خالد بيت العدوى فى صفة الدنيا :

حتوفها رصد وعيشها نكد وشربها رنق وملكها دول

فقال لقد نظم فى هذا البيت صفة الدنيا ، قال وسمع المأمون بيت أبى نواس

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

فقال: لو سئلت الدنيا عن نفسها ما وصفت نفسها كصفة أبى نواس ، وقيل للحسن البصرى ماتقول فى الدنيا ، قال ما أقول فى دار حلالها حساب وحرامها عقاب فقيل . ماسمعنا كلاما أوجز من هذا قال بلى كلام عمر بن عبد العزيز كتب إليه عدى بن أرطاة وهو على حمص أن مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت إلى صلاح حيطانها فكتب إليه حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم والسلام .

﴿ محاسن الزهد ﴾

محمد بن الحسن عن أبى همام وكان قد عرف ضيغما قال . كنت معه فى طريق مكة فلما بعدنا فى الرمل نظر إلى ماتلقى الإبل من شدة الحر فبكى ضيغم فقلت . لو دعوت الله أن يمطر علينا كان أخف على هذه الإبل قال . فنظر إلى السماء وقال . إن شاء الله فعل قال فوالله ماكان إلا أن تكلم حتى نشأت سحابة فهطلت ، وعن عطاء بن يسار أن أبا مسلم الخولانى خرج إلى السوق بدرهم يشترى لأهله دقيقاً فعرض له سائل فأعطاه بعضه ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقى فأتى النجارين فملأ مزوده من نشارة الخشب وأتى منزله فألقاه وخرج هارباً من أهله فاتخذت المرأة المزود فإذا دقيق حوارى لم تر مثله فعجنته وخبزته فلما جاء قال من أين لك هذا قالت الدقيق الذى جئت به ، وعن أبى عبد الله القرشى عن صديق له قال :

دخلت بئر زمزم فإذا بشخص ينزع الدلو مما يلي الركن فلما شرب أرسل الدلو فأخذته فشربت فضلته فاذا هو سويق لوز لم أر أطيب منه فلما كانت القابلة فى ذلك الوقت جاء الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه ونزع الدلو فشرب ثم أرسله فأخذته فشربت فضلته فاذا هو ماء مضروب بالعسل لم أر شيئا قط أطيب منه فأردت أن آخذ طرف ثوبه فانظر من هو ففاتنى فلما كان فى الليلة الثالثة قعدت قبالة زمزم فى ذلك الوقت فجاء الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه فنزع الدلو فشرب وأرسله وأخذته وشربت فضلته فإذا هو أطيب من الأول فقلت ياهذا أسألك برب هذه البنية من أنت . قال تكتم على حتى أموت . قلت . نعم . قال لى . أنا سفيان الثورى وكانت تلك الشربة تكفينى إذا شربتها إلى مثلها لا أجد جوعا ولا عطشاً ، وقال الاصمعى . رأيت أعرابياً يكدح جبهته بالأرض يريد أن يجعل سجادة فقلت ماتصنع قال إنى وجدت الأثر فى وجه الرجل الصالح .

وقال الشاعر :

كيف يبكى لمحبس فى طلول ... من سيقضى ليوم حبس طويل
إن فى البعث والحساب لشغلا ... عن وقوف برسم ربع محيل

وقال آخر :

إن الشقى الذى فى النار منزله ... والفوز فوز الذى ينجو من النار
يا رب أسرفت فى ذنبى ومعصيتى ... وقد علمت يقيناً سوء آثارى
فاغفر ذنوباً إلهى قد أحطت بها ... رب العباد وزحزحنى عن النار

وقال ذو الرمة :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محال فى القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وقال أبو نواس :

أيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله فى كل تحريكة وتسكينة فاعلمن شاهد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحـــد

وقال أيضاً :

سبحان من خلق الخلا ق من ضعيف مهين
يسوقهم من قـــرار إلى قـــرار مكين
يحـــوز خلقاً فخلقاً فى الحجب دون العيون
حتى بدت حـــركات مخـــلوقة من ســـكون

وقال آخر :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى كانك ما تظن الموت حقا
الا يا ابن الذين مضوا وبادوا أما والله ما ذهبوا لتبقى
ومالك غير تقوى الله زاد إذا جعلت إلى اللهوات ترقى

وقال آخر :

يا قلب مهلا وكن على حذر فقد لعمرى أمرت بالحذر
مالك بالترهات مشتغلا أفى يديك الأمان من سفر

وقال آخر :

إن كنت تؤمن بالقيا مة واجترأت على الخطية
فلقد هلكت وإن جحد ت فذاك أعظم للبليه

وقال آخر :

وأفنية المـــلوك محجبات وباب الله مبذول الفناء
فما أرجو سواه لكشف ضرى ولا أفزع إلى غير الدعاء
ولا أدعو إلى اللأواء كهفاً سوى من لا يصم عن الدعاء

﴿ ضده ﴾

قيل ، كان جندى بقزوين يصلى فى بعض المساجد فافتقده المؤذن أياما فصار إليه وقرع بابه عليه فخرج إليه . فقال له المؤذن . أبو من ، قال . أبو الجحيم ، قال . بئس ياهذا رد الباب قال وقيل للقينى ما أيسر ذنبك ، قال . ليلة الدير قيل له . وما ليلة الدير . قال . نزلت بدير نصرانية فأكلت عندها طفشيلا بلحم خنزير وشربت خمرها وفجرت بها وسرقت كساءها وخرجت . قيل أتى خمسة من الفتيان إلى قرية فنزلوا على باب خان فقام أحدهم يصلى والباقون جلوس فمرت بهم نبطية فقالوا دلينا على قحبة قالت نعم كم أنتم. قالوا نحن أربعة فأومى الذى يصلى بيده سبحان الله أنا الخامس . قال الشاعر :

وإننى فى الصلاة احضرها ضحكة أهل الصلاة إن شهدوا
اقعد فى سجدة إذا ركعوا وأرفع الرأس إن هم سجدوا
أسجد والقوم راكعون معاً وأسرع الوثب إن هم قعدوا
فلست أدرى إذاهم فرغوا كم كان تلك الصلاة والعدد

وقال آخر :

وأصلى فأغلط الدهر فيما بين سبع واربع وثمان
ومواقيت حينها لست أدرى ما أذان موقت من أذان

وقال آخر :

نعم الفتى لوكان يعرف ربه ويقيم وقت صلاته حمـــاد
عدلت مشافره الدنان فأنفه مثل القدوم يسنه الحداد
فابيض من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد

وقال آخر :

إن قرا العاديات فى رجب لم يعد منها إلا إلى رجب
بل نحن لا نستطيع فى سنة نختم تبت يدا أبى لهب

﴿ محاسن النساء النادبات ﴾

قيل ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحسن قول الخنساء فى صخر أخيها

لابد من ميتة فى صرفها غير   والدهر من شأنه حول وإضرار
وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

وقيل للخنساء صفى لنا صخرا فقالت . كان مطر السنة الغبراء وذعاف الكتيبة الحمراء قيل فمعاوية قالت حياء الجدبة إذا انزل وقرى الضيف إذا حل قيل فأيهما كان عليك احنى قالت أما صخر فسقام الجسد وأما معاوية فجمرة الكبد . وأنشدت :

أسدان محمرا المخالب نجدة   غيثان فى الزمن الغضوب الأعسر
قمران فى النادى رفيعا محتد   فى المجد فرعا سودد متخير

وروى أنها دخلت على عائشة أم المؤمنين وعليها صدار من شعر فقالت لها عائشة أتتخذين الصدار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا أم المؤمنين إن زوجى كان رجلا متلافا منفقا . فقال لى . لو أتيت معاوية فاستعنتيه فخرجت وقد لقينى صخر فاخبرته فشاطرنى ماله ثلاث مرات فقالت له امرأته ، لو أعطيتها من شرارها — تعنى الإبل — فقال :

تالله لا أمنحها شرارها   وهى حصان قد كفتني عارها
وإن هلكت مزقت خمارها   واتخذت من شعر صدارها

فلما هلك صخرا اتخذت هذا الصدار ونذرت أن لا أنزعه حتى أموت ، قال ثور بن معن السلمى حدثنى أبى قال ، دخلت على الخنساء فى الجاهلية وعليها صدار من شعر وهى تجهز ابنتها فكلمتها فى طرح الصدار فقالت ياحمقاء والله لأنا أحسن منك عرسا وأطيب منك درسا وأرق منك نعلا وأكرم منك بعلا ، قال عبد الرحمن بن مرة عن بعض أشياخه أن عمر بن الخطاب قال للخنساء ، ماأقرح مآقى عينيك ، قالت ، بكائى على السادات

من مضر ، قال ، يا خنساء إنهم فى النار قالت ، ذلك أطول لعويلى . ومما اخترنا من أشعارها قولها :

تعرقنى الدهر قرعاً وغمزاً   وأوجعنى الدهر نهشاً ووخزا
وأفنى رجالى فبادوا معاً   فأصبح قلبى لهم مستفزا
كأن لم يكونوا حمى يتقى   إذا الناس إذ ذاك من عز بزا
وكانوا سراة بنى مالك   وزين العشيرة مجداً وعزا
وهم فى القديم صحاح الأديم والكائنون من الناس حرزا
بسمر الرماح وبيض الصفاح   فبالبيض ضرباو بالسمروخزا
حززنا نواصى فرسانكم   وكانوا يظنون ان لا تحزا
ومن ظن ممن يلاقى الحروب   بان لايصاب فقد ظن عجزا
نعف ونعرف حق القرى   ونتخذ الحمد ذخراً وكنزا
ونلبس فى الحرب نسج الحديد   وفى السلم نلبس خزا وقزا

وروى خبر الخنساء من جهة أخرى ، ذكروا أنها أقبلت حاجة فمرت بالمدينة ومعها أناس من قومها فأتوا عمر بن الخطاب فقالوا ، هذه خنساء فلو وعظتها فقد طال بكاؤها فى الجاهلية والاسلام فقام عمر واتاها وقال . يا خنساء ، قال فرفعت رأسها فقالت ماتشاء وما الذى تريد فقال ، ما الذى أقرح مآقى عينيك ، قالت ، البكاء على سادات مضر ، قال ، انهم هلكوا فى الجاهلية وهم اعضاد اللهب وحشو جهنم ، قالت ، فداك أبى وأمى فذلك الذى زادنى وجعا ، قال ، فانشدينى ما قلت ، قالت ، اما انى لا انشدك ما قلت قبل اليوم ولكنى انشدك ما قلته الساعة ، فقالت :

سقى جدثا أعراق غمرة دونه   وبيشة ديمات الربيع ووابله
وكنت أعير الدمع قبلك من بكى   فأنت على من مات قبلك شاغله
وارعيهم سمعى إذا ذكروا الاسى   وفى الصدر منى زفرة لا تزائله

فقال عمر ، دعوها فانها لا تزال حزينة أبدا ، ليلى الاخيلية هجاها رجل من قومها ، فقال :

ألا حييا ليلى وقولا لهـا هلا　　فقد ركبت إيراً أغر محجلا

فأجابته :

تعيرني داء بأمك مثـلـه　　وأى جواد لا يقال له هلا

وذكروا أنها دخلت على عبد الملك بن مروان فقال لهـا ، ياليلى هل بقى فى قلبك من حب توبة فتى الفتيان شىء ، قالت ، وكيف أنساه وهو الذى يقول يا أمير المؤمنين :

ولو أن ليـلى فى ذرى متمنع　　بنجران لالتفت على قصورها
حمامـة بطن الواديين ترنمى　　سقاك من الغر الغوادى مطيرها
أبينى لنا لا زال ريشك ناعما　　ويضحك فى خضراء غصن نضيرها
تقول رجال لا يضيرك نأيها　　بلى كل ماشف النفوس يضيرها
أيذهب ريعـان الشباب ولم أزر　　كراعب فى همدان بيناً نحورها

قال : عمرك الله أن تذكربه ، ولتوبة فى ليلى الأخيلية :

ولو أن ليلى الأخيليـة سلمت　　على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقى　　إليها صدى من جانب القبر صائح
ولو أن ليلى فى السماء لأصعدت　　بطرفى إلى ليلى العيون اللوامح

فلما مات توبة مرزوج ليلى بليلى على قبره فقال لها سلمى على توبة فإنه زعم فى شعره أنه يسلم عليك تسليم البشاشة ، فقالت ما تريد الى من بليت عظامه ، فقال ، والله لتفعلن ، فقالت وهى على البعير ، سلام عليك ياتوبة فتى الفتيان ، وكانت قطاة مستظلة فى ثقب من ثقب القبر فلما سمعت الصوت طارت وصاحت فنفر البعير ، رمى بليلى فماتت فدفنت إلى جانب قبر توبة . قال وسأل الحجاج ليلى هل كان بينك وبين توبة ريبة قط . قالت

لا والذى أسأله صلاحك إلا أنه مرة قال لى قولا ظننت أنه خنع لبعض الأمر . فقلت له :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى فارغ وخليل

فما كلمنى بعد ذلك بشىء حتى فرق بينى وبينه الموت قال الحجاج فما كان بعد ذلك قالت لم يلبث أن قال لصاحب له إذا اتيت الحاضر من بنى عباد فقل بأعلى صوتك .

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدهر لايسرى إلى خيالها

فلما سمعت الصوت خرجت فقلت :

وعنه عفا ربى واحسن حاله تعز علينا حاجة لا ينالها

قال ودخلت ليلى على الحجاج فأنشدته قولها فيه :

إذا نزل الحجاج أرضاً سقيمة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القناة ثناها
أحجاج لا تعطى العصاة مناهم ولا الله يعطى للعصاة مناها

فوصلها الحجاج بألف دينار وقال لو قلت بدل غلام همام لكان أحسن . هند بنت عتبة أم معاوية بن ابى سفيان قيل لما قتل شيبة وعتبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة رثتهم هند فقالت :

إنى رأيت فساداً بعد إصلاح فى عبد شمس فقلبى غير مرتاح
هاجت لهم أدمع تترى ومنبعها من رأس محروبة مالها لاحى
لما تنادت بنو فهر على حنق والموت بينهم ساع لأرواح
كأنما النسج فى قتلى مصرعة سرج أضاءت على جدر وألواح
يا آل هاشم إنا لا نصالحكم حتى نرى الخيل تردى كل كفاح

إن يمكن الله يوماً من هزيمتكم   يورث نساءكم داء بتقراح

فأجابتها عمرة بنت عبد الله بن رواحة الأنصارى :

ياهند مهلا لقد لاقيت مهلة   يوم الأعنة والأرواح فى الراح
أسد غطارفة غر جحاجحة   أبناء محصنة بيض لجحجاح
هنالك الفوز والرضوان إن صبروا   مع الرسول فما آبوا بتقياح
الله أهلكهم والأوس شاهدة   والخزرج الغر فيهم كل مجتاح
لا تبعدن فإنى غير صارخة   وكيف تصرخ ذات البعل ياصاح

﴿ النساء الماجنات ﴾

قال سليمان بن عبد الملك انشدونى أحسن ما سمعتم من شعر النساء فقال بعضهم يا أمير المؤمنين سار رجل من الظرفاء فى بعض طرقاته إذ اخذته السماء فوقف تحت مظلة ليستكن من المطر وجارية مشرفة عليه فلما رأته حذفته بحجر فرفع رأسه وقال :

لو بتفاحة رميت رجونا   ومن الرمى بالحصاة جفاء

فأجابته :

ما جهلنا الذى ذكرت من الشكل ولا بالذى تراه خفاء

ودابة معها فقالت :

قد بدأتيه ماذكرت وجدى   ليت شعرى فهل لهذا وفاء

وسائلة فى الباب فقالت :

قد لعمرى دعوتها فأجابت   هى داء وأنت منه شفاء

قال سليمان قاتلها الله هى والله أشعرهم

(عنان جارية الناطفى) قال السلولى دخلت يوما على عنان وعندها رجل إعرابى فقالت

ياعم لقد أتى الله بك . قلت وما ذاك قالت هذا الأعرابى دخل على فقال بلغنى أنك تقولى الشعر فقولى بيتاً فقلت لها قولى فقالت قد ارتج على فقل انت فقلت

لقد جد الفراق وعيل صبرى   عشية عيرهم للبين زمت

فقال الأعرابى :

نظرت إلى أواخرها ضحيا   وقد بانت وأرض الشام أمت

فقال عنان :

كنمت هواكم فى الصدر منى   على أن الدموع على نمت

فقال الأعرابى أنت والله أشعرنا ولولا انك بحرمة رجل لقبلتك ولكنى أقبل البساط وقال بعضهم دخلت على عنان فإذا عليها قميص يكاد يقطر صبغه وقد تناولها سيدها بضرب شديد وهى تبكى فقلت

إن عنانا أرسلت دمعها   كالدر إذ ينسل من سمطه

فقالت وأشارت إلى مولاها

فليت من يضربها ظالما   تجف يمناه على سوطه

فقال مولاها هى حرة لوجه الله ان ضربتها ظالما أو غير ظالم قال واجتمع أبو نواس والفضل الرقاشى والحسين الخليع وعمرو الوراق ومحكم بن رزين والحسين الخياط فى منزل عنان فتناشدوا إلى وقت العصر فلما أرادوا الانصراف قالوا أين نحن الليلة ، فكل قال عندى ، فقالت عنان بالله قولوا شعراً وارضوا بحكمى . فقال الرقاشى :

عذراء ذات احمرار   إنى بها لا أحاشى
قوموا ندامای رووا   مشاشكم من مشاشى
وناطحونى كئوسا   نطاح صلب الكباش
وإن نكلت فحل   لكم دمى ورياشى

فقال أبو نواس :

لا بل إلى ثقاتى   قوموا بنا بحياتى
قوموا نلذ جميعاً   بقول هاك وهات

فإن أردتم فتاة أتيتكم بفتـــاتى
وإن أردتم غلاما صادفتمونى مؤاتى
فبنـــادروه مجوناً فى وقت كل صلاة

وقال الحسين الخليع :

أنا الخليع فقـوموا إلى شراب الخليـــع
إلى شراب لذيذ وأكل جـدى رضيع
وملك أحوى رخيم بالخندريس صريع
قوموا تنالوا وشيـكا مثال ملك رفيـع

وقال الوراق :

قوموا إلى بيت عمرو إلى سماع وخمـر
وسافيات علينا نطـاع فى كل أمر
وبيسرى رخـيم يزهو بجيـد ونحر
فذاك بر وإن شئـتم أتينـا بسحـر
هـذا وليس عليـكم أولى ولا وقت عصر

وقال محكم بن رزين :

قـوموا إلى دار لهـو وظـل بيت دفين
فيـه من الورد والمـر زنجـوش والياسمين
وريح مسك ذكى وجيـد الزرجـون
قوموا فصيروا جميعاً إلى الفـتى ابن رزين

فقال الحسين الخياط :

قضت عنـان علينـا بأن نزور حسينـا
وأن تقروا لديه بالقصف والله عينـا
فما رأينـا كظرف الحسين فيما رأينـا
قـد قرب الله منه زينا وباعـد شينـا

قـوموا وقولوا أجزنا ما قـد قضيت علينـا

وقال عنان :

مهلا فـديتك مهلا عنان أحـرى وأولى
بأن تنالوا لديهـا أسـنى النعيم وأحـلى
فإن عنـدى حـراما من الشراب وحـلا
لا تطمعوا فى سوائى من البرية كلا
ياسادتى خيرونى أجاز حكمى أم لا

فقالوا جميعاً . قد أجزنا حكمك وأقاموا عندها ، قال وكتبت عنان إلى الفضل بن الربيع

كن لى هديت إلى الخليفة سلمـا بوركت ياابن وزيره من سـلم
حث الإمام على شراى وقل له ريحانة ذخرت لأنفك فاشمم

وكانت عنان تتوقى أبا نواس وتخاف مجونه وسفهه ، وفيها يقول :

عنان يا من تشبه العينا أنـتم على الحب تلومونا
حسنك حسن لا يرى مثله قـد ترك الناس مجانينا

فتهيأت لأبى نواس وتصنعت له إلى أن صار إليها فرأى عندها بعض وجوه أهل بغداد فأحب أن يخجلها فقال لها :

ما تأمرين لصب يكفيه منك قطيرة
فقالت : إياى تعنى بهذا عليك فاجلد عميرة
فقال : إنى أخاف وربى على يدى من عبيرة
فقالت : عليك أمك . . . فانهـا كندبيره

فأخجلته وشاع الخبر حتى بلغ الرشيد فاستظرفها وطلبها من الناطفى فحملت إليه فقال لها: ياعنان ، قالت : لبيك يا سيدى ، فقال ما تأمرين لصب

قالت قد مضى الجواب فى هذا يا أمير المؤمنين ، قال بحياتى كيف قلت ، قالت قلت :

أيلى تعنى بهذا عليك فاجلد عميرة

فضحك الرشيد وطلبها من مولاها فاستام فيها مالا جزيلا فردها

﴿ عريب جارية المأمون ﴾

وأنتم أناس فيكم الغدر شيمة ... لكم أوجه شتى وألسنة عشر
عجبت لقلبي كيف يصبو إليكم ... على عظم ما يلقى وليس له صبر

(فضل الشاعرة) حدثنا القاسم بن عبد الله الحرانى قال كنت عند سعيد بن حميد الكاتب ذات يوم وقد افتصد فأتته هدايا فضل الشاعرة الف جدى والف دجاجة والف طبق رياحين وطيب وعنبر وغير ذلك فلما وصل ذلك كتب إليها أن هذا يوم لايتم سروره إلا بك وبحضورك وكان من أحسن الناس ضربا بالعود وأملحهم صوتا وأجودهم شعرا فاتته فضرب بينه وبينها حجاب وأحضر قوما ندماءه ووضعت المائدة وجىء بالشراب فلما شربنا اقداحا أخذت عودها فغنت بهذا الشعر والصوت لها والشعر والأبيات هذه :

يا من أطلت تفرسى ... فى وجهه وتنفسى
أفديك من متدلل ... يزهو بقتل الأنفس
هبنى أسأت وما أسأ ... ت بلى أقول أنا المسى
أحلفتنى أن لا أسا ... رق نظرة فى مجلسى
فنظرت نظرة عاشق ... أتبعتها بتنفسى
ونسيت أنى قد حلفت ... فما يقال لمن نسى

وضربت أيضاً وغنت :

عاد الحبيب إلى الرضا ... فصفحت عما قد مضى
من بعد ما لصدوده ... شمت الحسود فمرضا
تعس البغيض فلم يزل ... لصدودنا متعرضا
هبنى أسأت وما أسا ... ت فان أسات لك الرضا

قال فما أتى على يوم أسر من ذلك اليوم

﴿ صاحبة الفرزدق ﴾ ذكروا أن الفرزدق كان مع أصحاب له فإذا هو بجارية مع مولاها فقال لأصحابه هل أخجل لكم هذه ، قالوا : نعم ، فقال :

إن لى . . . خبيثا لونه يحكى الكميتا
لو يرى فى السقف صدعا لتحول عنكبوتا
أو يرى فى الأرض شقا لنزا حتى يموتا

فقالت الجارية :

زوجوا هذا بألف وأرى ذلك قوتا
قبل أن ينقلب الدا ء فلا يأتى ويؤتى

فخجل الفرزدق وانصرف(١)

﴿ صاحبة جعفر بن يحيي بن خالد البرمكى ﴾ قالت

عزمت على قلبى بأن أكتم الهوى فضج ونادى إننى غير عاقل
فان حان موتى لم أدعك بغصتى وأقررت قبل الموت أنك قاتلى

﴿ جارية البارقى ﴾ ذكروا أنها أنشدت فى مجلس عمرو بن مسعدة :

يا أحسن العالم حتى متى يرتفع الحب وانحط
وكيف منجاى وبحر الهوى منحف بى ليس له شط

فأجيبت يدركك الوصل فتنجوا به أو يقع البحر فتنحط

﴿ المغنية المليحة ﴾ قال على بن الجهم : كنت فى مجلس محمد بن عمر بن مسعدة فأقبلت جارية كأنها البدر ليلة التمام بلون كأنه الدر فى البياض مع احمرار خدين كشقائق النعمان فسلمت فقال لى محمد يا أبا الحسن هذه الجنة التى كنتم توعدون ، فقالت:

وما الوعد ياسؤلى وغاية منيتى فإن فؤادى من مقالك طائر

فقال لها محمد :

أما وإله العرش ما قلت سيئا وما كان إلا أننى لك شاكر

---

(١) فى هامش الأصل . . قيل إن هذه الرواية جرت بين أبى نواس وعنان جارية الناطفى والأبيات تروى على غير هذا .

فقال ابن الجهم :

أمسك فديتك عن عتاب محمد فهو المصون لوده المتحاذر

فأقبلت تحدثنا فإذا عقل كامل وجمال فاضل وحسن قاتل وردف مائل فقلت . لقد أقر الله عينا تراك ، فقالت : أقر الله أعينكم وزادكم سروراً وغبطة ثم اندفعت تغنى بنغمة لم أسمع أحسن منها :

أروح بهم من هواك مبرح أناجى به قلبا كثير التفكر
عليك سلام لا زيادة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فما زلنا يومنا ذلك معها فى الفردوس الأعلى وما ذكرتها بعد ذلك إلا اشتقت لها وأسفت عليها ، محمد بن حماد قال . كنا يوما عند اسحق بن نجيح وعنده جارية يقال لها شادن موصوفة بجودة ضرب العود وشجو صوت وحسن خلق وظرف مجلس وحلاوة وجه وأخذت العود وغنت :

ظبى تكامل فى نهاية حسنه فزها ببهجه وتاه بصده
فالشمس تطلع من فرند جبينه والبدر يغرق فى شقائق خده
ملك الجمال باسره فكانما حسن البرية كلها من عنده
يارب هب لى وصلة وبقاءه أبداً فلست بعائش من بعده

فطارت عقولنا وذهلت البابنا من حسن غنائها وظرفها فقلت . يا سيدتى من هذا الذى تكامل فى الحسن والبهاء سواك ، فقالت:

فإن بحت نالتنى عيون كثيرة وأضعف عن كتمانه حين أكتم

﴿ الأعرابيات ﴾

حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان قال : لما خرج المتوكل إلى دمشق كنت عديله فلما صرنا بقنسرين قطعت بنو سليم على التجارة فأنهى ذلك إليه فوجه قائداً من وجوه قواده إليهم فحصرها فلما قربنا من القوم إذا نحن بجارية ذات جمال وهيئة وهى تقول :

أمير المؤمنين سما إلينا سمو البدر مال به الغريف
فإن نسلم فعفو الله نرجو وإن نقتل فقاتلنا شريف

فقال لها المتوكل . أحسنت ، ما جزاؤها يا فتح ، قلت العفو والصلة فأمر لها بعشرة آلاف درهم وقال لها . مرى إلى قومك وقولى لهم لا تردوا المال على التجار فانى أعوضهم عنه ، الاصمعى قال خرجت إلى بادية فإذ أنا بخباء فيه امرأة قد دنت فسلمت فإذا هى أحسن الناس وجها وأعدلهم قامة وأفصحهم لسانا فحار فيها بصرى واعترتنى خجلة فقالت ، ما وقوفك ، فقلت :

هل عندكم من محيض اليوم نشربه أم هل سبيل إلى تقبيل عينيك
فلست أبغى سوى عينيك منزلة أم هل تجودى لنا عضا بخديك
أو تأذنين بريق منك أرشفه أو لمس بطنك او تغمير ثدييك
ردى الجواب على من زاده كلفا تكريره الطرف فى أجدال ساقيك

فرفعت راسها إلى وقالت ، ياشيخ الا تستحى ارجع إلى اهلك وارغب فى مثلك . وقال بعضهم رأيت أعرابية بالنباج فقلت لها . اتنشدين ، قالت نعم فى مثلك ورب الكعبة ، قلت فأنشدينى . فانشأت تقول :

لا بارك الله فيمن كان يخبرنى أن المحب إذا ماشاء ينصرف
وجد المحب إذا ما بان صاحبه وجد الصبى بثدى أمه الكلف

قال قلت لها . انشدينى من قولك فقالت :

بنفسى من هواه على التنائى وطول الدهر مؤتنق جديد
ومن هو فى الصلاة حديث نفسى وعدل الروح عندى بل يزيد

فقلت لها ان هذا كلام من قد عشق . فقالت وهل يعرى من ذلك من له سمع وقلب ثم أنشدتنى

الا بابى والله من ليس نافعى بشىء ولا قلبى على الوجد شاكره
ومن كبدى تهفو إذ اذكر اسمه بشىء ومن قلبى على النأى ذاكره
له خفقتان يرفع الجيب بالشجى ويقطع ازرار الجربان ثائره

قال وكتب عمر بن أبى ربيعة إلى امرأة بالمدينة :

برز البدر فى جوار تهادى   مخطفات الخصور معتجرات
فتنفست ثم قلت لبكر   عجلات فى الحياة لى حيات
هل سبيل إلى التى لا أبالى   بعدها أن أموت قبل وفاتى

فأجابته :

قد أتانا الرسول بالأبيات   فى كتاب قد خط بالترهات
حائر الطرف إن نظرت وما طر   فك عندى بصادق النظرات
غر غيرى فقد عرفت لغيرى   عهدك الخائن القليل الثبات

﴿ المتكلمات ﴾

حدث عمر بن يزيد الأسدى قال ، مررت بخرقاء صاحبة ذى الرمة فقلت لها هل حججت قط ، قالت : أما علمت أنى منسك من مناسك الحج ما منعك أن تسلم على أما سمعت قول عمك ذى الرمة :

تمام الحج أن تقف المطايا   على خرقاء واضعة اللثام

فقلت لها ، لقد أثر فيك الدهر ، قالت ، أما سمعت قول العجيف العجيلى حيث يقول :

وخرقاء لا تزداد إلا ملاحة   ولو عمرت تعمير نوح وجلت

قال ورأيتها وإن فيها المباشرة وإن ديباجة وجهها لطرية كأنها فتاة وأنها لتزيد يومئذ على المائة ولقد حدثت أنه شبب بها ذو الرمة وهى ابنة ثمانين سنة ، وحدث رجل من بنى أسد قال أدركت مياً صاحبة ذى الرمة وكان الرجل أعور قال ورأيتها فى نسوة من قومها فقلت أهذه مى وأومأت إليها فقلن نعم فقلت ما أدرى ماكان يعجب ذا الرمة منك وما أراك على ماكان يصف فتنفست الصعداء وقالت إنه كان ينظر إلى بعينين وانت تنظر إلى بعين واحدة وروى الاصمعى عن رجل من أهل الشام قال . قدمت المدينة فقصدت منزل ابن هرمة فإذا بنية له تلعب فقلت لها ما فعل أبوك ، قالت وفد إلى بعض

الإخوان ؛ قلت فانحرى لنا ناقة فإنا أضيافك ؛ قالت ياعماه والذى خلقك ما عندنا شىء ، قلت فما طل ما قال أبوك ؛ قالت فما قال ؛ قلت قال :

كم ناقة قد وجأت منحرها   لمستهل الشؤبوب أو جمل

قالت يا عماه فذلك القول من أبى أصارنا إلى أن ليس عندنا شىء ؛ قال وأتى زياد الأقطع باب الفرزدق وكان له صديقاً فخرجت إليه ابنة الفرزدق وكانت تسمى مكية وأمها حبشية فقال لها ما اسمك قالت مكية قال ابنة من قالت ابنة الفرزدق قال فأمك قالت حبشية فأمسك عنها فقالت ما بال يدك مقطوعة قال قطعها الحرورية قالت بل قطعت فى اللصوصية قال عليك وعلى أبيك لعنة الله. وجاء الفرزدق فاخبر بالخبر فقال أشهد انها ابنتى؛ وانشأ يقول :

حام إذا ما كنت ذا حمية   بدارمى بنته صبيـــه
صمحمح مثـــل أبى مكية

وحدث سليمان بن عباس السعدى قال . كان كثير يلقى حاج اهل المدينة بقديد على ست مراحل ففعل عاما من الاعوام غير يومهم الذى نزلوا فيه فوقف حتى ارتفع النهار فركب جملا فى يوم صائف ووافى قديداً وقد كل بعيره وتعب فوجدهم قد ارتحلوا وقد بقى فتى من قريش فقال الفتى لكثير اجلس قال فجلس كثير إلى جنبى ولم يسلم على فجاءت امرأة وسيمة جميلة فجلست إلى خيمة من خيام قديد واستقبلت كثيراً فقالت انت كثير ؛ قال نعم ؛ قالت انت ابن ابى جمعة قال نعم ؛ قالت أنت الذى تقول .

كنت إذا ما جئت اجللن مجاسى   وأضمرن منى هيبـــة لاتجهما

قال نعم قالت فعلى هذا الوجه هيبة إن كنت كاذبا فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين قال فضجر كثير وقال ومن انت فسكتت ولم تجبه بشىء فسأل الموالى التى فى الخيام عنها فلم يخبرنه فضجر واختلط عقله فلما سكن قالت انت الذى تقول :

متى تنشرا عنى العمامة تبصرا   جميل المحيا اغفلته الدواهن

اهذا الوجه جليل إن كان كاذبا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ؛ فاختلط وقال لو عرفتك لفعلت وفعلت فلما سكن قالت له انت الذى تقول .

يروق العيون الناظرات كأنه هرقلى وزن احمر التبر راجح

أهذا الوجه الذى يروق الناظرات إن كنت كاذبا فعليك لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، قال فازداد ضجرا واختلط وقال لو عرفتك والله لقطعتك وقومك هجاء ثم قام فاتبعته طرفى حتى توارى عنى ثم نظرت إلى المراة فإذا هى قد غابت عنى فقلت لمولاة من بنات قديد لك الله على ان اخبرتينى من هذه المراة ان اطوى لك ثوبى هذين إذا قضيت حجى ثم اعطيكهما فقالت والله لو اعطيتنى زنتهما ذهبا ما اخبرتك من هى هذا كثير مولاى لم اخبره قال القرشى فرحت وبى أشد مما بكثير، قيل وقدم كثير الكوفة وكان شيعياً من اصحاب محمد بن الحنفية فقال دلونى على منزل قطام قيل له . وما تريد منها قال اريد ان اوبخها فى قتل على بن ابى طالب صلوات الله عليه فقيل له عد عن رايك فإن عقلها ليس كعقول النساء قال لا والله لا انتهى حتى انظر إليها واكلمها فخرج يسأل عن منزلها حتى دفع إليها فاستأذن فأذنت له فرأى امراة برزة قد تخددت وقدحنا الدهر من قناتها فقالت من الرجل قال كثير بن عبد الرحمن قالت التيمى الخزاعى قال التميمى الخزاعى. ثم قال لها انت قطام قالت نعم قال انت صاحبة على بن ابى طالب صلوات الله عليه قالت بل صاحبة عبد الرحمن بن ملجم قال اليس هو قتل علياً قالت بل مات باجله قال والله إنى كنت احب أن أراك فلما رأيتك نبت عينى عنك وما ومقك قلبى ولا احلوليت فى صدرى قالت انت والله قصير القامة صغير الهامة ضعيف الدعامة كما قيل لان تسمع بالمعيدى خير من ان تراه فأنشأ كثير يقول :

رأت رجلا أودى السفار بجسمه فلم يبق إلا منطق وجناجن

قالت . لله درك ما عرفت إلا بعزة تقصيراً بك قال . والله لقد سار لها شعرى وطار بها ذكرى وقرب من الخلفاء بجلسى وانها لكما قلت فيها :

وإن خفيت كانت لعينيك قرة وإن تبديو مالم يعمك عارها
من الخفرات البيض لم تر شقوة وفى الحسب المحض الرفيع نجارها
فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من فيها إذا جئت طارقا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

قالت : والله ما سمعت شعراً اضعف من شعرك هذا والله لو فعل هذا بزنجية طاب ريحها إلا قلت : كما قال امرؤ القيس .

الم تراني كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

قال فالله در بلادك وخرج وهو يقول :

ألحق ابلج لا نزيغ سبيله والحق يعرفه ذوو الألباب

قال : وقال المسيب راوية كثير انطلق كثير مرة فقال لى هل لك فى عكرمة ابن عبد الرحمن بن هشام وهو يومئذ على حنظلة بن عمرو بن تميم فقلت نعم قال فخرجنا نريده حتى إذا صدرنا عن المدينة إذا نحن بامراة على راحلة تسير فسرت حذاءها فقالت اتروى لكثير شيئاً قلت نعم قالت انشدنى فأنشدتها من شعره فقالت اين هو قلت هو ذاك الذى ترين على غير الطريق فقالت بعد ان دنت منه قاتل الله زوج عزة حيث يقول .

لعمرك ما رب الرباب كثير بفحل ولا آباؤه بفحول

فغضب كثير وسار وتركها ثم نزل منزلا فجاءت جارية لها تدعوه فأبى كثير ان يأتيها فقلت ما رأيت مثلك قط امراة مثل هذه ترسل إليك فتأبى عليها فلم أزل به حتى اتاها قال فسفرت عن وجهها فإذا هى اجمل الناس واكملهم ظرفا وعقلا وإذا هى غاضرة أم ولد بشر بن مروان فصحبناها حتى كنا بزبالة قالت بنا الطريق فقالت له هل لك أن تأتى الكوفة فاضمن لك على بشر الصلة والجائزة فأبى وامرت له بخمسة آلاف درهم ولى بألفين فإذا اخذنا الخمسة آلاف قال ما اصنع بعكرمة وقد اصبت ما ترى فذلك قوله حيث يقول :

شجا أظعان غاضرة الغوادى بغير مشورة عوضاً فؤادى

أغاضر لو رأيت غداة بنتم حنو العائدات على وسادى

رثيت لعاشق لم تشكميه جــوانحه تلذغ بالزناد

الشكيمة — العطية و — الزناد — جمع زند وهو عود يقدح منه النار قال الحكم ابن صخر الثقفى حججت فرأيت بأقرة امراتين لم اركجمالهما وظرفهما وثيابهما فلما حججت وصرنا باقرة إذا انا بإحدى الجاريتين قد جاءت فسألت سؤال منكر فقلت . فلانة ، قالت فداك أبى وامى رايتك عاما اول شابا سوقة والعام شيخا ملكا وفى وقت دون ذلك ما تنكر المراة صاحبها فقلت ما فعلت اختك فتنفست الصعداء وقالت قدم علينا ابن عم لنا فتزوجها فخرج بها إلى نجد فذاك حيث أقول :

إذا ما قفلنانحو نجد وأهـــله　　　　فحسبي من الدنيا القفول إلى نجد

فقلت أما أنى لو أدركتها لتزوجتها قالت فداك أبى وأمى فما يمنعك من شريكتها فى حسنها وشقيقتها فى حسبها قلت قول كثير :

إذا وصلتنا خـــلة كى تزيلنا　　　　أبينا وقلنا الحاجبية أول

قالت : وكثير بينى وبينك أليس هو الذى يقول .

هل وصل عزة إلا وصل غانية　　　　فى وصل غانية من وصلها خلف

قال فتركت جوابها ولم يمنعنى منه إلا العى .

﴿ محاسن النساء ﴾

قيل ، أحسن النساء الرقيقة البشرة النقية اللون يضرب لونها بالغداة إلى الحمرة وبالعشى إلى الصفرة ، وقالت العرب المرأة الحسناء أرق ما تكون محاسن صبيحة عرسها وأيام نفاسها وفى البطن الثانى من حملها ، وقيل لأعرابى أتحسن صفة النساء ، قال نعم إذا عذب ثناياها وسهل خداها وتنهد ثدياها وفعم ساعداها والتف فخذاها وعرض وركاها وجدل ساقاها فتلك هم النفس ومناها ووصف اعرابى امرأة . فقال : كان وجهها السقم لمن رآها والبرء لمن ناجاها . . وذكر أعرابى امرأة فقال أرسل الحسن إلى خدمها صفائح نور ورشق السحر فى لحظها بأسهم حداد ولقد تأملت فوجدت للبدر نوراً من بعض نورها ، وذكر أعرابى امرأة فقال هى شمس تباهى شمس سمائها وليس لى شفيع إليها غيرها فى اقتضائها ولكنى كتوم لفيض النفس عند امتلائها . وذكر أعرابى امرأة فقال ما أحسن من حبها نعاساً ولا أنظر إليها إلا اختلاسها وكل امرىء منها يرى ما أحب وذكر أعرابى امرأة فقال لها جلد من لؤلؤ رطب مع رائحة المسك الأزفر فى كل عضو منها شمس طالعة ومما جاء فى الحسن من الشعر . . قال عبد الله بن المعتز انشدنى أبو سهل إسماعيل بن على لأبى الصواعق :

ومريض طرف ليس يصرف طرفه　　　　نحـــو المـــدى إلا رماه بحتفه
ظبى له نظـــر ضعيف كلما　　　　قصد القوى أتى عليه بضعفه

فد قلت لما مر يخطر مائساً | والردف يجذب خصره من خلفه
يا من يسلم خصره من ردفه | سلم فؤاد محبه من طرفه

فقلت في هذا المعنى وعلى هذا الوزن :

وحياة من جرح الفؤاد بطرفه | لأحبرن قصائدى فى وصفه
قمر به قمر السماء متيم | كالغصن يعجب نصفه من نصفه
إنى عجبت لخصره من ضعفه | ماذا تحمل من ثقالة ردفه
هذا وما أدرى بأية فتنة | جرح الفؤاد بلطفه أم ظرفه
أم بالدلال أم الجمال أم الضيا | من وجهه أم بالقفا من خلفه

وأنشد أبو الحسين بن فهم لأبى نواس :

كفاك ما مر على راسى | من شادن قطع أنفاسى
أكثر ما أبلغ فى وصفه | تحيرى من قلبه القاسى
أغار أن أنعت منه الذى | ينعته الناس من الناس
ولم أر العشاق قبلى رأوا | بوصف من يهوون من باس
كل أحاديثى نعت له | منكشف منى لجلاسى

فقلت فى هذا المعنى وهذا الروى والوزن :

لو عشر ما مر على راسى | مر بصلد حجر قاسى
لانصدعت منه صدوع كما | صدع قلبى طول وسواسى
يا غصن آس ومحال إذا | قصرت تشبيهك بالآس
ماذا على طرفك لو أنه | أعار لحظا منه قرطاسى
ليتك عللت بمطل ولم | تقطع رجائى منهك باليأس

وقال آخر :

وزائرة يحثها الشوق طارقة | أتتنا من الفردوس لاشك آبقه

إذا ما تثنت قال للريح قداهـــا
كذا حركى الأغصان إن كنت صادقه

وقال آخر :

قد أقبل البــدر فى قراطقه   يسلب بالدل قلب عاشــقه
يسطو عليـــه بسيف مقلته   لا بالذى شــد فى مناطقه

وقال آخر

قل للمــلاح الحـــدق   وللحسان الخـــلق
هل فى فؤادى القـــوى   أو جســـدى شىء بقى
إن لم ترووا عطشى   بخـــلا فبـــلو رمق
يامقـــلة أجفانهـــا   محشـــوة بالأرق
بقيت فى رق الهـــوى   شـــقية فى من شـــق

وقال آخر :

يا ملاح الدلال والاغتناج   ما أرى القلب من هواك ناجى
أنت زرفت فوق خديك صدغا   من عبير على صفائح عاج
أشرقت وجنتاك بالنور حتى   أغنتا الخلق عن ضياء السراج
فعلت مقلتاك بالقلب منى   فعـــله القرمطى بالحجاج
يا هلالا أنست منه بضوء   جنح ليل من الظلام الداجى

وقال آخر :

نشرت غدائر فرعها لتظلنى   حذر العيون من العيون الرمق
فكأنها وكأنه وكأننى   صبحان باتا تحت ليل مطبق

وقال آخر :

يا غزالا وهـــلالا   وقضيبا وكثيبا
كم وكم أضمر وجـــدا   بك مكتوما عجيبا
كيف يرجى برء من قد   كـــتم الداء الطبيبا

وقال آخر :

شمس ممثلة فى خلق جارية   كأنما بطنها طى الطوامير
فالجسم من جوهر والشعر من سبج   والثغر من لؤلؤ والوجه من عاج

وقال آخر :

نتيج دلال حار فى حسنه الطرف   ففكرته قبر ومنطقه لطف
بديع جمال زانه العقل والظرف   سماوى لون لايحيط به وصف
له ريقة علت بماء قرنفل   يمازجها التفاح والخمرة الصرف
تجسم فى جسم من النور ساطع   تمكن فى دعص ينوء به ردف
على صحن خديه بهار منور   وورد جنى لا يليق به القطف
تكامل فيه الحسن والنور والبها   كبدر الدجى إذتم من شهره النصف
يراه إلهى لى عذاباً وفتنة   فما عنده عدل ولا عنده عطف

وقال آخر :

لك من قلبى المكان المصون   كل لوم على فيك يهون
قدر الله أن أكون شقياً   بك والصبر عنك ما لا يكون
يا غزالا بلحظه يفتن النا   س وفى طرفه الردى والمنون
لك صبر وليس لى عنك صبر   فانا اليوم هائم محزون
قد خلعت العذار فيك حبيبى   ما أبالى بما رمتنى الظنون

وقال آخر :

يا نظرة جاءت على ياس   من ساحر المقلة ميـاس
أطرافه تعقد من لينها   وقلبه كالحجـر القاسى
يلومنى الناس على حبه   أعاننى الله على الناس

وقال آخر :

ياويح جسم يذوب من قلقه   من حب من لم أقف على خلقه

من حـــب ظبي مهفهف لبق   يهتز مثل القضيب فى ورقه
لم تر عينى ولن ترى أبـــداً   أحسن من نحره ومن عنقه
كانما المسك حـــين تسحقه   بمـاء ورد يفرح من عرقه
أو خمرة فى الزجاج صافية   شيبت بماء السحاب فى نسقه

وقال آخر :

أربعة قرحت فـــؤادى   فطال وجدى وعيل صبرى
مقلة خشف وقد غصن   وطيب ورد وحسن بدر
نفسى ومالى فـــداء ظبي   أذاب جسمى وليس يدرى
فمن لصب أسير شوق   قتيل صد بسيف هجر

وقال آخر :

وماريح ريحان بمسك وعنبر   يعل بكافور ودهنة بان
بأطيب من ريا حبيبى لو اننى   وجدت حبيبى خالياً بمكان

﴿ محاسن التزويج ﴾

روى أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يارسول الله انى اريد أن أتزوج فادع الله أن يرزقنى زوجة صالحة . فقال . لودعا لك جبريل وميكائيل وأنا معهما ما تزوجت إلا المرأة التى كتب الله لك فانه ينادى فى السماء الا ان امرأة فلان بن فلان فلانة بنت فلانة. وقال ﷺ عليكم بالابكار فانهن أطيب أفواها وانتق أرحاما قال عمر رضى الله عنه عليكم بالأبكار واستعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر .

قال الشاعر :

لا تنكحن عجوزاً إن دعيت لها   وإن حبيت على تزويجها الذهبا
فإن أتوك وقالوا انها نصف   فإن أطيب نصفيها الذى ذهبا

وقال آخر:

عليك إذا ما كنت لا بد ناكحاً ذوات الثنايا الغر والاعين النجل

وكل هضيم الكشح خفاقة الحشا قطوف الخطا بلهاء وافرة العقل

وقال الحارث بن كلدة لا تنكحوا من النساء إلا الشابة ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتى ولا من الفاكهة إلا النضيج ، وقال مغيرة بن شعبة حصنت تسعا وتسعين امرأة ما أمسكت واحدة منهن على حب ولكنى أحفظها لمنصبها وولدها فكنت استرضيهن بالباه شابا فلما ان شبت وضعفت عن الحركة استرضيتهن بالعطية ، وقال بعضهم لذة المرأة على قدر شهوتها وغيرتها على قدر لذتها وروى عن رسول الله ﷺ ، أنه قال إنما النساء لعب فاذا تزوج أحدكم فليستحسن ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال . تزوجها سمراء زلفاء عيناء فان فركتها فعلى صداقها وقال الحجاج بن يوسف من تزوج قصيرة فلم يجدها على ما يريد فعلى صداقها ، وروى عن على صلوات الله عليه أن رجلا اتاه فقال انى تزوجت امرأة مجنونة فقالت المرأة يا أمير المؤمنين إنه يأخذنى عند الجماع غشية ، فقال للرجل قم ما أنت لها بأهل . وفى إحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . إياكم وخضراء الدمن وهى المرأة الحسناء فى المنبت السوء وقال بعضهم لا تتزوجن حنانة ولا أنانة ولا منانة ولا عشبة الدار ولا كية القفا — فاما الحنانة — فالتى قد تزوجها رجل من قبل فهى تحن إليه — والآنانة — التى تأن من غير علة — والمنانة — التى لها مال تمتن به — وعشبة الدار — الحسناء فى أصل السوء — وكية القفا — التى إذا قام زوجها من المجلس قال الناس فعلت امرأة هذا كذا وفعلت كذا ، وقال محمد بن على رضى الله عنهما اللهم ارزقنى امرأة تسرنى إذا نظرت وتطيعنى إذا أمرت وتحفظنى إذا غبت ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، إذا خطب احدكم امرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها وإن كانت لا تعلم ، وقال بعض الشعراء فى تزويج الشبه :

إذا أردت حرة تبغيها كريمة فانظر إلى اخيها

ينبيك عنها وإلى ابيهـا فإن أشباه أبيها فيهـا

وقال آخر:

إذا كنت مرتاداً لنفسك أيما لنجلك فانظر من أبوها وخالها

فإنهما منها كما هى منهمـا كما النعل إن قيست بنعل مثالها

وقال آخر :

إذا كنت عن عين الصبية باحثاً　　فابصر ترى عين الصبى فذالكا

قال خالد بن صفوان لدلال . أطلب لى امرأة بكراً أو ثيبا كبكر حصانا عند جارها ماجنة عند زوجها قد أدبها الغنى وذللها الفقر لا ضرعة صغيرة ولا عجوزا كبيرة قد عاشت فى نعمة وأدركتها حاجة لها عقل وافر وخلق طاهر وجمال ظاهر صلتة الجبين سهلة العرنين سوداء المقلتين خدلجة الساقين لفاء الفخذين نبيلة المقعد كريمة المحتد رخيمة المنطق لم يداخلها صلف ولم يشن وجهها كلف ريحها أرج ووجها بهج لينة الأطراف ثقيلة الأرداف لونها كالورق وثديها كالحق أعلاها عسيب وأسفلها كثيب لها بطن مخطف وخصر مرهف وجيد أتلع ولب مشبع تثنى تثنى الخيزران وتميل ميل السكران حسنة المآق فى حسن البراق لا الطول ازرى بها ولا القصر ، قال الدلال : استفتح أبواب الجنان فانك سوف تراها ، وقال أيضاً . لا تتزوج واحدة فتحيض إذا حاضت وتنفس إذا نفست وتعود إذا عادت وتمرض إذا مرضت ولا تتزوج اثنتين فتقع فيما بين الجمرتين ولا تتزوج ثلاثا فتقع بين أثافى ولا تتزوج أربعا فيحقرنك ويهرمنك ويفلسنك ، فقال له رجل ، حرمت ما أحل الله ، فقال ، طمران وكوزان ورغيفان وعبادة الرحمن ، وعن صالح بن حسان قال ، رأيت امرأة بالمدينة يقال لها حواء وهى التى علمت نساء المدينة النقع وهو النخر والحركة والغربلة والرهز وكانت لها سقيفة تتحدث إليها رجالات قريش ولم يكن فى المدينة أهل بيت إلا وتأخذ صبيانهم وتمصهم ثديها أو ثدى إحدى بناتها فكان أهل المدينة يسمونها حواء ولم يكن بالمدينة شريف ممن يجلس فى سقيفتها إلا وأوصل إليها فى السنة ثلاثين وسقا وأكثر من طعام وتمرمع الدنانير والدراهم والخدم والكساء فجاءها ذات يوم مصعب بن الزبير وعمرو ابن سعيد بن العاص وابن لعبد الرحمن بن أبى بكر فقالوا لها يا خالة قد خطبنا نساء من قريش ولسنا ننتفع إلا بنظرك اليهن فارشدينا بفضل علمك فيهن فقالت لمصعب يا ابن أبى عبد الله ومن خطبت قال عائشة بنت طلحة قالت فانت يا ابن الصديق قال أم القاسم بنت زكرياء ابن طلحة قالت فانت ياابن أبى احيحة قال زينب بنت عمرو بن عثمان فقالت ياجارية على بمنقلى – تعنى خفيها – فاتتها بهما فخرجت ومعها خادم لها فاتت عائشة بنت طلحة فقالت مرحبا بك ياخالة فقالت يابنية أنا كنا فى مادبة لقريش فلم تبق امرأة لها جمال إلا ذكرت وذكر جمالك فلم أدر كيف أصفك فتجردى لأنظرك فالقت درعها ثم مشت فارتج كل شىء منها ثم أقبلت على مثل ذلك فقالت فداك أبى وأمى خذى ثوبيك واتتهن جميعاً على مثل

ذلك ثم رجعت إلى السقيفة فقالت يا ابن أبي عبد الله ما رأيت مثل عائشة بنت طلحة قط ممتلئة الترائب زجاء العينين هدبة الاشفار مخطوطة المتنين ضخمة العجيزة لفاء الفخذين مسرولة الساقين واضحة الثغر نقية الوجه فرعاء الشعر إلا أنني رأيت خلتين هما أعيب ما رأيت فيها أما إحداهما فيواريها الخف وهى عظم القدم والأخرى يواريها الخمار وهى عظم الاذن وأما أنت يا ابن أحيحة فما رأيت مثل زينب بنت عمرو فراهة قط إلا أن فى الوجه ردة ولكنى مشيرة عليك بأمر تستأنس إليه وهى ملاحة تعتزيها وأما أنت يا ابن الصديق فوالله ما رأيت مثل أم القاسم ما شبهتها إلا بخوط بانة تثنى أو خشف ينقلب على رمل ولم أرها إلا فوق الرجل وإذا زادت على الرجل المرأة لم تحسن لا والله إلا من يملا المنكبين فتزوجوهن وقال أعرابى فى أخت له تزوجت بغير كفؤ :

ولو ركبت ماحرم الله لم يكن   بأقبح عند الله مما استحلت

قال : وكان بالمدينة رجل قد أعطى جودة الرأى ولم يكن فيها من يريد إبرام أمر إلا شاوره فأراد رجل من قريش أن يتزوج فأتاه فقال أنا أريد أن اضم إلى أهلا فأشر على قال افعل تحصن دينك وتصن مؤونتك وإياك الجمال البارع قال ولم نهيتنى وإنما هو نهاية ما يطلب الناس قال لأنه مافاق الجمال إلا لحقه قول أما سمعت قول الشاعر :

ولن تصادف مرعى مونقاً أبداً   إلا وجـــدت به آثار مأكول

قيل وكانت جارية من بنات الملوك تكره التزويج فاجتمع عندها نسوة فتذاكرن التزويج وقلن لها ما يمنعك منه قالت وما فيه من الخير قلن وهل لذة العيش إلا فى التزويج. قالت فلتصف كل واحدة منكن ما عندها فيه من الخير حتى أسمع . فقالت إحداهن زوجى عونى فى الشدائد وهو عائدى دون كل عائد إن غضبت عطف وإن مرضت لطف . قالت نعم الشيء هذا. قالت الأخرى زوجى لما عنانى كاف ولما أسقمنى شاف عرقه المسك المداف وعناقه كالخلد ولا يمل طول العهد . قالت هذا خير منه . قالت الأخرى زوجى الشعار حين أبرد وأنيسى حين أفرد . فتزوجت فقلن لها . يا فلانة كيف رأيت . قالت . أنعم النعيم وسروراً لا يوصف ولذة ليس منها خلف .

﴿ أمثال فى التزويج ﴾

قيل أن أول من قال . لاهنك أنقيت ولا ماءك أبقيت . الضب بن أروى الكلاعى

وذاك أنه خرج من أرضه فلما سار أياما حار فى تلك المفاوز التى تعسفها وتخلف عن أصحابه وبقى فردا يعسف فيها ثلاثة أيام حتى دفع إلى قوم لا يدرى من هم فنزل عليهم وحشهم وكان جميلا وإن امرأة من أفاضل أولئك هويته فارسلت إليه أن أخطبنى فخطبها وكانوا لا يزوجون إلا شاعراً أو رجلا يزجر الطير أو يعرف عيون الماء فسألوه فلم يحسن شيئاً من ذلك فلم يزوجوه فلما رأت المرأة ذلك زوجته نفسها على كره من قومها فلبث فيهم مالبث ثم إن رجلا من العرب أغار عليهم فى خيل فاستأصلهم فتطيروا بضب وأخرجوه وامرأته وهى طامث فانطلقا واحتمل ضب شيئاً من ماء ومشيا يوما وليلة إلى الغد حتى اشتد الحر وأصابهما عطش شديد فقالت له ادفع إلى السقا حتى اغتسل به فإذا ننتهى إلى الماء ونستقى فاغتسلت بما فى السقاء ولم يقع منها موقعا وأتيا الماء فوجداه ناضبة وأدركهما العطش فقال ضب . لاهنك أنقيت ولا ماءك أبقيت . فذهبت مثلا ثم استظلا تحت شجرة كبيرة : فأنشأضب يقول :

تالله ما ظـــلة أصاب بها سـوّاد قلبى قارع النطب
ظل كثيب الفؤاد مضطرباً وتكتسى من غدائر قلب
أن يعرف الماء تحت صم صفاً أو يخبر الناس منطق الخطب
أخرجنى قومها بأن رحا دارت بشؤم لهم على قطب

فلما سمعت ذلك فرحت وقالت قم فارجع إلى قومى فانك شاعر فانطلقا راجعين حتى انتهيا اليهم فاستقبلوهم بالسيف والعصا فقال لهم ضب اسمعوا شعرى ثم ان بدا لكم أن تقتلونى بعد فافعلوا فتركوه فصار فيهم عزيزاً ، وقيل إن أول من قال : فى الصيف ضيعت اللبن .

قتول بنت عبد وكانت تحت رجل من قومها فطلقها وإنها رغبت فى أن يراجعها فأبى عليها فلما يئست خطبها رجل يقال له عامر بن شوذب فتزوجها فلما بنى بها بدا للزوج الأول مراجعتها وهوى بها هوى شديداً فجاء يطلبها ويرنو بنظره إليها ففطنت به فقالت .

أتركتنى حتى إذا علقت أبيض كالشطن
أنشأت تطلب وصلنا فى الصيف ضيعت اللبن

فذهبت مثلا فقال لها زوجها الأول واسمه الاشق فهل بقى شىء قالت نعم فاصله عن

جميع مالك وطلاق فإن فصلته تزوجتك فرضى بذلك ثم راجع نفسه فقال لها ذلك فقالت أما إذا ضننت بمالك فانطلق إلى مكان إذا أنت تكلمت سمع زوجي كلامي وكلامك ثم اقعد كأنك لا تشعر به وقل :

لحا الله بنت العبد إن وصالها وصال ملول لا تدوم على بعل
تحدثني أن سوف تقتل عامرا لأن لم يكن في ماله عامر مثلي
فهيهات تزويج التي تقتل الفتى إذا ماأبت يوماً وإن كان من أجلي
فتقتلني يوماً إذا هويت فتى سواى وإن اليوم من وصلها محلي

فانطلق الأشق ففعل ما أمرته به فسمعه عامر فوقع في قلبه قوله وقد كان عرف حبها له فصدق ذلك ودخل عليها فطلقها وتزوجها الاشق ، وذكروا أن بطنا من قريش اشتدت عليهم السنة وكانت فيهم جارية يقال لها زينب من أكمل نسائهم جمالا وأتمهن تماما وأشرفت فرآها شاب يقال له عروة فوقعت في قلبه فجعل يطالعها ولا يقدر على أكثر من ذلك فاشتد وجده بها فلما انقضت السنة وأرادوا الرجوع إلى منازلهم دعا بعض جوارى الحى فقال يا ابنة الكرام هل لك في يد تتخذين بها عندى شكراً قالت ما احوجني إلى ذلك ، قال تنطلقين إلى خيمة فلانة كانك تقتبسين نارا فإذا أنت جلست فقولي حيث تسمع زينب :

ألا هل لنا قبل التفرق ليلة ويوم فنقضى كل نفس مناها

فانطلقت الجارية ففعلت ذلك فلما سمعت زينب قولها وكانت تفلى رأس زوجها وكان عنده أخ له . فقالت مجيبة لها :

لعمرى لقد طال المقامة هاهنا لو أن لحب حاجة لقضاها

فسمع أخو الزوج قول الجارية وجواب زينب فقال

ألم يعلم الزوج المفلى بأنها رسالة مشغوف الفؤاد رجاها

فانتبه الزوج لأمرهم وعرف ما أرادت فقال :

لحى الله من لا يستقيم بوده ومن يمنح النفس الطروب هواها

انطلق يازينب فانت طالق فخرجت من عنده وبعثت إلى عروة فأعلمته وأقامت حتى انقضت عدتها ثم تزوجته .

﴿ فى الناشزة ﴾

ذكروا أن الأخطل كانت عنده امرأة وكان بها معجبا فطلقها وتزوج بمطلقة رجل من بنى تغلب وكانت بالتغلبى معجبة فبينا هى ذات يوم جالسة مع الأخطل إذ ذكرت زوجها الأول فتنفست الصعداء ثم ذرفت دموعها فعرف الاخطل ما بها فذكر امرأته الأولى وأنشأ يقول :

كلانا على وجد يبيت كأنما بجنبيه من مس الفراش قروح
على زوجها الماضى تنوح وزوجها على الطلة الأولى كذاك ينوح

قيل ، وخاصمت امرأة زوجها إلى زياد فجعلت تعيبه وتقع فيه ، فقال الزوج . أصلح الله الأمير إن شر المرأة كبرها إن المرأة إذا كبرت عقم رحمها وبذا لسانها وساء خلقها والرجل إذا كبر استحكم رأيه وقل جهله ، قال صدقت وحكم له بها ، وذكروا أن امرأة أتت عبيد الله بن زياد وكانت ذات شحم وجسم وجمال مستعدية على زوجها وكان أسود دميم الخلقة فقال : مابال هذه المرأة تشكوك ، قال أصلح الله الأمير سلها عما ترى من جسمها وشحمها أمن طعامى أم من طعام غيرى ، قالت من طعامك أفتمن على بطعام أطعمتنيه والكلاب تأكل . قال سلها عن كسوتها من مالى هى أم من مال غيرى . قالت من مالك أفتمن على بثوب كسوتنيه قال وسلها عما فى بطنها منى هو أم من غيرى . قالت منك ووددت أنه فى بطنى من كلب . قال الرجل أصلح الله الأمير فما تريد المرأة إلا أن تطعم وتكسى وتنكح . قال صدقت فخذ بيدها . قال خرج رجل مع قتيبة بن مسلم إلى خراسان وخلف امرأة يقال لها هند من أجمل نساء زمانها فلبث هناك سنين فاشترى جارية اسمها جمانة وكانت له فرس يسميه الورد فوقعت الجارية منه موقعاً فأنشأ يقول :

ألالا أبالى اليوم مافعلت هند إذا بقيت عندى الجمانة والورد
شديد مناط القصريين إذاجرى وبيضاء مثل الرئم زينها العقد
فهذا لأيام الهياج وهــــذه لحاجة نفسى حين ينصرف الجند

فبلغ ذلك هند فكتبت إليه :

ألا أقره منى السلام وقل له عنينا بفتيان غطارفة مرد

فهذا أمير المؤمنين أميرهم سبانا وأغناكم أراذلة الجند
إذا شاء منهم ناشيء مد كفه إلى كبد ملساء أو كفل نهد

فلما قرأ كتابها أتى به إلى قتيبة فأعطاه إياه فقال له أبعدك الله هكذا يفعل بالحرة وأذن له فى الانصراف . قال وسمع عمر بن الخطاب امرأة تنشد وتقول :

فمنهن من تسقى بعذب مبرد نقاخ فتلكم عند ذلك قرت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن أجاج فلولا خشية الله فرت

فأمر بإحضار زوجها فوجده متغير الفم فخيره جارية من المغنم أو خمسة مائة درهم على طلاقها فاختار الخمسمائة فدفعت إليه وخلى سبيلها . وحكى عن الفضل بن الربيع أنه كان بمكة ومعه الفرج الرخجى وكان الفضل صبيحاً ظريفاً والفرج دميما قبيحاً فخرجا إلى الطواف ثم انصرفا إلى بعض طرقات مكة وقعدا يتغديان فبينما هما كذلك على طعامهما إذ وقفت عليهما امرأة جميلة بهيئة حسنة شكلة وعليها برقع فرفعته عن وجهها فإذا وجه كالدينار وذراع كالجمار فسلمت وقعدت وجعلت تأكل معهما قال الفضل فاعجبنى ما رأيت من جمالها وهيئتها فقلت هل لك من بعل . قالت لا قلت فهل لك فى بعل من أصحاب أمير المؤمنين حسن الخلق والخلق قالت وأين هو ، فأشار إلى فرج فقالت . جوابك عند فراغنا فلما أكلت قالت للفضل تقرأ شيئاً من كتاب الله قال نعم قالت أفتؤمن به قال نعم قالت فإن الله يقول (من يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) فضحك الفضل ودخل على الرشيد فأخبره فأمر بإحضارها فلما نظر إليها أعجب بها فتزوجها وحملها إلى مدينة السلام . قال وحج اسماعيل بن طريح فوقفت عليه أعرابية جميلة قال فقال لها . هل لك أن تزوجينى نفسك . فقالت من غير توقف :

بكى الحسب الزاكى بعين غزيرة من الحسب المنقوص أن يجمعا معا

وانصرفت . قال العتبى كنت كثير التزوج فمررت بامرأة فأعجبتنى فأرسلت إليها ألك زوج قالت لا فصرت إليها فوصفت لها نفسى وعرفتها موضعى فقالت . حسبك قد عرفناك . فقلت لها زوجينى نفسك فقالت نعم ولكن ها هنا شيء تحتمله قلت وما هو قالت بياض فى مفرق رأسى . قال فانصرفت فصاحت بى أرجع فرجعت إليها فاسفرت عن رأسها فنظرت إلى وجه حسن وشعر أسود فقالت . أنا كرهنا منك عافاك الله ما كرهت منا . وأنشدت :

أرى شيب الرجال من الغوانى بموضع شيبهن من الرجال

وعن عطاء بن مصعب قال . جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالت . يا أمير المؤمنين لا أنا ولا زوجى فقال لها . ومالك من زوجك قالت . مر بإحضاره فأحضر فاذا رجل قذر الثياب قد طال شعر جسده وأنفه ورأسه فأمر عمر أن يؤخذ من شعره ويدخل الحمام ويكسى ثوبين أبيضين ثم يؤتى به ففعل به ذلك ودعا المرأة فلما رأت الزوج قالت الآن فقال لها عمر اتقى الله وأطيعى زوجك . قالت أفعل يا أمير المؤمنين فلما ولت قال عمر تصنعوا للنساء فانهن يحببن منكم ما تحبون منهن . ويقال إن المرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك وتبغض يوما واحداً فيظهر ذلك بوجهها ولسانها والرجل يبغض أربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك وإن أحب يوما واحدا اشهدت جوارحه .

﴿ نساء الخلفاء ﴾

على بن محمد بن سليمان قال : أبى يقول كان المنصور شرط لأم موسى الحميرية أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتبت عليه بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه بذلك فبقى مدة عشر سنين فى سلطانه يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق وجهد أن يفتيه واحد منهم فى التزويج وابتياع السرارى فكانت أم موسى إذا علمت مكانه بادرته وأرسلت إليه بمال فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتب لم يفته حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد فأتته وفاتها وهو بحلوان فأهديت إليه مائة بكر وكان المنصور أقطع أم موسى الضيعة المسماة بالرحبة فوقفتها قبل موتها على المولدات الإناث دون الذكور فهى وقف عليهن إلى هذا الوقت .

حدثنا يحيى بن الحسن عن محمد بن هشام قاضى مكة قال كانت الخيزران لرجل من ثقيف فقالت لمولاها الثقفى إنى رأيت رؤيا . قال وما هى قالت رأيت كأن القمر خرج من قبلى وكأن الشمس خرجت من دبرى . قال لها لست من جوارى مثلى أنت تلدين خليفتين فقدم بها مكة فباعها فى الرقيق فاشتريت وعرضت على المنصور فقال من أين أنت قالت المولد مكة والمنشأ بجرش قال فلك أحد قالت مالى أحد إلا الله وما ولدت أمى غيرى . قال ياغلام اذهب بها إلى المهدى وقل له تصلح للولد فأتى بها المهدى فوقعت منه كل موقع فلما ولدت

موسى وهرون قالت إن لى أهل ببيت بحرش . قال ومن لك . قالت لى أختان اسمهما أسماء وسلسل ولى أم وأخوان فكتب فأتى بهم فتزوج جعفر بن المنصور سلسل فولدت منه زبيدة واسمها سكينة تزوجها الرشيد وبقيت أسماء بكراً فقال المهدى للخيزران قد ولدت رجلين وقد بايعت لهما وما أحب أن تبقين أمة وأحب أن أعتقك وتخرجين إلى مكة وتقدمين فأتزوجك قالت الصواب رأيت فأعتقها وخرجت إلى مكة فتزوج المهدى أختها أسماء ومهرها ألف ألف درهم فلما أحس بقدوم الخيزران استقبلها فقالت ما خبر اسماء وكم وهبت لها قال من اسماء قالت امرأتك قال إن كانت اسماء امرأتى فهى طالق فقالت له طلقتها حين علمت بقدومى قال أما إذ علمت فقد مهرتها الف الف درهم ووهبت لها الف الف درهم ثم تزوج الخيزران. قال كانت نخلة جارية الحسين الخلال قبل أن يتولى المتوكل الخلافة تقعد بين يديه وتغنيه فولدت للحسين ابناً فلما ولى المتوكل الخلافة طرقه ليلا فقال الحسين زرتنا جعلت فداك . قال اشتهيت ان اسمع غناء نخلة فأخرجها إليه مطمومة الشعر فقال يا خلال أليس قد ولدت منك ابناً قال بلى قال فأنا أحب أن تعتقها قال فإنها حرة قال فأشهد أنى قد تزوجتها قومى يا نخلة فاشتد ذلك على الحسين فعوضه منها خمسة عشر الف دينار وحول إليه نخلة. قيل ووصف للمتوكل ابنة لسليمان بن القاسم بن عيسى بن موسى الهادى وعدة من الهاشميات فحملن إليه وعرضن عليه فاختارها من بينهن وصرف البواقى ونزلت منه منزلة حتى ساوى بينها وبين قبيحة فى المنزلة وكانت جارية لها لياقة وملاحة ووصفت له ريطة بنت العباس بن على فحملت إليه فتزوجها ثم سألها أن تطم شعرها وتتشبه بالمماليك فأبت عليه فأعلمها إن لم تفعل فارقها فاختارت الفرقة فطلقها ووصفت له عائشة بنت عمرو بن الفرج الرخجى فوجه فى جوف الليل والسماء تهطل إلى عمران أحمل إلى عائشة فسأله أن يصفح عنها فإنها القيمة بأمره فأبى فانصرف عمر وهو يقول اللهم قنى شر عبدك جعفر ثم حملها بالليل فوطئها ثم ردها إلى منزل أبيها قال وكان الهادى يشاور من أصحابه عبد العزيز بن موسى وعيسى بن دأب والعزيزى وعبد الله بن مالك فخرج ذات يوم إليهم وهو مغضب كأنه جمل هائج منتفخ الاوداج منتقع اللون فأقبل حتى جلس فى مجلسه وكان العزيزى اجرأهم عليه فقال ياأمير المؤمنين إنا نرى بوجهك ما كدر علينا عيشنا وبغض الدنيا إلينا فإن رأى أمير المؤمنين أن يخبرنا بالسبب فإن كان عندنا حيلة أعلمناه بها وأن تكن مشورة أشرنا بها وإن أمكن

احتمال الغم عنه وقيناه بأنفسنا وحملنا الغم عنه قال فأطرق طويلا والعزيزى قائم فقال له اجلس ياعزيزى فإنى لم أر كصاحب الدنيا قط اكثر آفات وأعظم نائبة ولا أنغص عيشاً قال العزيزى وما ذاك يا أمير المؤمنين قال لبانة بنت جعفر بن أبى جعفر قد علمتم موقعها منى وإيثرتها عندى كلمتنى بادلال فاغلظت فلم يكن لها عندى احتمال ولا عندها إقصار حتى وثبت عليها وضربتها ضرباً موجعاً قال وسكت فقال ابن دأب يا أمير المؤمنين إنك والله لم تأت منكراً ولا بديعا قد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤدبون نساءهم ويضربونهن هذا الزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته وثب على امرأته أسماء بنت أبى بكر وهى أفضل نساء أهل زمانها فضربها فى شيء عتب عليها فيه ضرباً مبرحا حتى كسر يدها وكان ذلك سبب فراقها وذلك أنها استغاثت بولدها عبدالله فجاء يخلصها من أبيه فقال هى طالق إن حلت بينى وبينها ففعل وبانت منه وهذا كعب ابن مالك الأنصارى عتب على امرأته وكانت من المهاجرات فضربها حتى حال بنوها بينه وبينها فقال :

فلولا بنوها حولها لخبطتها كخبطة فروج ولم اتلعثم

قال فسرى عن موسى الغضب وطابت نفسه ودعا بالطعام فأكلنا وأمر له بعشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا فتلهفت وتعجبت من انقطاعى عن الحديثين وهما فى بالى وأنا أعلم بهما منه .

﴿ المطلقات ﴾

قيل : كانت أم الحجاج بن يوسف الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود وكانت عند المغيرة ابن شعبة فرآها يوما تتخلل بكرة فقال أنت طالق والله لئن كان هذا من غداء يومك لقد شرهت وإن كان من عشاء أمسك لقد انتنت فقالت لا يبعد الله غيرك والله ما هو إلا من السواك فخلف عليها بعده يوسف أبو الحجاج فاولدها الحجاج ، وفيها أشعار منها :

أهاجتك الظعائن يوم بانوا بذى الزى الجميل من الأثاث
ظعائن أسلكت نقب المنـــقى تحث إذا ونت أى احتثاث

كأن على الحدائج يوم بانوا   نعاجا ترتعى بقل البراث
تؤمل أن تلاقى أهل بصرى   فيالك من لقاء مستراث
تهيجنا الحمـــام إذا تداعى   كما سجع النوائح بالمــــراثى

وفى زينب أخت الحجاج يقول النميرى :

ولم تر عينى مثل سرب رأيته   خرجن من التنعيم معتمرات
ولما رأت ركب النميرى أعرضت   وكن من ان يلقينه حذرات
تضوع مسكا بطن نعمان إذ مشت   به زينب فى نسوة عطرات
مررن بفخ ثم رحن عشية   يلبين للرحمن مؤتجرات
دعت نسوة شم العرانين بدنا   نواعم لا شعثاً ولا غبرات
فأدنين لما قمن يحجبن دونها   حجابا من القسى والحبرات
أجل الذى فوق السموات عرشه   أوانس بالبطحاء معتجرات
يخبين أطراف البنان من التقى   ويخرجن بالأسحار معتمرات

عوانة عن محمد بن زياد عن شيخ من كندة قال خرج الحارث بن سليل الأسدى زائراً لعلقمة بن حفصة الطائى فلما قدم عليه بصر بابنة له يقال لها الزباء وكانت من أجمل نساء أهل عصرها فأعجب بها فقال لأبيها أتيتك زائراً وقد ينكح الخاطب ويكرم الطالب ويفلح الراغب فقال أنت امرؤ كريم يقبل منك الصفو ويؤخذ منك العفو فاقم ننظر فى أمرك ثم انكفأ إلى أهله فقال إن الحارث بن سليل سيد قومه منصباً وحسباً وبيتاً فلا ينصرفن من عندنا إلا بحاجته فأريدى ابنتك عن نفسها فخلت بالزباء فقالت يابنية أى الرجال أحب إليك الكهل الجحجاح الفاضل المناح أم الفتى الوضاح قالت الرموز الطماح قالت يا بنية إن الشيخ يميرك ولا يغيرك وليس الكهل الفاضل الكثير النائل كالحدث السن الكثير الظن قالت يا أماه أخشى الشيخ أن يدنس ثيابى ويشمت بى أترابى ويبلى شبابى قال فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها فتزوجها الحارث بن سليل على خمسين ومائة من الإبل وألف درهم وابتنى بهاثم رحل بها إلى قومه فبينا هو جالس ذات يوم وهى إلى جانبه إذ اقبل فتية من بنى أسد يتعاورون يتخترون فلما نظرت إليهم تنفست الصعداء وبكت فقال ماشأنك

قالت مالى وللشيوخ الناهضين كالفروخ قال : ثكلتك امك تجوع الحرة ولا تأكل بثديها فذهبت مثلا أما وأبيك لرب غارة شهدتها وخيل وزعتها وسبية اردفتها وخمرة شربتها الحقى بأهلك فأنت طالق . وقال :

تهزأت أن رأتنى لابساً كبراً — وغاية الناس بين الموت والكبر
فإن يكن قد علا رأسى وغيره — صرف الزمان وتغيير من الشعر
فقد أروح للذات الفتى جذلا — وقد أصيد بها عينا من البقر
عنى إليك فإنى لا توافقنى — عور الكلام ولا شرب على الكدر

قال وقال الحجاج لابن القرية : ما تقول فى التزويج ، قال . وجدت أسعد الناس فى الدنيا وأقرهم عيناً وأطيبهم عيشاً وأبقاهم سرورا وأرخاهم بالا وأشبهم شبابا من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة مطيعة إن ائتمنها زوجها وجدها أمينة وإن قتر عليها وجدها قانعة وإن غاب عنها كانت له حافظة تجد زوجها أبدا ناعما وجارها سالما ومملوكها آمنا وصبيها طاهراً قد ستر حلمها جهلها وزين دينها عقلها فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنيها وكاللؤلؤة التى لم تثقب والمسكة التى لم تفتق قوامة صوامة ضاحكة بسامة إن أيسرت شكرت وإن اعسرت صبرت فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه وإنما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف يجره فى الأرض جرا فبعلها مشغول وجارها متبول وصبيها مرذول وقطها مهزول ، قال : يا ابن القرية قم الآن فاخطب لى هند ابنة أسماء ولا تزيدن على ثلاث كلمات فأتاهم فقال : جئت من عند من تعلمون والأمير يعطيكم ما تسئلون افتنكحون ام تدعون ، قالوا ، انكحنا وغنمنا فرجع إلى الحجاج فقال. أصلح الله الأمير صلاح من رضى عمله ومد فى الخيرات أجله وبلغ به أمله جمع الله شملك وأدام طولك وأقر عينك ووقاك حينك وأعلى كعبك وذلل صعبك وحسن حالك على الرفاء والبنين والبنات والتيسير والبركة وأسعد السعود وأيمن الجدود وجعلها الله ودودا ولودا وجمع بينكما على الخير والبركة فتزوجها الحجاج ثم أنه دخل ذات يوم عليها وهى تقول :

وما هند إلا مهرة عربية — سليلة أفراس تحللها بغل
فإن نتجت مهراً كريماً فبالحرى — وإن يك إقراف فما أنجب الفحل

فخرج من عندها مغضباً ودعا ابن القرية فدفع إليه مائة الف درهم وقال : أدخل على هند وطلقها عنى ولا تزد على كلمتين وادفع إليها المال . فحمل ابن القرية المال ودخل عليها فقال : إن الأمير يقول . كنت فبنت وهذه المائة الف صداقك ، فقالت يا ابن القرية ما سررت به إذكان ولا جزعت عليه إذ بان وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به ، فكان القول أشد على الحجاج من فراقها . وذكروا أن عبد الرحمن بن ابى بكر الصديق رضى الله عنه كانت عنده عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل فأحبها حباً شديداً فأمره أبوه بفراقها وأن يطلقها تطليقة واحدة ففعل ثم ندم على فعله فقال :

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها فى غير جرم تطلق
لها خلق سهل وحسن ومنصب وخلق سوى ما يعاب ومنطق
أعاتك قلبى كل يوم وليـــلة إليك بما تخفى القلوب معلق
أعاتك ما أنساك ما ذر شارق وما لاح نجم فى السماء محلق

فسمع أبو بكر ذلك فرق له وأمره بمراجعتها ، وعن على بن دعبل قال : حدثنى أبى قال خرجت ومعى أعرابى ونبطى إلى موضع يقال له بطياثا من أمصار دجلة متنزهين فأكلنا وشربنا فقال الأعرابى : قل بيت شعر فقلت

نلنا لذيذ العيش فى بطياثا
فقال الأعرابى لما حثثنا أقــدحا ثلاثا
فقال النبطى وامرأتى طالق ثــلاثا

وما زال يبكى حتى الصباح فقلت له ، مايبكيك . فقال ذهبت امرأتى بقافية ، قال إسحق ابن إبراهيم الموصلى كنت أنا والحسين بن الضحاك يوما عند المعتصم وحضرت قينة تعرض عليه فأعجب بها فقال للمدنيين كيف ترونها ، فقال أحدهم . امرأته طالق إن كان رأى مثلها ، وقال آخر امرأته طالق إن لم ، وسكت فقال المعتصم . ان لم ، قال ، لاشىء ، فضحك وقال له ويحك مادعاك إلى طلاق أهلك بلا سبب . فقال يا أمير المؤمنين كلنا قد طلق امرأته بلا سبب . ومما قيل فى ذلك من الشعر:

رحلت أميــة بالطلاق ونجوت من رق الوثاق

بانت فلم يجزع لها قلبي ولم تدمع مآقي
لو لم أرح بفراقها لا رحت نفسي بالإباق
وخصيت نفسي لا أريد حليلة حتى التلاقي

وقال آخر:

رأيت أثاثها فطمعت فيها وقد نصبت لغيرك بالأثاث
فطلقها وعد النفس عنها سريعاً إن نفسك في التواث
وإلا فالسلام عليك إني سآخذ من غد لك في المراثي

﴿ محاسن وفاء النساء ﴾

قال الكسروي كتب بلاش بن فيروز إلى ملك الهند يخطب ابنته فلم ينعم له ورد رسوله خائباً فتجشم وسار إليه في خيله ورجله فلما اصطفت الخيلان دعاه بلاش إلى المبارزة وقال إنه عار على الملوك أن يوردوا جنودهم الهلاك ويفوزوا بأنفسهم فبرز إليه ملك الهند فاختلفت بينهما ضربتان فنمت بلاشا حصانة درعه وضرب بلاش الهندي على عاتقه فقطع حبله حتى انتهى السيف إلى سندوءته فخر ميتاً وانهزمت خيله فافتتح بلاش مدينته وأمر ثقاته فاحدقوا بقصر ابنة الملك فلما احتوى على أمواله بعث إلى ابنة الملك أن تأتيه فقالت للرسول وهي تبكي : قل للملك المزين بالحلم المحبب في رعيته المؤيد بالظفر إنك قد ملكتني وصرت ممن يستحق عطفك ورأفتك فإن رأيت أن تطيب نفساً عن النظر إلي حتى ترجع إلى دار مملكتك فافعل ، فانصرف الرسول إلى بلاش فأخبره فأجابها إلى ما سألت وسار وحملها حتى قدم دار المملكة فهيأ لها مقصورة مفردة عن سائر حرمه فأنزلها فيها وأمر لها بعتيق الديباج وفاخر الجوهر وأسفاط من الذهب والصلات والجوائز والأثاث ما لم يأمر لغيرها من نسائه واستأذنها في الدخول عليها فأذنت له فدخل عليها وأقام عندها سبعة أيام ولياليها عجباً منه بها لا تحير إليها جواباً ولا يخف عن صدر مجلسها فخرج من عندها اليوم الثامن وقد وقع في قلبه ما أظهرت من خفة مجلسه عليها ولبثت أشهرا لا يدخل عليها فقالت يوم لحاضنتها ما أعجب أمر الملك بذل دمه في طلبي حتى إذا ظفر بي سلا عني انطلق حتى تسألي عن عدة نسائه وأيهن أكرم عليه وأتيني بعلم ذلك ، فانطلقت حتى عرفت ذلك وانصرفت فقالت إني وجدت له أربعمائة امرأة ما بين أمة وحرة وليس فيهن أكرم عليه من ابنة سائس من سواسه أعجبته فتزوج بها فقالت

انطاقى إليها واقرئيها منى السلام واعلميها أنى أريد مؤاخاتها والانقطاع إليها فانطلقت الحاضنة إلى ابنة السائس فأبلغتها رسالة مولاتها فقالت لها اقرئيها منى السلام وأعلميها أنى قد أحببتها وأجبتها إلى ما سألت فتصير إلى فانصرفت فأخبرتها بما قالت فتهيأت بأحسن هيئة وأقبلت إليها ودخلت عليها فرفعت مجلسها وأقبلت عليها فذكرت حبها لها ورغبتها فى مواصلتها فردت عليها ابنة السائس أحسن الرد وأعلمتها سرورها بذلك ثم تحدثتا ساعة وانصرفت وجعلت الهندية تأتيها غبا وتظهر الانس بها فلما أنست بها قالت لها. أنت قد استلبت قلب الملك وقهرت جميعنا بفضلك وليس لواحدة منا نصيب فاعلمينا الأمر الذى فضلتينا به لنزداد سروراً بما أوتيت ومحبة لك والانقطاع إليك ، قالت إنى لما عرفت ضعف نسبى وقلة جمالى علمت أنه لا يرجع الملك منى إلى شىء أحظى به عنده مثل المؤاتاة فى الخلوة وأن أبسطه إذا هم بالحركة واستميل قلبه باللطف وفضل الخدمة فلما رآنى على ذلك مستمرة ورأى من سائر نسائه أنفة الأكفاء وزهو الجمال وخيلاء الملك وعلمت أنى ان أخذت ما أخذته مع خمول نسبى وقلة جمالى ودقة خطرى لا يليق بى مثل الذى يليق بهن ففضلنى على جميع نسائه بذلك . فلما سمعت ابنة الملك ذلك علمت أن قلوب الرجال لا تستمال إلا بالمؤاتاة وسرعة الإجابة فى الباه عند المشغلة فعزمت أن تجعل ذلك عدة لاستعطاف قلب الملك فانصرفت إلى قصرها وقالت لبعض جواريها اذهبى إلى فلانة — تعنى ابنة السائس — فإن رأيت الملك عندها فاعلميها أنى عليلة من وجع عرض لى فانطلقت الجارية فإذا الملك عندها فأخبرتها بذلك فرق الملك لها وذكر غربتها وقتله أباها فقال لابنة السائس : ماترين فى اتيانها ، فقالت أيها الملك انه ليس فى نسائك من لها عندى مثل منزلتها فصر إليها فانها غريبة قد فارقت أهلها وهى فى موضع رحمة . فقام الملك حتى دخل عليها وانتهى إلى باب مجلسها فقامت إليه تمشى بأحسن هيئتها متكسرة فى حليها وزينتها عبقة بطيبها وعطرها فقبلت بين عينيه وأخذت بيده حتى أجلسته فى صدر فرشها وجعلت تقبل يديه ورجليه ضاحكة إليه مظهرة السرور به فجذبها إلى نفسه ودعاها إلى المضاجعة فأتته ولم يرد فى الخلوة شيئاً إلا أجابته إليه فلما قضى حاجته نازعها إلى المحادثة فقال. أين ماذكر رسولك من شدة وجعك ، قالت : ياسيدى كنت متوجعة لفراقك حتى شفانى لقاؤك وقلت ذلك لما نالنى من تباريح الشوق إليك وطول صدودك وسلوتك ثم أخذ معها فى المداعبة وأقام عندها سبعة أيام فبينما هما يتلاعبان ويتذاكران ويتعانقان إذ دخلت جارية لابنة السائس فحيت الملك بتحية الملوك ثم قالت للهندية إن سيدتى — تعنى ابنة السائس — تقول

قد اجتمع فيك ثلاث خصال الأولى الغدر بعلمك والثانية فضل تطاولك والثالثة كفران النعمة للمنعم وإني عن قريب رادتك من الملك إلى غصص الغيظ ، فأفحمتها وهملت عيناها ونظرت إلى الملك كالمستغيثة به ، فقال لها الملك ياحبيبتي ماتنكرين من أمتك قد وهبتها لك وجميع ماتملك فنجلى عنها غمها فقالت لرسولتها انطلقي إليها فاعلميها أن الملك قد وهبها وما تملك لي وقولي لها أرجعك لخش نفسك إلى لؤم حسبك وإهمال أدبك إلتني الساعة بصغار المذلة ورقة العبودية فلما أبلغها الرسول ذلك أقبلت فدخلت عليها لحيث الملك وقامت بين يديه . فقالت لها الهندية ما كان أعظم زهوك في رسالتك ، قالت ياسيدتي أتأذنين لي في الكلام ، قالت تكلمي ، قالت أيتها السيدة لست متوجهة إليك بشيء هو أملك بك من حلمك ولا أعطف على فضلك ولم يظلم من رفع فوق من هو أفضل مني وكل فرع يرجع إلى أصله وكل زهر ينسب إلى سنخه ، فقالت صدقت فدعي عنك كلام الأدب فقد ملكتك على رغم أنفك وأنا مزوجتك من فلان خادمي فليس لك فضل عليه قالت ابنة السائس من اعتاد معالي الأمور لم تطب نفسه بأسفلها ومن صاحب العظماء أبت غريزته الأدنياء وإنما ترقبت عطفك ورجوت حسن نظرك فأما إذا عزمت على هذا فقد طاب الموت وما الذي أستبقي منك ثم قالت أيها الملك إن جذل المسرة منك لا يستقر ويقع موقعه إلا بعد في المخالفة عندك فاحترس من هذه الهندية فإنها لا تؤمن عليك لأنها ليست من جنسك فيعطفها عليك الرحم ولا من أهل مملكتك فتعرف تطولك عليها وإنما هي شبيهة بموتورة قد قتلت أباها وهدمت عزها فاحترس منها ولا يلهينك موقعها من قلبك فإنها متى احتالت في قتلك لم يكن في أيدينا من الظفر إلا قتلها كما كان من أمر الثعلب وعظيم الطير . فقال الملك وما كان من حديثهما قالت يقال أن ثعلباً جاع في ليلة فرقى شجرة ليأكل منها فسال الوادي الذي فيه تلك الشجرة بسيل شديد فاقتلعها والثعلب عليها ثم رفعها ووضعها حتى ألقى الثعلب إلى أرض بعيدة من أرضه فأصبح وقد ألقاه السيل إلى سفح جبل كثير الأشجار مثمر الأغصان وعلى تلك الأشجار جنس من الطير لا يحصى عددا فأعيى إلى شجرة قصياً مقشعرا لا يعرف أرضه ولا يقدر على مؤالفة الدواب فمر به عظيم الطير فقال له ما أنت فقال أنا دابة سال بي السيل فألقاني في جبلكم وقد أصبحت غريباً فقال له عظيم الطير فهل لك حرفة قال نعم أعرف الثمار إذا بلغت حد بلوغها وأصنع للطير أكناناً في الأرض تسكن فيها فراخها من الحر والبرد فقال له عظيم الطير قد أدركت عندنا بغيتك فأقم عندنا نواسيك ونعرف حق مجاورتك فأقام الثعلب عند ملك

الطير فكان يعرفهم الثمار المدركة ويحفر لهن بمخاليبه قبوراً فى الأرض يفرخن فيها وكان الثعلب إذ جن عليه الليل وقرم إلى اللحم أدخل يده فى جحر من تلك الأجحرة فأخرج طيراً أو فراخه فأكله ودفن ريشه وجعلت الطير تفتقد ما كان يأكل واحداً بعد واحد فقال بعضها لبعض ما فقدنا أفاضلنا إلا منذ صارت هذه الدابة بين أظهرنا وما كانت هذه الطير تطيل الغيبة وما ندرى ما دهاها فقال لها عظيمها إن هذا حسد منكن لهذه الدابة فلا تغفلن ما أصبحتن فيه من فضل المطعم وما فيه فراخكن من هذه الأكنان التى لا يخاف عليها برد فيها ولا حر فقالت الطير أنت سيدنا وأبصر بالأمور منا قال وعلى أن أقطع هذا القول وأبين حق ذلك من باطله بنفسى فلما أظلم الليل نزل من الشجرة فدخل بعض تلك الأكنان وأقبل الثعلب على العادة التى اعتادها إلى ذلك الكن فأدخل يده فقبض على رأس الملك فقال الملك للثعلب لقد نصحتنى الطير لو قبلت نصحها قال الثعلب أنت هو قال نعم قال ماظننت أن يبلغ من حمقك كل هذا قال ملك الطير دعنى أردك فى منزلتك بحسب ما رأيت من فضل علمك ولطيف حيلتك قال له الثعلب إن أبوى أدبانى أن لا أعلق أنيابى بشىء وأتركه إذ ليس من جهلك أن لا تتجزأ من الثمار ومن الأكنان بما كان آباؤك يكتفون به ولم ترض حتى اختبرت أمرى بنفسك ولم تجعل التغرير فى ذلك بغيرك ثم أكله ودفن ريشه وفقدت الطير عظيمها فاستوحشت وضربت الثعلب ضرباً بمخاليبها ومناقيرها حتى قتلنه ولم يصلن فى عظيم خطر ملكهن إلى أكثر من قتل الثعلب فاحترس من هذه الهندية ، قالت الهندية إنما تفرعين المرأة بأربعة رجال بأبيها وأخيها وولدها وبعلها وأفضل النساء المختارة بعلها على جميع أهلها والمؤثرة له نفسها فكيف بمن ذهب أبوها وأخوها فبقى بعلها أفتحب أن تهلكه على أن مثلك فى رداءة همتك وخبث نيتك مثل الغراب مع الحمامة ، قال الملك وما كان من حديثهما ، قالت زعموا أن غراباً ألف مطبخاً لبعض الملوك فأخذ من أطيب اللحمان التى قد صارت فيه شيئاً فظنوا أن الغراب أخذه لقلة وفائه ولؤم جوهره فطردوه عن مطبخهم وقالوا ما نرجو من هذا الغراب وهو من الطيور التى تعاف ويتطير منها فأفضى ذلك الغراب أمره إلى حمامة قد كانت بينهما معرفة وفزع إلى رأيها وأخبرها ما كان فيه من نعيم المآكل والمشرب فقالت له الحمامة انطلق بى حتى تريني هذا المطبخ فانطلق حتى أتى سطح المطبخ فقالت الحمامة إنى أرى هذا البيت ليس فيه موضع مدخل فاحفر لى بمنقارك قدرما أدخل فإن منقارى

يضعف عن ذلك لحفر الغراب فى سقف البيت بمنقاره حتى دخلت فيه الحمامة وتوسطت فى البيت فأعجبهم حسن خلقها وصفاء لونها فجعل لها خازن المطبخ موضعاً تأوى إليه فلبثت فى ذلك البيت قريرة عين فناداها الغراب ما هكذا قدرت فيك فقالت الحمامة لو وفيت لك حل بى غدرك وإن القوم عرفوا وفائى وحسن جوارى وعرفوا غدرك وقلة وفائك ونكث عهدك فهذا مثلى ومثلك يا ابنة السائس إنى لو وفيت لك أردانى غدرك وقتلنى مكرك ، قالت ابنة السائس أيتها السيدة إن الذى سمعت منى كان لشدة الأنفة فأردت أن أنفى عن نفسى الذى أرد من إنكاحى خادمك فلانا ، قالت الهندية لا بد من ذلك ، فقالت ابنة السائس من اعتاد معالى الأمور لم تطب نفسه بأسافلها إلا أن استعذبت الموت فعمدت إلى سم كان معها فقذفته فى فيها فخرت ميتة ووفت الهندية لزوجها فأفلحا ، ومنهن شيرين امرأة أبرويز فان شيرويه ابن ابرويز لما قتل أباه وتوطد له الملك بعث إلى شيرين يدعوها إلى نفسه فامتنعت عليه وأبت أن تجيبه إلى ذلك فغصبها ضياعها وعقارها وذخائرها وأموالها وقذفها بكل فاحشة ورماها بكل معضلة فلما بلغها ذلك هان عليها ما أخذه من أموالها مع ما رماها به فبعثت إليه وقالت أيها الرجل إن لم يكن مما سألت بد فاقض لى ثلاث حوائج حتى أتابعك على ما تريد فقال وما هذه الحوائج قالت أحدها أن ترد على ضياعى وأموالى والثانية أن تصعد منبرك بمحضر مرازبتك وأساورتك وعظماء أهل مملكتك وتتبرأ مما قذفتنى به والثالثة إن أباك أودعنى وديعة فتأمر أن يفتح لى باب الناووس حتى أردها عليه فأجابها إلى ذلك وأمر بفتح باب الناووس لها ومعها خاتم وفيه سم ساعة فنشرته فى فيها وعانقت قبر زوجها فماتت .

﴿ ضـــده ﴾

قيل ، كان لكسرى ابرويز خال يقال له بسطام فخالف على كسرى وجمع جمعاً كثيراً وواقع ابرويز فلما أعيت ابرويز الحيلة فيه دعا بكردى أخى بهرام جور ويقال أن كردياً كان غلاماً له رباه وبلغ منه مبلغ الرجال وكان من خاصته والناصحين له فقال له قد ترى ما نزل بنا من هذا العدو بسطام وقد رأيت رأياً أن طابقتنى عليه رجوت الظفر ، قال كردى وما ذاك أيها الملك أخبرنى فما شيء يزيدك الله به عزاً ويزيد أعدائك به ذلا إلا بادرت إليه بنصح وصدق لعظيم حقك ووجوب طاعتك ، قال له كسرى قد عرفت حال

كردية اختك امرأة بسطام وجراءة قلبها وبسطام يأوى إليها كل ليلة إذا انصرف عن الحرب وأنا جاعل لها عهد الله وميثاقه وذمة أنبيائه إن هى أراحتنى من بسطام واحتالت لى فى قتله أن أتزوجها وأجعلها سيدة نسائى وأبلغ فى إكرامها والسمو بها أفضل ما بلغ ملك بامرأته ، قال كردى يا أيها الملك ما أشك فى قدرتها عليه فاكتب إليها بخطك بما رأيت لأوجه فى الكتاب إليها مع امرأتى أرجية فإن لها عقلا ورفقا وبصيرة فكتب كسرى بخطه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذا كتاب لكردية بنت بهرام جسناسب كتبه لها كسرى ابرويز بن هرمز أن لك عندى عهد الله وذمته وذمة أنبيائه ورسله إن أنت قتلت بسطام وارحتينى منه أتزوج بك وأجعلك سيدة نسائى وأبلغ من كرامتك ما لا يبلغ ملك من الملوك لأحد وأشهد الله على ذلك وكفى بالله شهيداً وكتب كسرى بخطه وختمه بخاتمه يوم كذا من شهر كذا فسارت أرجية حتى دخلت عسكر بسطام كهيئة الزائرة لكردية بالنظر إليها وكان بينهما قرابة فلما جلست وسكنت دفعت إليها كتاب كسرى وقالت لها يا ابنة عم أجيبى الملك إلى ما سألك واغنمى بذلك الرجوع إلى وطنك فرغبت لشدة شوقها إلى أهلها فأجابتها إلى ذلك وانصرفت ارجية إلى عسكر كسرى وعرفت زوجها ماكان بينها وبين كردية فمضى كردى إلى كسرى فاعلمه ثم أن بسطام دخل على كردية فأتته بعشاء فتناول منه ثم أتته بشراب فسقته وجعلت تحدثه وتظهر له المحبة حتى مضى ثلث الليل فنام بسطام فلما استثقل نوما قامت إليه كردية بسيفها فوضعته على ثندؤته ثم اتكأت فأخرجته من ظهره فمات وعمدت من ساعتها إلى دوابها فحملت حشمها وأثقالها على البغال وخرجت نحو عسكر كسرى وقد كانت وجهت مع أرجية إلى أخيها أن يجلس لها على الطريق فلما وافته سار معها حتى أدخلها على كسرى ففرح بذلك فرحا شديداً فلما أصبح أصحاب بسطام ورأوه قتيلا ولوا هاربين على وجوههم فانصرف كسرى إلى المدائن فاتخذ لكردية تاجاً مكللا بالدر وصنوف الجوهر وأعد لها وليمة عظيمة دعا فيها جنوده فطعموا وشربوا ثم دعا كردياً أخاها فزوجه إياها ومهرها وأعطاها خاتماً فصه من الكبريت الأحمر يضىء فى الليلة الظلماء كما يضىء السراج فلما دخل بها كسرى ونظر إلى جمالها وعقلها سر بها وأعطاها الأموال واقطعها الضياع وأكرم أخاها كرديا وولاه أرض فارس وبلغ بها رفعه إياها وتشريفه لها ما لم تبلغه امرأة قبلها ولا بعدها ثم أن كردية قالت لكسرى يا سيدى أخرج

بنا إلى الميدان لألعب بين يديك بالكرة والصولجان فخرج معها إلى الميدان وخرجت امرأته شيرين وخواص نسائه ودعا بخيل فأسرجت بخيل وركبت وركب هو وجعلت تلاعبه بالصوالج وتناولت السيف وركضت فى الميدان ولعبت بالسيف لعبا معجبا ثم أخذت الرمح فلعبت به فقالت شيرين أيها الملك ما يؤمنك من هذه الشيطانة ، قال هيهات إنها أعرف بحقنا وأشد حبا لنا من أن تخافها على أنفسنا ، فلما نزلت قال كسرى . انا فى كل ربع من أرباع مملكتنا قائد فى اثنى عشر ألف امرأة وقد جعلنك قائدة عليهن ، قالت . يا سيدى ما للنساء والفروسية وإنما علينا أن نتزين لك ونتطيب ونسرك بأنفسنا وأردت بما كان منى سرورك وتسلية همومك فأمر كسرى بحمل طعامه وشرابه إلى منزلها وبقى عندها أسبوعا لم يخرج إلى الناس ولم يأذن لأحد بالدخول عليه ثم خرج من عندها إلى منزل شيرين فأتاه صياد بسمكة عظيمة فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين . أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فإن أمرت بها لرجل من الوجوه قال إنما أمر لى بمثل ما أمر للصياد فقال كيف أصنع وقد أمرت له ، قالت : إذا أتاك فقل له أخبرنى عن السمكة أذكر هى أم انثى فإن قال انثى فقل لا تقع عينى عليك حتى تأتينى بالذكر وإن قال ذكر فقل مثل ذلك فلما غدا الصياد على الملك قال له أخبرنى عن السمكة أذكر هى أم أنثى ، قال بل . انثى . قال . فأتنى بذكرها فقال عمر الله الملك إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد . قال الملك . زه زه وأمر له بأربعة آلاف درهم وأمر أن يكتب فى ديوان الحكمة . أن الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغرم . قال وكان الموبذان إذا دخل على كسرى قال : عشت أيها الملك بسعادة الجد ورزقت على أعدائك الظفر وأعطيت الخير وجنبت طاعة النساء . فغاظ ذلك شيرين وكانت أجمل نساء عصرها وأتمهن عقلا فقالت لكسرى ، أيها الملك إن هذا الموبذان قد طعن فى السن ولست مستغنياً عن رأيه ومشورته وقد رأيت لحاجتك إليه أن أهب له مسكدانة جاريتى وقد عرفت عقلها وجمالها فإن رأيت أن تسأله قبولها فافعل . فكلم كسرى الموبذان فى ذلك . فهش للجارية لمعرفته بجمالها وفضلها فقال . قد قبلتها أيها الملك لإيثارها إياى بأفضل جواريها . فقالت شيرين لمسكدانة . إنى أريد أن تأتى هذا الشيخ فتبدى له محاسنك وتجيدى خدمته فإذا هش لمضاجعتك فامتنعى عليه حتى توكفيه وتركبيه وتعلميني الوقت الذى يتهيأ لك ذلك حتى لا يعود أن يزيد

فى تحية الملك — ووقيت طاعة النساء — فقالت مسكدانة ، افعل يا سيدتى ، ثم انطلقت إلى الشيخ فصارت عنده فى داره التى يحلها من قصر الملك فجعلت تخدمه وتبره وتظهر له الكرامة وهى مع ذلك تبرز له محاسنها وتكشف له عن صدرها ونحرها وتبدى له ساقيها وفخذيها فارتاح الموبذان وشرح صدره لمضاجعتها فجعلت تمتنع عليه فيزداد فى ذلك حرصا فلما ألح عليها قالت له . أيها القاضى ما أنا بمجيبتك إلى ما سألت حتى أركفك وأركبك فان أجبتنى إلى ذلك صرت طوع يدك فيما تريد وتدعو إليه من مسرتك فامتنع عليها أياما وبقيت تتزين له بزينتها وتكشف له عن محاسنها حتى عيل صبره فقال لها . افعلى ما أحببت فهيأت له برذعة صغيرة وإكافاً صغيراً وحزاما وثفراً وأقامته عريانا على أربع ووضعت على ظهره البرذعة والاكاف وجعلت الثفر تحت خصيتيه وهى قائمة وركبته وهى تقول خر خر وأرسلت إلى سيدتها شيرين لتعلمها بذلك فقالت شيرين للملك . اصعد بنا إلى ظهر بيت الموبذان لننظر من الروزنة ما يكون بينه وبين الجارية فصعدا ونظرا فاذا هى قد ركبته فوق الاكاف فناداه كسرى ويحك أى شيء هذا فرفع الموبذان رأسه ونظر إلى الروزنة ورأى الملك فقال هو ما كنت أقول لك فى اجتناب طاعة النساء فضحك كسرى وقال قبحك الله من شيخ وقبح مستشيرك بعد هذا ، حديث الزباء . ومنهن الزباء ، واسمها هند وملكت الشام بعد عمها الصنور وكان جذيمة الأبرش قتل عمها فبعث إليها جذيمة يخطبها فأظهرت البشر والسرور لرسوله وكتبت إليه بالقدوم عليها لتزوجه نفسها فاستشار نصحاءه فقالوا أيها الملك إن تزوجت بها جمعت ملك الشام وملك الجزيرة إلى ملكك فاستخلف ابن أخيه عمرو بن عدى وسار فى ألف فارس من خاصته فلما انتهى إلى مكان يسمى بقة وهو حد مملكتها ومملكته نزل فى ذلك المكان واستشار أصحابه أيضا فى المصير إليها والانصراف فزينوا له الالمام بها وقالوا إنك إن انصرفت من ههنا أنزله الناس منك على جبن ووهن فدنا منه مولى له يقال له قصير بن سعد فقال له أيها الملك لا تقبل مشورة هؤلاء وانصرف إلى مملكتك حتى يتبين لك أمرها فانها إمرأة موتورة ومن شأن النساء الغدر فلم يحفل بقوله ومضى حتى اقتحم مملكتها فقال قصير — ببقة حرم الأمر — ثم أرسلها مثلا ، فلما بلغ المرأة قدومه عليها أمرت جنودها فاستقبلت الملك فقال قصير أيها الملك إنى رأيت جنودها لم يترجلوا لك كما يترجل للملوك ولست آمن عليك فاركب

العصا وانج بنفسك والعصا كانت فرسا لجذيمة لا يشق غبارها — فلم يعبأ جذيمة بقوله وسار حتى دخل المدينة وأمرت هند الزباء بأصحابه أن ينزلوا فأنزلوا وأخذت منهم أسلحتهم ودرابهم وأذنت لجذيمة فدخل عليها وهى فى قصر لها ولم يكن معها فى قصرها إلا الجوارى فأومأت إليهن بأن يأخذنه واجتمعن عليه ليمكننه فامتنع عليهن فلم يزلن يضربنه بالاعمدة حتى أثخننه وكتفنه ثم دعت بنطع فأجلسته فيه وكشفت عن عورتها فنظر جذيمة فإذا لها شعرة وافية فقالت كيف ترى عروسك أشوار عروس أم ماترى قال أرى بظراً ناتئاً أو نبتاً فاشياً ولا أعلم ما وراء ذلك . قالت إما أنه ليس من عدم المواسى ولا لقلة الأواسى ولكنه شيمة من أناسى ثم أمرت به فقطعت عروقه فجعلت دماؤه تشخب فى النطع فقالت لا يحزنك ما ترى فإنه دم هراقه أهله فأرسلتها مثلا . واحتال قصير للعصا حتى وصل إليها وركبها ثم دفعها فجعلت تهوى به كأنها الريح وكان المكان الذى قصد فيه جذيمة مشرفا على الطريق فنظر جذيمة إليه وقد دفع الفرس فقال لله حزم على رأس العصا فلم تزل دماؤه تشخب حتى مات ، ثم أمرت بأصحابه فقتلوا بأجمعهم وكان عمرو بن عدى يركب كل يوم من الحيرة فيأتى طريق الشام يتجسس عن خبره وحاله فلم يبلغه أحد خبره فبينا هو ذات يوم فى ذلك إذ نظر إلى فرس مقبل على الطريق فلما دنا منه عرف الفرس وقال : يا خير ما جاءت به العصا فذهبت مثلا فلما دنا منه قصير قال له : ما وراءك قال قتل خالك وجنوده جميعاً فاطلب بثارك ، قال . وكيف لى بها وهى أمنع من عقاب الجو ، فذهبت مثلا ثم أن قصيرا أمر بأنف نفسه فجدع ثم ركب وسار نحو الزباء فاستأذن عليها فقيل لها أن مولى لجذيمة وقهرمانه وأكرم الناس عليه قد أتاك مجدوعا فأذنت له فدخل عليها قالت ، من صنع بك هذا ، قال أيتها الملكة هذا فعل عمرو بن عدى اتهمنى وتجنى على الذنوب وزعم أنى أشرت على خاله بالمصير إليك حتى فعل بى ما ترين ولم آمنه أن يقتلنى فخرجت هاربا إليك وقد أتيتك لأكون معك وفى خدمتك ولى جداء وعندى غناء ، قالت . نعم أقم فعندى لك ما تحب وولته نفقتها فخف لها ورأت منه الرشاقة فيما أسندته إليه فأقام عندها حولا ثم قال لها أيتها الملكة إن لى بالعراق مالا كثيراً فإذا أذنت لى فى الخروج لحمله فعلى فدفعت إليه مالا كثيراً وأمرته أن يشترى لها ثيابا من الخز والوشى ولآلىء وياقوتا ومسكا وعنبراً والنجوجا فانطلق حتى أتى عمرا فأخبره فأخذ منه ضعفى مالها وانصرف نحوها فاسترخصت ما جاء به وردته الثانية والثالثة فكان يأخذ فى كل مرة مثل ضعاف ما لها فيشترى جميع ما تريد فتسترخصه ، ووقع قصير بقلبها فاستخلفته ثم بعثه فى الدفعة الرابعة بمال عظيم وأمرته أن يشترى أثاثا ومتاعا

وفرشاً وآنية فانطلق إلى عمرو فقال قد قضيت ما على وبقى ما عليك ، فقال وما الذى تريد قال أخرج معى فى ألفى فارس من خدمك وكونوا فى أجواف الجواليق على كل بعير رجلان فانتخب عمرو ألفى فارس من أصحابه فخرج وخرجوا معه فى الجواليق كل رجل بسيف وكان يسير النهار فإذا أمسى الليل فتح الجواليق ليخرجو ويطعموا ويشربوا ويقضوا حوائجهم حتى إذا كان بينه وبين مدينتها مقدار ميل تقدم قصير حتى دخل عليها وقال . أيتها الملكة اصعدى على القصر لتنظرى ما أتيتك به . فصعدت فنظرت إلى ثقل الأحمال على الجمال فقالت :

ما للجمال مشيها وئيداً أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا بارداً شديدا

فأجابها قصير سراً وقال :

بل الرجال جثما قعودا

فقال : لما عليها من المتاع الثقيل النفيس فأمرت بالأحمال فأدخلت قصرها وكان وقت المساء فقالت . إذا كان غدا نظرنا إلى ما أتيتنا به ، فلما جن عليهم الليل فتحوا الجواليق وخرجوا فقتلوا جميع من فى القصر وكان لها سرب قد أعدته للفزع والهرب إن حل بها روع تخرج إلى الصحراء . وقد كان قصير عرف ذلك المكان ووصفه لعمرو فبادر عمرو إلى السرب فاستقبلته الزباء فولت هاربة نحو السرب فاستقبلها بالسيف فمصت فصها وكان مسموما وقالت بيدى لا بيدك يا عمرو ولا بيد العبد ، فقال عمرو ، يده ويدى سواء وفى كليهما شفاء وضربها بسيفه حتى قتلها وأقبل قصير حتى وقف عليها فجعل يدخل سيفه فى فرجها ويقول :

ولو رأونى وسيفى يوم أدخله فى جوف زباء ماتوا كلهم فرحا

وغنم عمرو وأصحابه من مدينتها أموالا جليلة وانصرفوا إلى الحيرة فكان الملك بعد خاله جذيمة، وعمرو هذا هو جد النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى ، ومنهن صاحبة الجعد ابن الحسين أبى صخر بن الجعد وكان جعد قد طعن فى السن وكان يكنى أبا الصموت وكانت

له وليدة سوداء فقالت، يا أبا الصموت زعم بنوك أن يقتلونى إذا أنت مت قال ، ولم ذاك قالت مالى إليهم ذنب غير حبك فاعتقنى فأعتقها فبقيت يسيرا ثم قالت يا أبا الصموت هذا عرابة من أهل عدن يخطبنى قال ماهذا ظنى بك قالت إنما أريد ماله لك فقال انى به فجاءت به فزوجها منه فولدت منه وقربته من مال جعد وكانت تأتى الجعد فتخضب رأسه ثم قطعته فقال الجعد :

أبلغ لديك بنى عمر مغلغـــلة	عوفا وعمراً فما قولى بمردود
بأن بيتى أمسى فوق داهيـــة	سوداء قد وعدتنى شر موعود
تعطى عرابة بالكفين مختضبا	من الخلوق وتمطينى على العود
أمسى عرابة ذا مال وذا ولد	من مال جعد وجعد غير محمود

ومنهن : امرأة مروان بن الحكم وكانت أم خالد بن يزيد بن معاوية وهى ابنة هشام ابن عتبة فأراد مروان الخروج إلى مصر فقال لخالد ، أعرنى سلاحك فأعاره فلما رجع قال له خالد رد على سلاحى فأبى عليه وكان مروان فحاشا فقال له يا ابن الربوخ الرطبة فجاء خالد إلى أمه فقال هذا ما صنعت بى سبنى على رؤوس الملا وقال لى كيت وكيت قالت ، اسكت فإنى أكفيك أمره فجاء مروان فرقد عندها فأمرت جواريها فطرحن عليه الشرادكين — يعنى الملاحف — ثم غططنه حتى قتلنه وخرجن يصحن : وا أمير المؤمنيناه فدعا عبد الله بامرأة أبيه ليقتلها فقالت إن الذى يبقى عليك من العار أعظم من قتل أبيك : قال وما ذاك قالت يقول الناس إن أباك قتلته امرأة فأمسك عنها .

﴿ محاسن مكر النساء ﴾

ذكر ا أن الحجاج بن يوسف أرق ذات ليلة فبعث إلى ابن القرية فقال إنى أرقت لحدثنى حديثا يقصر على طول ليلى وليكن من مكر النساء وفعالهن فقال أصلح الله الأمير ذكروا أن رجلا يقال له عمرو بن عامر من أهل البصرة كان معروفا بالنسك والسخاء وكانت له زوجة يقال لها جميلة وله صديق من النساك فاستودعه عمرو ألف دينار وقال . . إن حدثت بى حادثة ورأيت أهلى محتاجين فأعطهم هذا المـــال فعاش ما عاش ثم دعى فأجاب فمكثت جميلة بعده حينا ثم ساءت حالها وأمرت خادمها يوما ببيع خاتمها بغداء يوم أو عشاء ليلة فبينا الخادمة تعرض الخاتم على

البيع إذ لقيها الناسك صديق عمرو فقال، فلانة، قالت نعم قال ماحاجتك، فأخبرته بسوء الحال وما اضطرت إليه مولاتها من بيع خاتمها فهملت عيناه دموعا ثم قال إن لعمرو قبلى ألف دينار فاعلمى بذلك صاحبتك فأقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة وهى تقول رزق حلال عاجـــل من كد مولاى الكريم الفاضل فلما سمعت مولاتها ذلك سألتها عن القصة فأخبرتها فخرت ساجدة وحمدت ربها وبعثت بالجارية إلى الناسك فأقبل الناسك ومعه المال فلما دخل الدار كره أن يدفع المال إلى أحد سواها فخرجت فلما نظر الى جمالها وكمالها أخذت مجامع قلبه وفارقه النهى وذهب عنه الحياء وأنشأ يقول :

قد سلبت الجسم والقلب معاً ... وبريت اللحظ مما تلحظين

فارددى قلب عميد واقبلى ... صلة الضعفين مما ترتجين

فأطرقت جميلة لقوله طويلا ثم قالت ويحك ألست المعروف بالنسك المنسوب إلى الورع قال بلى ولكن نور وجهك سل جسمى فتداركينى بكلمة تقيمين بها أودى فهذا مقام اللائذ بك قالت أيها المرائى المخادع أخرج عنى مذموما مدحورا فخرج عنها وقد هام قلبه واضحت جميلة تعمل الحيلة فى استخراج حقها فأتت الملك ترفع إليه ظلامتها فلم تصل إليه فأتت الحاجب فشكت إليه فاعجب بها إعجابا شديدا وقال . إن لوجهك صورة أرفعها عن هذا ولا يحمل بمثلك الخصومة فهل لك فى ضعف مالك فى ستر ورفق فقالت سوأة لامرأة حرة تميل إلى ريبة فانصرفت إلى صاحب الشرطة فأنهت ظلامتها إليه فاعجب بها وقال ان حجتك على الناسك لا تقبل إلا بشاهدين عدلين وأنا مشتر خصومتك إن أنت نزلت عند مسرتى فانصرفت عنه إلى القاضى فشكت إليه فأخذت بقلبه وكاد القاضى يجن إعجابا بها وقال ياقرة العين إنه لا يزهد فى أمثالك فهل لك فى مواصلتى وغناء الدهر فانصرفت وباتت تحتال فى استخراج حقها فبعثت الجارية إلى نجار فعمل لها تابوتا بثلاثة أبواب كل منهم مفرد ثم بعثت الجارية إلى الحاجب أن يأتيها إذا أصبح وإلى صاحب الشرطة أن يأتيها ضحوة وإلى القاضى ان يأتيها إذا تعالى النهار وإلى الناسك أن يأتيها إذا انتصف النهار فأتاها الحاجب فاقبلت عليه تحدثه فما فرغت من حديثها حتى قالت لها الجارية صاحب الشرطة بالباب فقالت للحاجب ليس فى البيت ملجأ إلا هـذا التابوت فادخل أى بيت شئت منه فدخل الحاجب بيتا من

التابوت فأقفلت عليه ودخل صاحب الشرطة فأقبلت جميلة عليه تضاحكه وتلاطفه فما كان بأسرع من أن قالت الجارية القاضى بالباب فقال صاحب الشرطة اين اختبىء فقالت لا ملجأ إلا هذا التابوت وفيه بيتان فأدخل أيهما شئت فدخل فاقفلت عليه فلما دخل القاضى قالت مرحباً وأهلا وأقبلت عليه بالترحيب والتلطيف فبينما هى كذلك إذ قالت الجارية الناسك بالباب فقال القاضى ماذا ترين فى رده فقالت مالى إلى رده سبيل قال فكيف الحيلة قالت انى مدخلتك هذا التابوت ومخاصمته فاشهد لى بما تسمع واحكم بينى وبينه بالحق قال نعم فدخل البيت الثالث فاقفلت عليه ودخل الناسك فقالت له مرحبا الزائر الجانى كيف بدالك فى زيارتنا قال شوقا إلى رؤيتك وحنينا إلى قربك قالت فالمال ما تقول فيه أشهد الله على نفسك برده أتبع رأيك قال اللهم إنى أشهدك أن لجميلة عندى ألف دينار وديعة زوجها فلما سمعت ذلك هتفت بجاريتها وخرجت مبادرة نحو باب الملك فانهت ظلامتها اليه فأرسل الملك إلى الحاجب وصاحب الشرطة والقاضى فلم يقدر على واحد منهم فقعد لها وسألها البينة فقالت يشهد لى تابوت عندى فضحك الملك وقال يحتمل ذلك لجمالك فبعث بالعجلة فوضع التابوت فيها وحمل إلى بين يدى الملك فقامت وضربت بيدها إلى التابوت وقالت أعطى الله عهداً لتنطقن بالحق وتشهدن بما سمعت أو لأضرمنك نارا فاذا ثلاثة أصوات من جوف التابوت تشهد على إقرار الناسك لجميلة بألف دينار فكبر ذلك على الملك فقالت جميلة لم أجد فى المملكة قوما أوفى ولا أقوم بالحق من هؤلاء الثلاثة فاشهدتهم على غريمى ثم فتحت التابوت وأخرجت الثلاثة نفر وسألها الملك عن قصتها فاخبرته وأخذت حقها من الناسك فقال الحجاج : لله درها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها .

قال وكان يعقوب بن يحيى المدائنى ويحيى كاتب سهل بن رستم يتحدثان إلى مهدية جارية سليمان بن الساحر فقال يعقوب وما ليحيى أنا أشتهى أن أرى بطن مهدية فقال يحيى ما تجعل لى إن أنا احتلت لك بحيلة حتى تراه قال ماشئت قال برذونك هذا قال ، نعم ، قال ، فتوثق منه وأتى مهدية فقال لها كان برذون موافق فاره فنفق وأنت لو شئت لحملتنى على برذون فاره قالت ، أنا أفعل وأشتريه لك بما بلغ الثمن ، قال ، أنت قادرة عليه بغير الثمن قالت كيف ذلك ، فأخبرها بالقصة فقالت ، قد حملك الله على البرذون وأربحك النظر إلى بطن

حسن فاذا كان غدا فتعال أنت ويعقوب فاجلسا فإن سليمان يعبث بوصيفته فلانة كثيرا فاذا فعل ذلك وجئت أنا فقل أنت يا مهدية لو علمت ما صنع فلان لقتلته ، قال نعم ، فلما جاءت مهدية قال لها إن أمر سليمان مع وصيفته أشنع مما تقدرينه ، فوثبت م تشيطه غضباً وقالت ، مثلك يا ابن الساحر يفعل هذا مرة بعد أخرى وشقت جوبها إلى ان جاوزت أسفل البطن وهى قائمة فنظر إلى بطنها فتأملناها ساعة وهى تشتم ابن الساحر ثم قام إليها يترضاها ويسكنها ويعقوب يقول وابرذوناه فأخذه منه يحيى ، وعن المساور قال كان عندنا بالاهواز رجـــل من أهل وكانت له أرض بالبصرة وكان فى السنة يأتيها مرة أو مرتين فتزوج بها امرأة ليس لها إلا عم فى الدار وكان يكثر الانحدار بعد ذلك إلى البصرة فأنكرت الأهوازية حاله فدست من يعرف خبره ثم احتالت وبعثت من أورد خطا لعم المرأة البصرية وسألت من كتب كتابا من عم البصرية إلى زوجها على خطه بأن ابنة أخيه توفيت ويسأله القدوم لاخذ ماخلفت ودست الكتاب مع إنسان شبيه بالملاح فلما أتى بالكتاب خرج إليه فدفع الكتاب ولم يشك أن امرأته البصرية ماتت فقال لامرأته اجعلى لى سفرة قالت ولم قال أريد الخروج إلى البصرة قالت وكم هذه البصرة قد رابنى أمرك وما اشك أن هنالك امرأة فأنكر ذلك فقالت إن كنت صادقا فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيرى فقال فى نفسه تلك قد ماتت وليس على أن أحلف بطلاقها فأرضى هذه فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الأهوازية فقالت الأهوازية يا جارية هاتى السفرة فقد أغناه الله عن الخروج قال وما ذلك قالت قد طلقت الفاسقة وقصت عليه القصة فعرف مكرها وأقام

﴿ مساوىء مكر النساء ﴾

وذكروا ، أن لقمان بن عاد صاحب لبد خرج يجول فى قبائل العرب فنزل بحى من العماليق فبينا هو كذلك إذ ظعن القوم فظن منهم فسمع امرأة تقول لزوجها فلان لو حملت سفطى هذا حتى تجاوز به الثنية فإن فيه من متاع النساء مالابد لهن منه ولعل البعير يقع فيتكسر وذلك من لقمان بمنظر ومسمع فقال أفعل فاحتمله على عاتقه فلما انحدر وجد بللا فى صدره فشمه فإذا هو ريح بول قد جاء من السفط الذى على رأسه ففتح السفط فإذا هو بغلام قد خرج منه يعدو ، فلما نظر لقمان قال يا إحدى بنات طبق — وبنات الطبق أن تأتى الحية السلحفاة فتلتوى عليها فتبيض

بيضة واحدة فتخرج منها حية شبرا أو نحوه لا تضرب شيئاً إلا أهلكته — فتبعه لقمان حتى لحقه فجاء به يحمله واجتمع الناس إليه وقالوا يا لقمان أحكم فيما ترى فقال ردوا الغلام فى السفط يكون له مثوى حتى يعلم أن العقاب فيما أتى وتحمله المرأة بفعلها حملوها ما حملت زوجها ثم شدوه عليها فإن ذلك جزاء مثلها فعمدوا إلى الغلام فشدوه فى السفط ثم شدوه فى عنق المرأة ثم تركوهما حتى ماتا ثم فارقهم لقمان فأتى قبيلة أخرى فنزل بهم فبينا هو كذلك إذ بصر بامرأة قد قامت عن بنات لها فسألت إحداهن أين تذهبين قالت إلى الخلاء ثم خرجت إلى بيوت الحى فعارضها رجل فمضيا جميعاً ولقمان ينظر فنزع الرجل عليها وقضى حاجته منها فقالت المرأة هل لك أن أتماوت على أهلى فإنما هو ثلاثة أيام أكون فى رجمى ثم تجىء فتستخرجنى فنتمتع فقال الرجل افعلى وكان اسمه الخلى وزوج المرأة اسمه الشجى فقال لقمان — ويل للشجى من الخلى فذهبت مثلا فلم تلبث المرأة إلا أياما حتى تماوتت على أهلها وكان الميت منهم إذا مات تجعل فوقه الحجارة ولم تكن إذ ذاك قبور فلما كان اليوم الثالث جاءها خليلها فأخرجها وانطلق بها إلى منزله وتحول الحى من ذلك المكان وخافت المرأة أن تعرف فجزت شعرها وتركت لنفسها جمة فبينا هم كذلك إذ خرج بنات المرأة فإذا هن بامرأة جالسة ذات جمة فقالت الصغرى أمى والله . قالت الوسطى صدقت والله ، قالت المرأة كذبتما ما أنا لكما بأم ، قالت الكبرى صدقت والله لقد دفنا أمنا غير ذات جمة ماكان لأمنا إلا لمة ، قالت الصغرى هنك أنكرت أعلاها أما تعرفين أخراها فتعلقت بها فقالت الأم صغراهن مراهن فذهبت مثلا واجتمع الناس وجاء زوج المرأة فارتفعوا إلى لقمان فقالوا احكم بيننا فقال لقمان :

عند جهينة الخـــبر اليقين

فذهبت مثلا وكان ملقب بجهينة فقال لقمان للمرأة أخبرك أم تخبريننى ، قالت بل قل قال إنك قلت لهذا إنى متماوتة على أهلى فإذا دفنونى فى رجمى جئت فاستخرجتنى وأتنكر لهم فلا يعرفوننى فنتنعم ما بقينا فاعترفت المرأة فقيل للقمان احكم بيننا قال ارجموها كما رجمت نفسها فحفر لها حفرة وألقوها فيها ورجموها وكانت أول مرجومة فى العرب ثم أن زوجها تعلق بالخلى فقال يا لقمان هذا فرق بينى وبين أهلى فقال لقمان لكل ذكر أنثى ولكل أول آخر فرق بينك وبين انثاك وتفرق بين ذكره وبين انثييه فقطع ذكره فمات .

﴿ محاسن الغيرة ﴾

روى أنه إذا أغير الرجل فى أهله أو فى بعض مناكحه أو مملوكته فلم يغر بعث الله جل اسمه إليه طيراً يقال له القرقفنة حتى يسقط على عارضة بابه ثم يمهله أربعين صباحاً يهتف به إن الله غيور يحب كل غيور فإن هو تغير وأنكر ذلك وإلا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه فينزع الله منه روح الإيمان وتسميه الملائكة الديوث وقال النبى صلى الله عليه وسلم باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء فإن كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذى لا دواء له وروى أن امرأة ذات عقل ورأى حملت من فاجر فقيل لها فى ذلك فقالت قرب الوساد وطول السواد . تريد قرب مضجعه منها وطول مسارته إياها ، وقال ﷺ النساء حبائل الشيطان وقال سعيد بن مسلم لأن يرى حرمتى ألف رجل على حال تكشف وهى لا تراهم أحب إلى من أن ترى حرمتى رجلا مواجهة ، وقيل لعقيل بن علفة ألا تزوج بناتك فقال أجيعهن فلا يأشرن وأعريهن فلا يظهرن فوافق إحدى كلمتيه قول النبى ﷺ الصوم وجاء السيئة والأخرى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه . استعينوا عليهن بالعرى ، وغاية أموال الرجال وكسبهم وهمهم وما يملكون إنما هو مصروف الى النساء فلو لم يكن الا ما يعد لهن من الطيب والحلى والكساء والفرش والآنية كان فى ذلك ما كفى ولو لم يكن إلا الاهتمام بالحفظ والحراسة وخوف العار من خياناتهن والجناية عليهن لكان فى ذلك المؤونة العظيمة والمشقة الشديدة غير إن أولى الأشياء بالرجال حفظهن وحراستهن فليس شىء لهن أصلح من مباعدتهن عن الرجال وقمعهن بالعرى والجوع ومن حق الملوك أن لا يرفع أحد من خاصتها وبطانتها رأسه إلى حرمة لها صغرت أم كبرت فكم من فيل وطىء هامة عظيم وبطنه حتى بدت أمعاؤه وكم من شريف وعزيز قوم قد مزقته السباع ونهشته وكم من جارية كريمة على قومها عزيزة فى أهلها قد أكلها حيتان البحر وطير الماء وكم من جمجمة كانت تصان وتعل بالمسك والبان قد ألقيت بالعراء وغيبت جثتها فى الثرى بسبب الحرم والخدم والغلمان ولم يأت الشيطان أحداً قط من باب حتى يراه بحيث من يهوى مستقيم اللحم والأعضاء هو أبلغ من مكيدته وأحرى أن يرى فيه أمنية من هذا الباب إذ كان من ألطف مكائده وأدق وساوسه وأجل تزاينه ، وقيل لابنة الخس لم زنيت بعبدك ولم تزن بحر قالت طول السواد وقرب الوساد . . وقيل لو أن أقبح الناس وجها

وأ نتنهم رائحة وأظهرهم فقرا وأسقطهم نفساً وأوضعهم حسباً قال لامرأة تمكن من كلامها ومكنته من سمعها : والله يا مولاتى لقد أسهرت ليلى وأرقت عينى وشغلتنى عن مهم أمرى فما أعقل أهلا ولا ولداً ولو كانت أبرع الناس جمالا وأكملهم كمالا وأملحهم ملاحة وإن كانت عينه تدع بذلك ثم كانت تكون مثل أم الدرداء أو معاذة العدوية أو رابعة القيسية لمالت إليه وأحبته ومنها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أضربوهن بالعرى فإن النساء يخرجن إلى الأعراس ويقمن فى المناحات ويظهرن فى الأعياد ومتى كثر خروجهن لم يعد بد من أن يرين من هو من شكلهن ولوكان بعلهن أتم حسناً وأحسن وجها والذى رأت انقص حسنا ولـكان ما لاتملـكه أظرف عندها مما تملـكه ولـكان ما لم تملـكه أو تستـكثر منه أشد لها اشتغالا واجتذابا . قال الشاعر :

وللعين ملهى بالنساء ولم يقد هوى النفس شىء كاقتياد الطرائف

وكانت الأكاسرة إذا امتحنت الخاصة من أصحابها وخف الواحد عنهم على قلب الملك وكان الرجل عالما بالحـكمة موضعا للامانة فى الدماء والفروج والأموال على ظاهره فيأمره أن يتحول إلى منزله وأن تفرغ إليه حجرة وأن لا يتحول إليه امرأة ولا جارية ولا حرمة ويقول له أريد بك الانس فى ليلى ونهارى ومتى كان معك بعض حرمك قطعك عنى فاجعل منصرفك إلى منزلك فى خمس ليال فإذا تحول الرجل أنس به وخلا معه وكان آخر من ينصرف من عنده فيتركه على هذه الحالة أشهراً . امتحن ابرويز رجلا من خاصته بهذه المحنة ثم دس إليه جارية من بعض جواريه ووجه معها إليه بالطاف وهدايا وأمرها أن لا تقعد عنده فى أول مرة فأتته بالطاف الملك وقامت بين يديه ولم تلبث أن انصرفت حتى إذا كانت المرة الثانية أمرها أن تقعد هنيهة وأن تبدى عن محاسنها حتى يتأملها ففعلت ولاحظها الرجل وتأملها وجعل الرجل يحد النظر إليها ويسر بمحادثتها ومن شأن النفس أن تطلب بعد ذلك الغرض من هذه المطايبة فلما أبدى ما عنده قالت أخاف أن يعثر علينا ولـكن دعنى حتى أدبر فى هذا ما يتم به الامر بيننا ثم انصرفت فأخبرت الملك بذلك وبكل شىء جرى بينهما فلما كانت المرة الثالثة أمرها أن تطيل القعود عنده وأن تحدثه وأن أرادها على الزيادة فى المحادثة أجابته إليه ففعلت ووجه إليه أخرى من خواص جواريه وثقاتهن بألطافه وهداياه فلما جاءت قال لها ما فعلت فلانة قالت اعتلت فاربد لون الرجل ثم لم تطل القعود عنده كما فعلت الأولى ثم عاودته فقعدت أكثر من المقدار الأول وأبدت بعض محاسنها حتى تأملها وعاودته فى المرة الثالثة وأطالت القعود والمضاحكة

المهازلة فدعاها إلى ما فى تركيب النفس من الشهوة فقالت أنا من الملك على خطأ يسيرة ومعه فى عمار واحدة ولكن الملك يمضى بعد ثلاث إلى بستانه الذى بموضع كذا فيقيم هناك فإن أرادك على الذهاب معه فأظهر أنك عليل وتمارض فإن خيرك بين الانصراف إلى نسائك أو المقام ههنا فاختر المقام واخبره أنك لا تقدر على الحركة فإن أجابك إلى ذلك جئت من أول الليل فأكون معك إلى آخره فسكن الرقيع إلى قولها وانصرفت الجارية فأخبرت الملك بكل مادار بينهما فلما كان فى الوقت الذى وعدته أن يخرج الملك فيه دعاه الملك فقال للرسول أخبره أنى عليل فلما جاء الرسول وأخبره تبسم وقال هذا أول الشر فوجه إليه محفة يحمل فيها فأتاه وهو معصب فلما بصر به قال والمحفة الشر الثانى فبين العصابة فقال والعصابة الشر الثالث فلما دنا من الملك سجد فقال له متى حدثت بك هذه العلة قال هذه الليلة قال فأى الأمرين أحب إليك الانصراف إلى نسائك لتمريضك أم المقام ههنا لوقت رجوعى قال المقام ههنا أيها الملك أوفق لقلة الحركة فتبسم أبرويز وقال حركتك ههنا إن تركت أكثر من حركتك فى منزلك ثم أمر له بعصا الزناة التى كان يرسم بها من زنى فأيقن الرجل بالشر وأمر أن يكتب ماكان من أمره حرفا حرفا فيقرأ على الناس إذا حضروا وأن ينفى إلى أقصى مملكته وتجعل العصا فى رأس رمح يكون معه حيث كان ليحذر من يعرفه منه فلما خرج الرجل من المدائن متوجها به نحو فارس أخذ مدية كانت مع بعض الموكلين به فجب بها ذكره وقال من أطاع عضواً صغيراً من أعضائه أفسد عليه جميع أعضائه فمات من ساعته ، وفيما يذكر عن أنوشروان أنه اتهم رجلا من خاصته فى بعض حرمه فلم يدر كيف يقتله لاهو وجد أمراً ظاهراً يحكم بمثله الحاكم فيسفك به دمه ولا قدر على كشف ذنبه لما فى ذلك من الهوان على الملك والمملكة ولا وجد عذرا لنفسه فى قتله غيلة إذ لم يكن فى شرائع دينهم ووراثة سلفهم فدعا الرجل بعد جنايته بسنة فى خلوة فقال قد حزبنى أمر من أسرار ملك الروم وبى حاجة إلى علمها وما أجدنى أسكن إلى أحد سكونى إليك إذ حللت من قلبى المحل الذى أنت به وقد رأيت أن تحمل لى مالا إلى هناك للتجارة وتدخل بلاد الروم فتقيم بها فإذا بعت مامعك حملت مما فى بلادهم من تجاراتهم وأقبلت إلى وفى خلال ذلك تصغى إلى أخبارهم وتطلع إلى ما بنا الحاجة إلى معرفته من أمورهم وأسرارهم فقال افعل أيها الملك وأرجو أن أبلغ فى ذلك محبة الملك ورضاه فأمر له بمال وتجهز الرجل وخرج بتجارته فأقام فى بلاد الروم حتى باع واشترى وفهم من كلامهم ولغتهم ما عرف به مخاطباتهم وبعض أسرار ملكهم وانصرف إلى أنوشروان بذلك

فأراه الإيثار به وزاد فى بره ورده إلى بلادهم وأمره بالمقام والتربص بتجارته ففعل حتى عرف واستفاض ذكره فلم تزل تلك حاله ست سنين حتى إذا كانت السنة السابعة أمر الملك أن تصور صورة الرجل فى جام من جاماته التى يشرب فيها وتجعل صورته بازاء صورة أنوشروان ويجعل مخاطباً لأنوشروان ومشيرا عليه وإليه ويدنى رأسه من رأس الملك فى تلك الصورة كأنه يساره ثم وهب ذلك الجام لبعض خدمه وقال إن الملوك يرغبون فى مثل هذا الجام فإذا أردت بيعه فادفعه إلى فلان إذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته وقل له يبيعه من الملك نفسه فإنه ينفعك فإن لم يمكنه بيعه من الملك باعه من وزيره أو بعض خاصته فجاء غلام الملك بالجام وقد وضع الرجل رجله فى الركاب فسأله أن يبيع جامه من الملك وأن يتخذ عنده بذلك يداً وكان الملك يعز ذلك الغلام وكان من خاصة غلمانه وصاحب شرابه فاجابه إلى ذلك وأمر بدفع الجام إلى صاحب خزانته وقال احفظه فإذا صرت إلى باب الملك فليكن مما أعرضه عليه فلما صار إلى باب الملك دفع صاحب الخزانة إليه الجام فعرضه على الملك فيما عرض عليه فلما وقع الجام فى يد الملك نظر إليه ونظر إلى صورة انوشروان فيه وإلى صورة الرجل وتركيبه عضوا عضواً وجارحه جارحة فقال الرجل أخبرنى هل يصور مع صورة الملك رجل خسيس قال لا قال فهل تصور فى آنية الملك صورة لا أصل لها ولا علة قال لا قال فهل فى دار الملك اثنان يتشابهان فى صورة واحدة حتى يكون هذا كانه ذاك فى الصورة وكلاهما نديما الملك قال لا أعرفه قال له قم قائما فقام فوجد صورته فى الجام فوجدهما بحكاية واحدة فضحك ولم يجسر الرجل أن يسأله عن سبب ضحكه إجلالا له وإعظاما فقال ملك الروم الشاة أعقل من الإنسان إذا كانت تخفى مديتها وتدفنها وإنما أهديت إلينا مديتك بيدك فقال للرجل تغديت قال لا قال قربوا له طعاما قال أيها الملك أنا عبد والعبد لا يأكل بحضرة الملك قال الملك أنت عبد مادمت عند ملك الروم مطلعاً على أموره متتبعاً لأسراره ملك إذا قدمت بلاد فارس ونديم ملكها أطعموه فأطعم وسقى الخمر حتى إذا ثمل قال من سير ملوكنا أن لا نقتل الجاسوس إلا فى أعلا موضع نقدر عليه ولا نقتله جائعا ولا عطشانا فامر به فأصعد إلى سطح كان يشرف منه على كل من كان فى المدينة إذا صعد فضربت عنقه هناك وألقيت جثته من ذلك السطح ونصب رأسه للناس فلما بلغ ذلك كسرى أمر صاحب الجرس أن يضرب بأجراس الذهب ويمر على دور نساء الملك وجواريه ويقول كل نفس

ذائقة الموت كل أحد إذا وجب عليه القتل ففى الأرض يقتل إلا من تعرض لحرمة الملك فإنه يقتل فى السماء فلم يدر أحد من أهل المملكة ما أراد به حتى مات .

﴿ ومثله من أخبار العرب ﴾ ذكروا أنه كان لطسم وجديس ملك يقال له عمليق ظلوم غشوم وكانت لا تزف جارية إلى زوجها إلا بدأوه بها فافترعها وردها إلى بعلها ثم أن رجلا من جديس تزوج غفيرة بنت غفار عظيم جديس ورئيسها فلما أرادوا أن يهدوها إليه بدأوا بها عمليق فادخلوها عليه ومعها القيان يتغنين ويضربن بالدفوف ويقلن :

إبدى بعمليق ومعــه فاركبى ... وبادرى الصبح بأمر معجب
فسوف تلقين الذى لم تطلبى ... ولم يكن من دونه من مذهب

فجعلت تقول وهى تزف :

ما أحــد أذل من جديس ... أهكذا يفعــل بالعروس
يرضى بهذا يا لقومى حـــر ... من بعد ما أهدى وسيق المهر
لأن يلاقى المرء موت نفسه ... خير له من فعل ذا بعرسه

فلما دخلت عليه افترعها ثم خلى سبيلها فخرجت ووقفت على أخيها الأسود بن غفار وهو قاعد فى نادى قومه وقد رفعت ثوبها عن عورتها وأنشأت تقول :

أيصلح ما يؤتى إلى فتياتكم ... وأنتم رجال كثرة عدد الرمل
وترضون هذا يا لقومى لأختكم ... عشية زفت أفى النساء إلى البعل
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء فى المنازل والحجل
ودونكم طيب النساء وإنما ... خلقتم جميعاً للتزين والكحل
فلو أننا كنا رجالا وكنتم ... نساء لكنا لا نقيم على ذحل
فقبحاً لبعل ليس فيه حمية ... ويختال يمشى بيننا مشية الفحل
فموتوا كراماً أو أصيبوا عدوكم ... بداهية تورى ضراماً من الجزل
وإلا فخلوا داركم أو ترحلوا ... إلى بلد قفر خلاء من الأهل

ولا تخرجوا للحرب ياقوم إنها   تقوم بأقوام شداد على رجل
فيهلك فيها كل وغد مواكل   ويسلم فيها ذو الطعان وذو القتل

فلما سمعت جديس شعرها أنفت أنفا شديداً وأخذتهم الحمية فتآمروا بينهم وعزموا على اغتيال الملك وجنوده فقالوا إن نحن بادئناهم بالحرب لم نقو عليهم لكثرة جندهم وانصارهم فاتفقوا على ذلك ثم أن الأسود أتى الملك فقال . إنى أحب أن تجعل غداءك عندى أنت وجنودك ، فقال عمليق إن عدد القوم كثير وأحسب أن البيوت لا تسعهم فقال الأسود . فنخرج لهم الطعام إلى بطن الوادى فقال لقومه إذا اشتغل القوم بالأكل فسلوا سيوفكم واعملوا على أن تحملوا حملة رجل واحد واقتلوهم عن آخرهم وهيأ الأسود ما احتاج إليه من الطعام وجاء الملك فلما أكب القوم على الأكل بادرت جديس إلى سيوفهم ثم حملت على الملك وعلى جنوده والأسود يرتجز ويقول :

يا صبحة يا صبحة العروس   حتى تمشت بـــدم جميس
يا طسم ما لقيت من جديس   هلكت يا طسم فهيسى هيسى

فقتلوه وجنوده جميعا ، ومثله الفطيون ملك تهامة والحجاز فإنه سلك مسلك عمليق فى ملك طسم وجديس فى أمر النساء فأمر أن لا تزف من اليهود فى مملكته امرأة إلا وبدأوه بها فلبث على ذلك عدة أحوال حتى زوجت امرأة من اليهود على ابن عم لها وكانت ذات جمال رائع وكانت أخت مالك بن عجلان من الرضاعة فلما أرادوا أن يهدوها إلى زوجها خرجت إلى نادى الأوس والخزرج رافعة ثوبها إلى سرتها فقام اليها مالك بن العجلان فقال ويحك وما دهاك فقالت وما يكون من الداهية أعظم من أن ينطلق بى إلى غير بعلى بعد ساعة فأنف من ذلك أنفا شديداً فدعا ببزة امرأة فلبسها فلما انطلقوا بالمرأة الى الفطيون صار كواحدة من نسائها اللواتى ينطلقن بها متشبها بامرأة وقد أعد سكينا فى خفه فلما دخلت المرأة على الفطيون مال مالك إلى خزانة فى ذلك البيت فدخلها فلما خرج النساء ودخلت المرأة قام اليها ليفترعها فخرج اليه مالك بالسكين فوجأه فقتله ثم قال لليهود دونكم جنوده فاقتلوهم فاجتمعت عليهم فقتلوهم عن آخرهم .

﴿ومنه أخبار وأمثال﴾ ذكروا أن أول من قال العجب كل العجب بين جمادى ورجب عاصم بن المقشعر الضبى وذلك أن الخنيفس بن خشرم كان أغير أهل زمانه وأشجعهم وكان

لعاصم أخ يقال له عبيدة عزيز فى قومه فهوى امرأة كانت تأتى الخنيفس فبلغ الخنيفس ذلك فتواعد عبيدة وركب الخنيفس فرسه وأخذ رمحه وانطلق يتربص عبيدة حتى وقف على ممره فاقبل عبيدة وقد قضى من المرأة وطراً وهو يقول :

ألا أن الخنيفس فاعلموه كما سماه والده لعين
بهيم اللون محتقر ضئيل لئيمات خلائقه ضنين
أيوعدنى الخنيفس من بعيد ولما يلق مأبضه الوتين
لهوت بجارتيه وحاد عنى ويزعم أنه أنف شفون

فعارضه الخنيفس وهو يقول :

أيا ابن المقشعر لقيت ليثا له فى جوف أيكته عرين
تقول له صددت حذار حين وأنك نشو أبطال مبين
وأنك قد لهوت بجارتينا فهاك عبيد لاقاك القرين
ستعلم أينا أحمى ذمـــاراً إذا قصرت شمالك واليمين
لهوت بها لقد ابدلت قبرا وباكية عليك لها رنين

فقال عبيدة أذكرك الله وحرمة خشرم فقال والله لا قتلنك فقتله فلما بلغ أخاه عاصما خرج اليه ولبس أطماراً وركب فرسه وكان فى آخر يوم من جمادى فأقبل يبادر دخول رجب لأنهم كانوا لا يقتلون فى رجب أحدا فانطلق حتى وقف بباب خنيفس ليلا وقال أجب المرهوق قال وماذاك قال العجب كل العجب بين جمادى ورجب وإنى رجل من ضبة غصب أخ لى امرأة فخرج يستنقذها فقتل وقد عجزت عن قاتله فخرج الخنيفس مغضبا وأخذ رمحه وركب وانطلق معه فلما نحى به عن قومه دنا منه فتقنعه بالسيف فأبان رأسه ، و قال إن أول من قال سبق السيف العذل ضمضم بن عمرو اللخمى كان يهوى امرأة فطلبها بكل حيلة فأبت عليه وطلبها عزيز بن عبيد بن ضمضمة فأتته وتأبت على ضمضم وكان ضمضم من أشد قومه بأسا فاغتاظ لذلك وانطلق ليلة وهو متقلد سيفه حتى صار بمكان يراهما إذا اجتمعا ولا يريانه فلما نام الناس وطال هدو ضمضم إذا العزيز قد أقبل على فرسه وهو يقول :

أمام توليـــنى وتأبى بنفسها على ضمضم تعساً ورغماً لضمضم

وضمضم يسمع فنزل وربط فرسه ونزل إلى ناحية خبائها فصدح صدوح الهام وكان آية ما بينهما فخرجت إليه فعانقها وضمضم ينظر ثم واقعها فلما رآهما مشى إليهما بالسيف وهو يقول :

ستعلم أنى لست أعشق مبغضاً فكان بنا عنها وعنك عزاء

وقتله فعلم القوم بضمضم فأخذوه فلما أصبح أبرز إلى النادى ليقتل فجعلوا يلومونه على قتله ابن عمه فقال سبق السيف العذل . ويقال إن أول من قال خير قليل وفضحت نفسى فائرة امرأة مرة الأسدى وكانت من أجمل النساء فى زمانها وكان زوجها غاب عنها أعواما فهويت عبداً له حبشياً يرعى إبلها فأمرته أن يحضر مضجعها وكان زوجها منصرفا قد نزل تلك الليلة منها على مسيرة يوم فبينما هو يطعم ومعه أصحابه إذ نعق غراب فأخبره أن امرأته لم تعهر قط ولا تعهر إلا تلك الليلة فركب فرسه ومر مسرعاً وهو يرجو أن هو منعها تلك الليلة أمنها فيما بقى فأتى إليها حين قام العبد عنها وندمت وهى تقول خير قليل وفضحت نفسى فسمعها زوجها وهو يرعد لما به من الغيظ فقالت له ما يرعدك فقال يعلمها أنه قد علم خير قليل وفضحت نفسى فشهقت شهقة خرت ميتة فقتل زوجها العبد وجعل يقول :

لعمرك ما تعتادنى منك لوعة ولا أنا من وجد بذكراك أسهد

قيل وكانت هند بنت عتبة تحت الفاكه بن المغيرة المخزومى وكان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت ضيافة يغشاه الناس من غير إذن فخلا ذلك البيت يوماً فضجع الفاكه وهند فيه فخرج الفاكه لبعض حوائجه وأقبل رجل ممن كان يغشى ذلك البيت فولجه فلما رأى المرأة ولى هاربا فرآه الفاكه وهو خارج من البيت فأقبل إلى هند فضربها برجله وقال من هذا الرجل الذى خرج من عندك قالت ما رأيت أحداً ولا انتبهت حتى نبهتنى فقال لها إلحقى بأهلك فتكلم الناس فيها فقال لها أبوها يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك فأصدقينى فإن كان الرجل فى قوله صادقاً سببت له من يقتله فتنقطع عنك القالة وإن كان كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن فحلفت له بما يحلفون به فى الجاهلية أنه لكاذب فقال عتبة للفاكه يا هذا إنك رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن فخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف وخرج فاكه فى جماعة من بنى مخزوم

وأخرجوا معهم هنداً ونسوة معها فلما شارفوا البلاد قالوا غداً نرد على الكاهن فتغير لون هند فقال لها أبوها إنى أرى ما بك فهلا كان هذا قبل خروجنا قالت لا والله يا أبتاه ما ذلك لمكروه ولكن سنأتى بشراً يخطىء ويصيب فلا نأمن من أن يسومنى مما يكون فيه سبة على باقى عمرى قال إنى سوف لمختبره قبل أن ينظر فى أمرك فأخذ حبة من حنطة فأدخلها فى احليل فرسه وأوكى عليها بسير فلما دخلوا على الكاهن قال له عتبة ما كان منى فى طريق قال ثمرة فى كمرة قال احتاج إلى أبين من هذا قال حبة بر فى إحليل مهر قال صدقت فما بال حال هؤلاء النسوة فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بمنكبها حتى أتى إلى هند فضرب بمنكبها وقال انهضى غير رسحاء ولا فاحشة ولتلدين ملكا يقال له معاوية فوثب إليها الفاكه فأخذ بيدها فنزعت يدها من يده وقالت إليك عنى والله لأجهدن أن يكون ذلك من غيرك فزوجها أبو سفيان بن حرب فجاءت بمعاوية، قيل وكان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يعس بنفسه فسمع امرأة تقول :

ألا سبيل إلى خمر فأشربها ... أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأخلاق ذى كرم ... سهل المحيا كريم غير ملجاج

فقال عمر أما ما دام عمر إماما فلا ، فلما أصبح قال على بنصر بن الحجاج فأتى به فاذا هو رجل جميل فقال اخرج من المدينة ، قال : ولم وما ذنبى ، قال أخرج فوالله ما تساكننى فخرج حتى أتى البصرة وكتب إلى عمر رضى الله عنه :

لعمرى لئن سيرتنى وحرمتنى ... ولم آت إثما إن ذا لحـــرام
ومالى ذنب غـــير ظن ظننته ... وبعض تصاديق الظنون إثام
وإن غنت الذلفاء يوما بمنية ... فبعض أمانى النساء غــــرام
فظن بى الظن الذى لو أتيته ... لما كان لى فى الصالحين مقام
ويمنعنى مما تمنت حفيظتى ... وآباء صدق سالفون كرام
ويمنعها مما تمنت صلاتهـــا ... وبيت لها فى قومها وصيام
فهذان حالانا فهل أنت مرجعى ... فقد جب منى غارب وسنام

قال . . فرده عمر بعد ذلك لما وصف من عنته ، ويروى أيضاً أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة إذ سمع امرأة تهتف وتقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه — وأرقنى إذ لاخليل إلاعبه
فوالله لولا الله لا رب غيره — لزعزع من هذا السرير جوانبه
ولكن ربى والحيـاء يكفنى — وأكرم بعلى أن توطا مراكبه

قال فرجع عمر إلى منزله فسأل عن المرأة فإذا زوجها غائب فسأل ابنته حفصة كم تصبر المرأة عن الرجل فسكتت واستحيت وأطرقت فقال أربعة أشهر خمسة أشهر ستة أشهر فرفعت طرفها فعلم أنها لا تصبر أكثر من ستة أشهر فكتب إلى صاحب الجيش أن يقفل من الغزو الرجال إذا أتت ستة أشهر إلى أهاليهم ، وغزا رجل من الأنصار وله جار يهودى فأتى امرأته واستقى ذات ليلة على ظهره وأنشأ يقول :

وأشعث غره الإسـلام منى — خلوت بعرسه ليل التمـام
أبيت على ترائبها ويضحى — على جرداء لاحقة الحـزام

فسمع ذلك جار له فضربه بالسيف حتى قطعه فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال أنشد الله رجلا كان عنده من هذا علم إلا قام ، فقام الرجل فحدثه فقال : أحسنت أحسنت ، وتمام الأبيات :

كأن مجامع الربلات منهـا — فئـام قد جمعن إلى فئام

﴿ ومنه أخبار الشعراء ﴾ قيل لما خرج امرؤ القيس بن حجر إلى قيصر ملك الروم ليسأله النصرة على بنى أسد لقتلهم أباه حجر بن الحارث راسل بنت قيصر وأراد أن يخدعها عن نفسها وبلغ ذلك قيصر وأراد أن يقتله فتذمم من ذلك وأمر بقميص فغمس فى السم وقال لامرىء القيس البس هذا القميص فإنى أحببت أن أوثرك به على نفسى لحسنه وبهائه فحل السم فى جسمه وكثرت فيه القروح فمات منها فسمى ذا القروح وقد كان قيل لقيصر قبل ذلك أنه هجاه فعندها يقول :

ظلمت له نفسي بأن جئت راغباً   إليه وقد سيرت فيه القوافيا
فان أك مظلوماً فقدماً ظلمته   وبالصاع يجزى مثل ما قد جزانيا

قيل وكان النابغة يشبب بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر وكانت أكمل أهل عصرها جمالا فبلغ ذلك النعمان فهم بقتل النابغة فهرب منه وسار حتى أتى الشام والملك بها جبلة ابن الأيهم الغساني فنزل عليه وأقام عنده وكتب إلى النعمان :

حلفت ولم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني خيانة   لمبلغك الواشي أغش وأكذب

قيل وكانت امرأة شداد أبي عنترة ذكرت له أن عنترة أرادها عن نفسها فأخذه أبوه فضربه ضرب التلف فقامت المرأة فألقت نفسها عليه لما أرت ما به من الجراحات وبكته وكان اسمها سمية فقال عنترة :

أمن سمية دمع العين مذروف   لو كان ذا منك قبل اليوم معروف
كأنها يوم صدت ما تكلمنا
ظبي بعسفان ساجي العين مطروف
قامت تجللني لما هوى قبلي   كأنها صنم يعتاد معكوب
المال مالكم والعبد عبدكم   فهل عذابك عني اليوم مصروف

قيل ولما أنشد عبد بني الحسحاس عمر بن الخطاب رضي الله عنه قصيدته التي يقول فيها :

توسدني كفاً وتمضي بمعصم   علي وتنحو رجلها من ورائيا
فما زال بردي طيباً من ثيابها   إلى الحول حتى أنهج البرد باليا
وهبت لنا ريح الشمال بقوة   ولا برد إلا درعها وردائيا
أميل بها ميل الرديف وأتقي   بها الريح والشفان من عن شماليا
رأت قتباً رثا وأخلاق شملة   وأسود مما يلبس الناس عاريا
يجمعن شتى من ثلاث وأربع   وواحدة حتى كملن ثمانيا
سليمى وسلمى والرباب وتربها   وأروى وريا والمنى وقطاميا
وأقبلن من أقصى البلاد يعدنني   إلا إنما بعض العوائد دائيا

قال عمر رضى الله عنه أنت متبول فلما قال :

ولقد تحدر من كريمة معشر   عرق على متن الفراش وطيب

وجدوه شاربا ثملا فعرضوا عليه نسوة حتى مرت به التى يطلبونها فأهوى إليها فقتلوه .

﴿ مساوى شدة الغيرة والعقوبة عليها ﴾

حكى عن سليمان بن عبد الملك أنه كان فى بعض أسفاره فسمر معه قوم فلما تفرقوا عنه دعا بوضوء فجاءت به جارية فبينا هى تصب الماء على يده إذا استمدها وأشار إليها مرتين أو ثلاثا فلم تصب عليه فأنكر ذلك ورفع رأسه فاذا هى مصغية بسمعها مائلة بجسدها إلى صوت غناء من ناحية العسكر فأمرها فتنحت فسمع الصوت فاذا رجل يغنى فأنصت له حتى فهم ما غنى فدعا بجارية غيرها فتوضأ فلما أصبح أذن للناس فأجرى ذكر الغناء فلم يزل يخوض فيه حتى ظن القوم أنه يشتهيه فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء فى الغناء والتسهيل لمن سمعه وذكروا من كان يسمعه من سروات الناس فقال هل بقى أحد يسمع منه فقال رجل من القوم عندى رجلان من أهل الأبلة محكمان قال فأين منزلك من العسكر فأومأ إلى ناحية الغناء فقال سليمان ابعث إليهما ففعل فوجد الرسول أحدهما وأقبل به وكان اسمه سمير فسأله عن الغناء وكيف هو فيه قال محكم قال متى عهدك به قال البارحة قال وفى أى النواحى كنت فذكر الناحية التى سمع منها الصوت قال وما اسم صاحبك قال سنان قال فأقبل سليمان على القوم فقال هدر الفحل فضبعت الناقة ونب التيس فشكرت الشاة وهدل الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ثم أمر به فخصى وسال عن الغناء أين أصله قالوا بالمدينة وهم المخنثون فكتب إلى عامله أن أخص من قبلك من المخنثين وحدث الأصمعى أن الشعر الذى سمعه سليمان يتغنى به هو :

محجوبة سمعت صوتى فأرقها   من آخر الليل لما بلها السحر
تدنى على الخد منها من معصفرة   والحلى باد على لباتها خصر
فى ليلة البدر ما يدرى مضاجعها   أوجهها عنده أبهى أم القمر
لم يمنع الصوت أبواب ولا حرس   فدمعها لطروق اللحن ينحدر

لو تستطيع مشت نحوى على قدم ... تكاد من رقة فى المشى تنفطر

ثم دخل سليمان مضرب الخدم فوجد جارية على هذه الصفة قاعدة تبكى فوجه إلى سنان فأحضره ووجهت الجارية رسولا إلى سنان تحذره وجعلت للرسول عشرة آلاف درهم إن سبق رسول سليمان فلما حضر أنشأ يقول :

إستبقنى إلى الصباح أعتذر ... إن لسانى بالشراب منكسر
فأرسل المعروف فى قوم نكر

فأمر به فخصى وكان بعد ذلك يسمى الخصى ، وعن على بن يقطين قال كنت عند موسى الهادى ذات ليلة مع جماعة من أصحابه إذ أتاه خادم فساره بشىء فنهض سريعاً فقال لا تبرحوا فمضى فأبطأ ثم جاء وهو يتنفس ساعة حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقاً مغطى بمنديل فقام بين يديه فأقبل يرعد وعجبنا من ذلك ثم جلس وقال للخادم ضع مامعك فوضع الطبق وقال ارفع المنديل فرفعه فاذا على الطبق رأسا جاريتين لم أر والله أحسن من وجهيهما ولا من شعورهما فاذا على رأسيهما الجوهر منظوم على الشعر وإذا رائحة طيبة تفوح فاعظمنا ذلك فقال أتدرون ما شأنهما قلنا . لا قال بلغنى أنهما تحابا فوكلت هذا الخادم بهما لينهى إلى أخبارهما فجاءنى وأخبرنى أنهما قد اجتمعتا فجئت فوجدتهما كذلك فى لحاف فقتلتهما ثم قال لى ياغلام ارفع ورجع فى حديثه كأنه لم يصنع شيئاً ، وحدثنا إبراهيم بن إسماعيل عن ابن القداح قال ، كانت للربيع جارية يقال لها أمة العزيز فأهداها للمهدى فلما رأى حسنها وجمالها وهيأتها قال هذه لموسى أصلح فوهبها له فكانت أحب الخلق إليه وولدت له بنيه الأكابر ثم أن بعض أعداء الربيع قال لموسى أنه سمع الربيع يقول ما وضعت بينى وبين الأرض مثل أمة العزيز فغار موسى فدعا الربيع فتغدى معه وناوله كأسا فيه شراب فقال الربيع فعلمت أن نفسى فيها وإنى إن رددتها من يدى ضرب عنقى فشربتها وانصرفت فجمع ولده وقال إنى ميت فقال الفضل ابنه ولم تقول ذلك جعلت فداك قال إن موسى سقانى شربة فأنا أجد عملها فى بدنى ثم أوصى بماله ومات فى يومه ، قيل وطرب الرشيد إلى الغناء فخرج متنكراً ومعه خادمه مسرور حتى انتهى إلى باب إسحاق بن ابراهيم الموصلى فقال يامسرور إقرع الباب فخرج إسحاق فلما رأى الرشيد انكب على رجله فقبلها ثم قال إن رأى أمير المؤمنين أن يدخل منزل عبده فنزل الرشيد فدخل فرأى

أثر الدعوة فقال يا إسحاق إنى أرى موضع الشرب من كان عندك قال ماكان عنـــدى يا أمير المؤمنين سوى جاريتى كنت أطارحهما قال فهما حاضرتان قال نعم قال فاحضرهما فدعا الجاريتين فخرجتا مع إحداهما عود حتى جلستا فأمر الرشيد صاحبة العود أن تغنى فغنت .

بنى الحب على الجـــور فلو　　أنصف المعشوق فيه لسمج
ليس يستحسن فى وصف الهوى　　عاشق يكثر تأليف الحجج
فقليل الحب صرفا خالصا　　هو خير من كثير قد مزج

فقال الرشيد يا إسحاق لمن الشعر والغناء فيه قال لا علم لى به يا أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ينكت فى الأرض ثم رفع رأسه وأخذ العود من حجر هذه فوضعه فى حجر الأخرى ثم قال لها غنى فغنت .

إن يمس حبلك بعد طول تواصل　　خلقـــا وأصبح بيتكم مهجوراً
فلقـــد أرانى والجديد إلى بلى　　زمنا بوصلك راضياً مسروراً
كنت الهـــوى وأعز من وطىء الحصى
عندى وكنت بذاك منك جـــديراً

فقال يا إسحاق لمن الشعر والغناء فيه قال لا علم لى ياسيدى فرد المسألة على الجارية فقالت لستى قال ومن ستك قالت علية أخت أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ثم وثب وقال لمسرور خادمه امض بنا إلى منزل علية فلما وقف بالباب قال استأذن يا مسرور فخرجت جارية فلما رأت الخليفة رجعت تبادر تعلم ستها فخرجت تستقبله وتفديه فقال يا علية هل عندك ما نأكل قالت نعم يا سيدى قال وما نشرب قالت نعم فدخل وجلس فقدمت إليه الطعام فأكل حاراً وبارداً ورطباً ويابساً ثم رفع الطعام ووضع الشراب والطيب وأنواع الرياحين ودعت جواريها وكان عندها ثلاثون جارية يغنين فألبستهن أنواع الثياب وصففن فى الإيوان وتناول الرشيد الشراب فأمر الجوارى يغنين ثم سقى

أخته حتى أخذ الشراب منها واحمرت وجنتاها وفترت أجفانها وكانت من أجل النساء فضرب الرشيد إلى حجر بعض الجوارى فى أخذ العود وقال يا علية بحياتى غنى .

بنى الحب على الجور فلو

فعلمت أنها داهية فبكت فصاح الرشيد فخرج الجوارى وبقى هو وهى فدفعها وأخذ وسادة فجعلها على وجهها وجلس عليها فاضطربت اضطرابا شديداً ثم بردت فنحى الوسادة عنها وقد قضت نحبها فخرج وقال للخادم إذا كان غداً فادخل وعزنى وركب متوجهاً إلى قصره فلما كان الغد عزاه مسرور فبكى فقال :

فير عزيز علينـــا لو أن من فيه يفدى
أسكنت قــــرة عينى ومهجة النفس لحدا
ما إن أرى لى عليها من التوجع بدا

ومنه ما حكى عن البهائم قال شيخ من بنى قشير كنا فى نتاج فامتنع فرس من حجرة فشددنا عينه فنزاعليها فلما فرغ فتحنا العصابة فرأى الحجرة وكانت أمه فعمد إلى ذكره بأسنانه فقطعه ، ومنه فى خفة الغيرة قال سليمان بن داود الهاشمى لابنه لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالشر من أجلك وإن كانت بريئة ولا تكثر الضحك فيستخف فؤاد الرجل الحليم وعليك بخشية الله فإنها غلبت كل شىء . وقال عبيد الله بن جعفر لابنه : إياك والغيرة فانها مفتاح الطلاق وإياك وكثرة العتب فإنه يورث البغضاء وعليك بالكحل فانه أزين الزينة وأطيب الطيب الماء ، قيل وكان كسرى ابرويز يتعشق امرأة رجل كان من مرازبته يقال له البارجان وكانت تأتيه سراً فبلغ زوجها ذلك فأمسك عن امرأته واجتنبها ودخل إلى كسرى ذات يوم فقال له كسرى بلغنى أن لك عين ماء عذبة وإنك قد اجتنبتها فلا تقربها ، ففطن فقال له : أيها الملك بلغنى أن الأسد ينتاب تلك العين فاجتنبتها خوفاً منه فأعجب كسرى بمقالته وأمر أن يتخذ له تاج لا قيمة له ثم دخل كسرى دار نسائه فقاسمهن نصف حليهن فاجتمع من الجوهر مالا يحصى فبعث به إلى امرأة البارجان بالقادسية ووقع ذلك الجوهر إلى السائب بن الأقرع وكان على المقسم فباعه وجعل للمسلمين بكتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال بعضهم كنت أغار على امرأتى فأشرفت على يوما وأنا

مع جارية لى فلقيت منها أذى حتى حلفت أن أبيع الجارية فخرجت أريد شراء حوائج لى ومعى الجارية فأتيت دكان خلال اشرى الخل فوجدته خالياً فقلت له يا هذا تأذن لى فى ملامسة جاريتى هـذه فى دكانك فإنى أريد بيعها قال نعم جعلت فداك أدخل حيث شئت فدخلت فأصبت من الجارية فلما خرجت إذا الخلال قد كمن ناحية وهو فى قميص قد أنعظ فقال فرغت قلت نعم قال بسم الله أتأذن لى جعلت فداك قلت ويلك ما تريد قال اقضى وطرى منها قلت يا ابن الفاعلة حرمتى قال لا يضرك شيئاً فإنى أسرع ثم وثب كأنه السبع فضاربته حتى تخلصت الجارية بعد كل جهد ، قال ودخل رجل من بنى زهرة من أهل المدينة على قينة فسمع غناءها عند مولاها فخرج مولاها فى حاجة ثم رجع فإذا جاريته على بطن الزهرى فقامت مذعورة فقعدت تبكى فقال ما يبكيك قالت لأنك لا تقبل لأجله عذراً قال يازانية لو رأيتك على قفاك قلت صريع مغلوب ولو رأيتك على وجهك لقلت وعاء مكبوب إنما رأيتك فارساً مصلوباً ، وحكى عن ثمامة أنه قال للمهدى ان النساء شققن شقا وان هشيمة نقبت نقبا وكانت هشيمة امرأة ثمامة فسأله المهدى أن ينزل عنها ففعل وأقام المهدى حتى انقضت عدتها ثم تزوجها وبنى بها ثم طلقها وخرج إلى بيت المقدس فلما انقضت عدتها راجعها زوجها وقال أبو طاهر أنشدنى بعض الشعراء يهجو بنى القعقاع :

بنى القعقاع أكرمكم لئيم وأعظم مجدكم ركب حليق
وأنتم فى نسائكم اتساع وفى أخلاقكم نكد وضيق

وعن عبد الله بن ياسين قال ، كان فى المهدى غزل وشـدة حب للخلوة بالنساء فبلغه عن ابنة لأبى عبيد الله كانت جمال فقال للخيزران ، استزيريها ، فزارتها وجاءت إليها فقالت لها ، هل لك فى الحمام قالت نعم فلما دخلت الحمام وافاها المهدى فبرزت له ولم تستتر عنه فقال لها المهدى أنا وليك فزوجينى نفسك فقالت أنا أمتك فتزوجها ونال منها فلما انصرفت أخبرت اخوتها بما كان فقالوا امسكى عنه فلما كان بعد مدة قالوا لها استزيرى الخيزران فاستزارتها فلما صارت إليها قالت هل لك فى الحمام قالت نعم فلما دخلتا معا ما شعرت الخيزران إلا ببنى أبى عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم فقالوا لو اردنا نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا ولكنا لا نستحل ، فقالت لهم والله لو رمتم ذلك لأمرت الخدم بقتلكم فانصرفوا فلما رجعت

الخيزران أخبرت المهدى بذلك فكان السبب فى قتل المهدى محمد بن أبى عبيدالله على الزندقة، وبلغه أيضا عن عونة بنت أبى عون جمال وهيئة فقال للخيزران استزيريها فاستزارتها فقالت لها الخيزران : هل لك فى الحمام قالت نعم ، فلما دخلنا ماشعرت إلا بالمهدى قد وافاها فاستترت بالخيزران وقالت والله لئن دنوت منى لأضربن بالكرنيب وجهك ، فقال ويلك إنما أردت أن أتزوجك قالت لاسبيل إلى ذلك فانصرف عنها فأخبرت أباها فقال أحسنت فى فعلك .

﴿ محاسن القيادة ﴾

الحسن الجرجانى قال حدثنى سهم بن عبد الحميد الحنفى قال خرجت من الكوفة أريد بغداد فلما نزلت بسط غلماننا وهيئوا غداءنا فإذا نحن برجل حسن الوجه والهيئة على برزون فاره فصحت بالغلمان فأخذوا دابته فدعوت بالغداء فبسط يده غير محتشم وما أكرمته بشىء إلا قبله وكنا كذلك إذ جاء غلمانه بثقل كثير وهيأة جميلة فتناسبنا فإذا هو طريح بن اسماعيل الثقفى فارتحلنا فى قافلة منالايدرك طرفاها فقال طريح ما حاجتنا إلى هذا الزحام وليست بنا إليهم وحشة ولا علينا خوف فإذا خلونا بالخانات والطرق كان أروح لأبداننا قلت ذلك إليك فنزلنا من الغد الخان وتغدينا وإلى جانبنا نهر ظليل بالشجر فقال هل لك أن تستنقع فيه فررنا إليه فلما نزع ثيابه إذا بين جنبيه آثار ضرب كثير فوقع فى نفسى منه شرفنظر إلى ففطن وتبسم وقال قد رأينا ذعرك بما ترى وحديث ذلك يجرى إذا سرنا بالعشية فلما سرنا قلت له الحديث قال نعم قدمت من عند الوليد بن يزيد بالغناء واليسار وكتب إلى يوسف ابن عمر فلما أتيته ملأ يدى خيراً فخرجت مبادراً إلى الطائف فلما امتد بى الطريق وليس يصحبنى فيه أحد عن لى أعرابى على قعود له فحدث أحسن الحديث وروى الشعر فاذا هو شاعر فقلت ، من أين أقبلت ، قال : لا أدرى : قلت وما القصة قال : أنا عاشق لامرأة قد أفسدت على عيشى وقد حذرنى أهلها وجفانى لها أهلى وإنما أستريح بأن أنحدر إلى الطريق مع منحدر وأصعد مع مصعد ، قلت فأين هى، قال ، ننزل غدا بازائها فلمانزلنا أرانى طريقا عن يسار الطريق فقال ترى ذلك الطريق فقلت أراه قال فترى الخيم التى هناك قلت ، نعم قال ، فإنها فى الخيمة الحمراء فأدركتنى أريحية الحدث فقلت، والله إنى آتيها برسالتك فمضيت

حتى انتهيت إلى الخيم فإذا امرأة ظريفة جميلة كأنها مهرة عربية فذكرته لها فزفرت زفرة كانت تنقض أضلاعها قالت أوحى هو قلت نعم تركته فى رحلى وراء هذا الطريق قالت بأبى أنت وأمى أرى لك وجها حسناً يدل على الخير فهل لك فى أمر قلت نعم فقير إليه قالت البس ثيابى فأتم مكانى ودعنى حتى آتيه وذاك عند مغيربان الشمس فإنك إذا أظلم الليل أتاك زوجى فقال لك يا فاجرة وياهنة ابنة الهنة فيوسعك شتما فأوسعه صمتاً ثم يقول فى آخر كلامه اقمعى سقاءك ياعدوة الله فضع القمع فى هذا السقاء وإياك وهذا السقاء الآخر فإنه واه قلت نعم فأجبتها إلى ما سألت فجاء الزوج على ماوصفت وقال اقمعى سقاءك فخيرنى الله ان تركت الصحيح وقمت الواهى فما شعر إلا باللبن يقذف بين رجليه فعدا إلى كسر الخيمة وحل متاعه وتناول رشاء من قد مدبوغ ثم ثناه باثنتين فجعل لايتقى رأساً ولا وجهاً ولا رجلا حتى خشيت أن يبدو له وجهى فتكون الأخرى فالزمت وجهى الأرض فعمل بظهرى ماترى فلما تغيب عنى جاءت المرأة باكية فرأت مابى من الشر واعتذرت وأخذت ثيابى وانصرفت قال وحدث بهذا الحديث محمد بن صالح بن عبد الله بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليه بسر من رأى سنة أربعين ومائتين وكان حمل من البادية إلى المتوكل فأطلقه وكان أعرابياً فصيحاً فعجب منه وكان حسن الوجه نجيباً قل ما رأيت فى الفتيان مثله قال كان منافقى يقال له الاشتر بن عبد الله وكان سيد بنى هلال وأحسنهم وجها وأسخاهم كفاً وكان معجباً بجارية يقال لها جيداء بارعة الجمال فلما اشتهر أمرهما وظهر خبرهما وقع الشر بين أهل بيتيهما حتى قتل بينهما القتلى فافترقوا فريقين فلما طال على الاشتر البلاء جاءنى يوماً وقال يانمير هل فيك خير قلت عندى ما أحببت قال فساعدنى على زيارة جيداء قلت بالحب والكرامة فانهض إذا شئت قال فركبنا وسرنا يوما وليلة والغداة حتى المساء فنظرنا إلى أدنى سرب لهم فنخنا رواحلنا فى شعب وقعدنا هناك وقال يا نمير اذهب وانشد واذكر لمن يلقاك انك طالب ضالة ولا تعرض بذكرى بشفة ولا لسان إلى أن تلقى جاريتها فلانة راعية الشأن فتقرئها منى السلام وتسألها عن الخبر وتعلمها بمكانى قال فخرجت لا أتعدى ما أمرنى به حتى لقيت الجارية فأبلغتها الرسالة وأعلمتها بمكانه وسألتها عن الخبر فقالت هى مشدد عليها محتفظ بها وعلى ذلك فوعدكما عند الشجرات اللواتى عند أعقاب البيوت مع صلاة العشاء فانصرفت فأخبرته ثم قدنا رواحلنا حتى أتينا الموعد فى الوقت الذى وعدتنا

فيه فلم نلبث إلا قليلا حتى إذا جيداء تمشى فدنت منا فوثب إليها الاشتر فتصافحا وسلم عليها ووثبت موليـاً عنهما فقالا أقسمنا عليك إلا رجعت فوالله مابيننا من ريبة ولا قبيح نخلوا به دونك فانصرفت إليهما وجلست معهما فقال الاشتر مافيك حيلة ياجيداء فنتزود منك الليلة قالت لا والله ما إلى ذلك سبيل إلا أن أرجع إلى الذى تعلم من البلاء والشر فقال لابد من ذلك ولو وقعت السماء على الأرض قالت فهل بصاحبك خير قلت بلى وهل الخير إلا عندى فاسألى مابدا لك فانى منته إليه ولو كان فى ذلك كله ذهاب نفسى فألبستنى ثيابها وأخذت ثيابى ثم قالت اذهب إلى خبائى فادخل فى سترى فإن زوجى يأتيك مع العتمة فيطلب منك القدح ليحلب فيه فلا تعطه من يدك فكذلك كنت أفعل فيحلب ثم يأتيك بالقدح ملآنا لبناً فيقول هاك فلا تأخذه منه حتى يطيل عليك نكدك ثم خذه أو ذره حتى يضعه ثم يستبد بردائه واست تراه حتى يصبح فذهبت ففعلت ما أمرتنى به حتى جاء بالقدح فيه اللبن فأطلت نكدى عليه ثم أهويت لآخذه فاختلفت يدى ويده وانكفأ القدح فاندفق منه اللبن فقال ان هذا لطماح مفرط وضرب يده إلى جانب الخباء فاستخرج سوطاً فضربنى مقدار ثلاثين سوطاً حتى جاءت أمه وأخواته فانتزعونى منه ولا والله مافعلوا ذلك حتى زايلنى روحى وهممت أن أوجره بالسكين فلما خرجوا عنى وهو معهم قعدت كما كتب الله فما لبثت أن جاءت أم جيداء ، فحدثتنى وهى تحسبنى ابنتها فألقيتها بالسكوت وتغطيت بثوبى دونها فقالت يابنية اتقى الله ولا تتعرضى للمكروه من زوجك فذلك أولى بك ثم خرجت من عندى فقالت سأرسل إليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك فلم ألبث أن جاءت الجارية تبكى وتدعو على من ضربنى وأنا لا أكلمها ثم اضطجعت إلى جانبى فلما استمكنت منها شددت يدى على فمها وقلت يا هذه تلك أختك مع الاشتر وقد قطع ظهرى بسببها وأنت أولى من ستر عليها فاختارى لنفسك ولها فوالله لئن تكلمت لتكونن فضيحة شاملة ثم رفعت يدى عن فيها فاهتزت مثل القصبة من الروع وباتت معى ونلت منها الشهوة النامة ورافقتنى أصلح رفيق رافقته ولم أذق شيئاً ألذ مما ذقت منها قط فلم نزل نتحدث وتضحك منى ومما بليت به حتى برق النور وجاءت جيداء فلما رأتنا ارتاعت وقالت من هذا عندك قلت أختك قالت وما السبب قالت هى تخبرك فإنها عالمة به وأخذت ثيابى وأتيت صاحبى فأخبرته بما أصابنى وكشفت له عن ظهرى فإذا فيه ما الله به عليم فقال لقد عظمت منتك عندى ووجب شكرك وخاطرت

نفسك فلا حرمني الله مكافأتك ، وعن رجل من بني عامر أنه خرج وهو غلام مابقل وجهه وكان ذا جمال وهيأة صاحب غزل فهجم على قوم يتحملون وقد شدوا أثقالهم وبرزوا وإذا امرأة جميلة قد تخلفت على جمل لها لاصلاح شأنها قال فوقفت عليها فإذا هى أحسن خلق الله وجها وأغزله وأملحه فتلاقينا كلاما غير كثير فقالت أسألك شيئاً فهل لك به علم قلت سلى فقالت أيها أحسن جردة الرجل أم المرأة قلت الرجل قالت بل المرأة فإن أحببت أن تعلم ذلك علمته قلت وكيف أعلمه قالت أتجرد لك من ثيابى وأرميها عنى ثم امشى حتى أبلغ الأكمة ثم أقبل حتى آتيك فاعطيني عهد الله وميثاقه لتفعلن كما فعلت فقلت لك عهد الله ان فعلت لأفعلنه قال فألقت ثيابها عن أحسن ما نظرت إليه قط بياضاً ونظافة وحسناً فلما انتهت إلى قالت الوفاء قلت الوفاء ونعمة عين فخلعت ثيابى وأنا كأحسن الفتيان وأهيأهم حتى مضيت بعد الغاية فلما انتصف بى المدى سمعت خرخرة جملى فإذا هى قد جالت على ظهره لابسة ثيابى متنكبة قوسى قد لزمت المحجة فناديتها فلم تعرج على ولبست ثيابها وتخمرت بخمارها وركبت بعيرها وزجرته فانبعث بى أثر الحى وأخذت شق الوحشى حتى ما أراها وجعلت أكف عن الجمل إذ خشيت ان ألحق الظعن حتى رأونى من بعيد وجعلوا ينادون ويحك اقبلى وأنا صامت لا أتكلم ولا أتقدم فلما طال عليهم أمرى بعثوا بجارية لهم مرادة فاقبلت تعدو حتى أتتنى ونشطت خطام الجمل من يدى وأنا متبرقع أحسن الناس وجها وعينا فنظرت الجارية فى وجهى ساعة ثم قالت لقد أمسيت حديدة الطرف وقادت الجمل حتى أتت الحى فقالت أم الجارية يا بنية لقد استحييت من الناس مما دعوتك العشية ثم تأملت ونظرت وسائر النساء وقالت إحداهن والله إنه لرجل وفطن وانزلتنى العجوز وأدخلتنى الستر وقالت من أنت لاأفلحت قلت بل ابنتك لاأفلحت ولا أنجحت وقصصت عليها قصتها فقالت نشدتك الله ألا أعرتنى نفسك هزيعا من الليل فانا كنا على ان نبنى بابنتى صاحبة الجمل الليلة ومافى الحى رجل غير زوجها وهو انسان فيه لوثة ولابد من أن أدخلك عليه فانك غلام أمرد فلا ينكرك ولا أراه أقوى منك ان اعتركتما فلك عندى يد بيضاء وأقبلت وأخت لابنتها وخالتها فالبسننى ثوب العروس وطيبننى ثم دلفن بى نحو الرجل بعيد العتمة وقالت أمها انا لك الفداء تجلد ساعة بالامتناع فانه منصرف عنك وستأتيك الكافرة فادخلنى على مثل الأسد إلا أن به لوثة كما قالت فاعتركنا حتى اعيى وكف عنى

وطال بى الليل حتى سمعت خرخرة جملى فلم ألبث الا هنيهة حتى جاءت أمها وخالتها وهى معهما فجعلتها مكانى وفتشت عن سرها فاذا هى قد ظلت مع انسان كانت تهواه وأنيت ثيابى فنهضت مبادرا لا ألوى على شىء حذراً مما لقيت ، قيل وملك النعمان بن المنذر أربعين سنة فلم تر منه سقطة غير هذه وهو أنه ركب يوما فبصر بجارية قد خرجت من الكنيسة فأعجبته لجمالها فدعا بعدى بن زيد وكان نديمه ووزيره فقال له ياعدى لقد رأيت جارية لئن لم أظفر بها أنه الموت ولا بد من أن أتلطف أو تتلطف لى حتى تجمع بينى وبينها قال ومن هى ، قال : سألت عنها فقيل هى امرأة حكم بن عمرو رجل من أشراف الحيرة ، قال فهل أعلمت أحدا ، قال : لا ، قال : فاكتمه فاذا اصبحت فجدد لحكم كرامة وبرا فلما أذن للناس بدأ به فاجلسه معه على سريره وكساه فاستعظم الناس ذلك فلما أصبح بدأ ايضا بالاذن له وحمله فانكر الناس ذلك وقالوا ، ما هذا إلا لأمر فصنع به ذلك أياما ثم قال له عدى ، أيها الملك عندك عشر نسوة فطلق احداهن ثم قل له فليتزوجها ففعل فلما دخل عليه قال يا حكم ماكانت نفسى تسمح بهذا لولد ولا لوالد فتزوج فلانة فقد طلقتها فخرج حكم إلى عدى فقال يا أبا عويمر ما صنع الملك بأحد ما صنع بى وما أدرى بما أكافيه قال عدى طلق امرأتك كما طلق لك امرأته ففعل وحظى بها عدى عنده وعلم حكم انه قد مكر به فى امرأته وفيه يقول الشاعر :

ما فى البرية من أنثى تعادلهـــا إلا الذى أخذ النعمان من حكم

وحدث الفضل بن العباس عن الزبير بن بكار عن محمد بن بشير الخارجى قال ، قدم علينا رجلان من أهل المدينة يصيدان ومعهما نسوة والفة الابط مضروبة وكان سليمان بن عبد الله الاسلمى وابن أخ له مقيمين بناحية الروحاء فارسل النسوة إلى سليمان وابن أخيه أمالكما حاجة فى الحديث فرد الرسول ان يكن لنا فيه حاجة فكيف لنا بذلك مع ازواجكن فقلن إنما خرج ازواجنا للصيد وقد بلغنا أن لكم صاحبا يعرف من طلب الصيد مالايعرفه غيره فلو طرح لهم شيئاً من ذكره لأسرعوا إليه وتخلفتم وتحدثتم ما شئتم يعنين به محمد ابن بشير فمضى إليه سليمان وابن اخيه فقالا ، يا أبا محمد أرسل إلينا النسوة بكذا وكذا وسألونى أن اخرجك إلى الصيد فقلت لا والله لاافعل ولا اتعب ولا انصب وانتم

تتلهون وتتحدثون أنا الذى أشد حبا وأكثر صبابة وشوقا فارسلا إلى النسوة بمقالتى فارسلن إلى رسولا وعاهدنى لئن أخرجتهم ليحتلن لى حتى اخلو معهن ليلة حتى الصبح فصرت إليهم وذكرت لهم الصيد فخرجوا معى فما زلت أحدثهم بالصدق حتى أخذت فى الكذب بما يضارع الصدق حتى افنيته فاقمت معهم ثلاثة أيام ولياليها ثم انصرفوا من غير أن اصطدنا شيئاً فقلت فى ذلك :

إنى انطلقت معى قوم ذوو حسب ما فى خلائقهم زهـــو ولا حمق
إنى لأعجب منهم كيف أخدعهم أم كيف آفك قوماً مابهم رهق
أظل فى الأرض ألهيهم وأخبرهم أخبار قوم وما كانوا ولا خلقوا
ولو صدقت لقلت القوم قد دخلوا حين انطلقنا وإنى ساعة انطلقوا
فلو أجاهد ما جاهـــدت دونكم فى المشركين لأدركت الأولى سبقوا
إن كنت أبدأ جارى من حلائلكم والدهر ذو عنف أيامه طرق
فإن كل جديد عائـــد خلقاً فلن يعود جديداً ذلك الخلق

قال فظفر أصحابى بالحديث والمنازلة وأنا بالجهد والخيبة مع أتم القيادة والنصب وكذب المحادثة . وحدثنا وهب بن سليمان عن عمه الحسن بن وهب قال خرج محمد بن عبد الملك الزيات من عند الواثق ومزيد بن محمد بن أبى الفرج الهارونى وكيل عبد الله بن طاهر فاذا بجارية حسناء فى منظرة لها فلما بصرت به ورأت مركبه وكان جميلا ظريفاً أومأت اليه بالسلام وأومأت بيدها إلى صدرها فأعجب بها فلما صار إلى منزله دخلت اليه فرأيته بخلاف ماعهدت وكان لا يكتمنى شيئاً فقلت مالى أراك مدلها ياأبا الحسن قال رأيت شيئاً أنا فيه مفكر ثم أنشأ يقول :

وا بابى مخضب أومى الينـــا بيده
أومى بها يخبرنى راحته فى كبـــده
أن الضنى فى جسدى يخبرنى عن جسده
فليس للحاسد إلا خصلة من حسده

ثم شرح لى القصة ثم انصرفت من عنده ووافيت مولى الجارية فسألته أن يبيعها فقال اشتريتها للامير عبد الله بن طاهر وليس إلى بيعها من سبيل فلم أزل حتى اشتريتها بخمسين الف درهم ووجهت بها اليه وكتبت اليه :

هذا محبك مطوى على كمده　　عبرى مدامعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحتها　　مما به ويد أخرى على كبده

فقبلها وحسن موقعها عنده فولانى خراج ديار ربيعة فأصبت فيها ألف ألف درهم : قال السجستانى : أرق الرشيد ذات ليلة فوجه إلى عبد الملك الأصمعى وإلى الحسين الخليع فاحضرهما وشكا إليهما مدافعة نومه وشدة أرقه وقال لهما . عللانى بأحاديثكما وابدأ أنت لآل حسين ، قال : نعم يا أمير المؤمنين خرجت فى بعض السنين منحدرا إلى البصرة وممتدحاً حالال سليمان فقصدت محمد بن سليمان بقصيدتى فقبلها وأمرنى بالمقام فخرجت ذات يوم إلى المربد وجعلت المهالبة طريقى فأصابنى حر وعطش فدنوت من باب دار كبير لاستسقى فإذا أنا بجارية أحسن ما يكون كأنها قضيب يتثنى وسناء العينين زجاء الحاجبين مهفهفة الخصر حاسرة الرأس مفتوحة الجربان عليها قميص لاذ جلنارى ورداء عدنى قد علت شدة بياض بدنها حمرة قميصها تتلالأ من تحت القميص بثديين كرمانتين وبطن كطى القباطى وعكن مثل القراطيس لهاجمة جعدة المسك محشوة وهى يا أمير المؤمنين مقلدة خرزاً من ذهب والجوهر يزهر بين ترائبها وعلى صحن جبينها طرة كالسبج وحاجبان مقرونان وعينان كحلاوان وخدان أسيلان وأنف أقنى تحته ثغر كاللؤلؤ وأسنان كالدر وقد غلب جربانها سواد المسك والغالية ودابر العود النهدى على لبتها عبق الخلوق وهى والهة حيرى واقفة فى الدهليز وجائية تخطر فى مشيتها قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها كأنها تخطر على أكباد محبيها فهى كما قال الأفوه الأودى

ليس منها ما يقال لها　　كملت لو أن ذا كملا
كل جـــزء من محاسنها　　كائن من حسنها مثـــلا
لو تمنت فى براعتهـا　　لم تجـد فى حسنها بدلا

فهبتها والله يا أمير المؤمنين ثم دنوت منها لاسلم عليها فإذا الدار والدهليز والشارع قد عبقت بالمسك فسلمت عليها فردت السلام بلسان منكسر وقلب حزين محرق فقلت لها يا سيدتى إنى شيخ غريب أصابنى عطش فأمرى لى بشربة من ماء تؤجرى . قالت : إليك عنى ياشيخ فانى مشغولة عن سقى الماء وادخار الأجر ، فقلت لها ، ياسيدتى لأية علة ، قالت لأنى عاشقة من لا ينصفنى وأريد من لا يريدنى ومع ذلك ممتحنة برقباء فوق رقباء . قلت لها ، ياسيدتى هل على بسيط الأرض من تريدينه ولا يريدك ، قالت ، إنه لعمرى على ذلك الفضل الذى ركب الله فيه من الجمال والدلال ، قلت لها ، ياسيدتى فما وقوفك فى الدهليز ،

قالت ، هو طريقه وهذا أوان اجتيازه ، قلت لها ، يا سيدتى هل اجتمعتما فى خلوة فى وقت من الأوقات أم حب مستحدث ، فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خديها كطل على ورد ، وأنشأت تقول :

وكنا كغصنى بانة وسط روضة — نشم جنا اللذات فى عيشة رغد
فافرد هذا الغصن مع ذاك قاطع — فيامن رأى فرداً يحن إلى فرد

قلت لها يا هذه مابلغ من عشقك هذا الفتى ، قالت ، أرى الشمس على حائطهم أحسن منها على حائط غيرهم وربما أراه بغتة فابهت وتهرب الروح عن جسدى وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل ، قلت لها ، عزيز على وأنت على مابك من الضنى وشغل القلب بالهوى وانحلال الجسم وضعف القوى ما أرى بك من صفاء اللون ورقة البشرة فكيف لو لم يكن بك من الهوى شيء أراك كنت مفتنة فى أرض البصرة ، قالت ، كنت والله ياشيخ قبل محبتى لهذا الغلام تحفة الدلال والجمال والكمال ولقد فتنت جميع ملوك البصرة وفتننى هذا الغلام ، فقلت يا هذه ما الذى فرق بينكما ، قالت ، نوائب الدهر وأوابد الحدثان ولحديثى وحديثه شان من الشان وأنبيك أمرى انى كنت اقتصدت فى بعض أيام النيروز فامرت فزين لى وله مجلس بانواع الفراش وأوانى الذهب ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار وكنت دعوت لحبيبى عدة من متظرفات البصرة فيهن من الجوارى جارية شهران وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة الف درهم وكانت الجارية والعة بى وكانت أول من اجابت الدعوة وجاءتنى منهن فلما حصلت عندى رمت بنفسها على تقطعنى عضاً وقرصاً ثم خلونا نتمزز القهوة إلى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا فتارة هى فوقى وتارة أنا فوقها فحملها السكر على أن ضربت يدها على تكتى فحلتها ونزعت هى سراويلها وصارت بين فخذى كمصير الرجال من النساء فبينا نحن كذلك إذا دخل على حبيبى وقد النزق قرطى بخلخالى فلما نظر الينا اشمأز لذلك وصدف عنى وعنها صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل اللجم وعض على أنامله وولى خارجا فأنا ياشيخ منذ ثلاث سنين أسل سخيمته واستعطفه فلا ينظر إلى بعين ولا يكتب إلى بحرف ولا يكلم لى رسولا : قلت لها . يا هذه أفمن العرب هو أم من العجم . قالت هو من جلة ملوك البصرة . قلت . من

أولاد نبايها أو من أولاد تجارها . قالت . من عظيم ملوكها . قلت لها . أشيخ هو أم شاب . فنظرت إلى شزراً وقالت . إنك لأحمق أقول هو مثل القمر ليلة البدر أمرد أجرد وطرة رقعاء كحنك الغراب تعلوه شقرة فى بياض عطر لباس ضارب بالسيف طاعن بالرمح لاعب بالنرد والشطرنج ضارب بالعود والطنبور يغنى وينقر على أعدل وزن لا يعيبه شيء إلا انحرافه عنى لا نقصاً لى منه . بل حقداً لما رآنى عليه . قلت ياهذه وكيف صبرك عنه . فانشأت تقول :

أما النهار فمستهـــام واله	وجفون عينى ساجفات تدمع
والليل قد أرعى النجوم متفكراً	حتى الصباح ومقلتى لا تهجع
كيف اصطبارى عن غزال شادن	فى لحظ عينيـــه سهام تصرع
وجه يضيء وحاجبان تقوسا	وكأن جبهتـــه سراج يلمع
وبياض وجه قد أشيب بحمرة	فى وجنتيه كأنه مستجمع
والقد منه كالقضيب إذا زهى	والغصن فى قنوائه يترعرع
تمت خلائقه وأكمل حسنه	كمثل بدر بعد عشر أربع

قلت لها ياسيدتى مااسمه وأين يكون ، قالت تصنع به ماذا قلت اجهدفى لقائه وأتعرف الفضل بينكما فى الحال قالت على شريطة قلت ، وماهى قالت تلقانا إذا لقيته وتحمل لنا إليه رقعة قلت لا أكره ذاك قالت ، هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبى صفرة يكنى بأبى شجاع وقصره فى المربد الأعلى وهو أشهر من أن يخفى ثم صاحت فى الدار ياجوارى دواة وقرطاس وشمرت عن ساعدين كأنهما طومارا فضة ثم حملت القلم وكتبت بسم الله الرحمن الرحيم سيدى ترك الدعاء فى صدر رقعتى ينبىء عن تقصيرى ودعائى ان دعوت يكون هجنة فلولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير لما كان لما تكلفته خادمتك من كتب هذه الرقعة معنى مع إياسها منك وعلمها بتركك الجواب سيدى فجد بنظرة وقت اجتيازك فى الشارع إلى الدهليز تحيى بها أنفسا ميتة أسرى واخطط بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة فاجعلها عوضا من تلك الخلوات التى كانت بيننا فى الليالى الخاليات التى انا ذاكرتها سيدى ألست لك محبة وبك مدنفة فان رجعت مولاى إلى الأشبه بك وانقذتنى من عوارض التلف

كنت لك خادمة ولك شاكرة فلما فرغت من الكتاب يا أمير المؤمنين ناولته إياى فقلت لها ياسيدتى قد وجب حقك على ولزمتك حرمتى لطول وتوفى عليك وكنت قد سألت شربة ماء قالت استغفر الله مافهمنا عنك ثم صاحت فى الدار اخرجنا إلينا شرابا من ماء وغير ماء فما كان إلا أن أقبل ثلاثون وصيفة بأيديهن الطاسات والجامات وأقداح مملوءة ماء وثلجا وفقاعا وشرابا فشربت الماء ثم قلت ياسيدتى مع قدرتك على هذا من استواء الحال وكثرة الخدم والعبيد والجوارى فلم لا تأمرين إحدى الجوارى أن تقف مراعية للغلام حتى إذا مر أعلمتك فتخرجين إليه قالت لا تغلط ياشيخ فتمثلت :

عبالة عنق الليث من أجل أنه   إذا رام أمراً قام فيه بنفسه

ثم انصرفت عنها ياأمير المؤمنين فلما أصبحت غدوت على محمد بن سليمان فوجدت مجلسه محتفلا بالملوك وأبناء الملوك ورأيت غلاما قد زان المجلس وفاق من فيه حسنا وجمالا قد رفعه الأمير فوقه فسألت عنه فقيل ضميرة بن المغيرة فقلت فى نفسى بالحقيقة حل بالمسكينة ماحل هو والله قاتلها فيما أرى ثم قمت فقصدت المربد ووقفت على باب داره فإذا هو قد ورد فى موكب جليل فوثبت إليه وبالغت فى الدعاء والثناء ثم دنوت منه وفاوضته فى الذى جرى بينى وبينها وناولته الرقعة فلما قرأها ضحك ثم قال ياشيخ قد استبدلنا بها فهل لك فى أن تنظر إلى البديل قلت نعم فصاح فى الدار ياجوارى أخرجن إلينا لذيذا فما كان إلا أن طلعت جارية وضيئة الكمين ناهدة الثديين تمشى مشية مستوحل ترتج من دقة خصرها على كبر عجزها ذات فخذين وعجيزتين تختطفان الأنفس اختطافا على رأسها بطيخة من الكافور مكتوب على جبينها .

آه من الحب آه   ما أقتل الحب وأضناه

ودون ذلك مكتوب :

عيارة مياســـة فى الخطى   رخيمة الدال صيود للرجال

وقـــد كتبت بالغالية على عصابتها ثلاثة أسطر وهى :

إذا غضبت رأيت الناس قتلى   وإن رضيت فأرواح تعود

لها فى عينها لحظات سحر ‏ ‏ تميت بها وتحيى من تريد
وتسبى العالمين بمقلتيها ‏ ‏ فكل العالمين لها عبيد

فناولها الرقعة وقال اقرئى واجبى صاحبتك فلما قرأت الرقعة اصفرت وعرقت ومزقتها وضربت بها فى وجه الغلام وغابت فى الستر فقال لى أما أنت ياشيخ فاستغفر الله مما مشيت فيه قلت بل أنت استغفر الله من هجرانك إياها وتركك اتيانها والله ماأرى لها فى البشر نظيرا قال لا أفعل ولو أنها فى حسن يوسف وكمال حواء فخرجت يا أمير المؤمنين وأنا أجر ذيلى حتى وردت عليها فاستأذنت ودخلت فبدأت بى فقالت ماوراء الشيخ قلت البؤس واليأس قالت لاعليك فأين الله والقدر ثم أمرت لى بخمسمائة دينار وعشرة أثواب وخرجت من عندها وأنا ممتدح لآل سليمان فلم يكن لى والله إلا معرفة خبرها فى العام الذى عدت فيه إلى البصرة فوردت عليها فوجدت على بابها أمراً ونهياً وأسبابا لاتكون إلا على باب الخلفاء فاستأذنت فدخلت فإذا فوق رأسها ثلاثون رجلا من شيوخ وشبان وخدم وقوف بسيوفهم فلما نظرت إلى عرفتنى ووثبت إلى وقبلت رأسى وقالت ياشيخ الحمد لله الذى جعل العبيد بالصبر ملوكا وجعل الملوك بالتيه عبيداً إن الذين تراهم وقوفا أصحاب ضمرة يسلون سخيمتى ويسألوننى الرجوع له والله لا نظرت إليه فى وجه ولو أنه فى حسن يوسف وكمال حواء فسجدت يا أمير المؤمنين شماتة بضمرة وتقربا إلى الجارية فقال بعض حجاب ضمرة مهلا ياشيخ فمن طاب محضره طاب مولده ثم انصرفوا فناولتنى خريطة فيها أوراق فقالت هذا أول ماورد علينا منه فإذا فيها ثوب خز أبيض يقق مكتوب فيه بماء الذهب بسم الله الرحمن الرحيم لولا تغاضى عليك أدام الله حياتك لوصفت شطراً من غدرك ولبسطت سوط عتبى عليك وحكمت سيف ظلامتى فيك إذ كنت الجانية على نفسك والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء المؤثرة علينا فخالفت هواى وفرشت نفسك لها على حالتى جد وهزل وصحو وسكر والمستعان الله على ماكان من سوء اختيارك ولقد ضمنت رقعتى هذه أبيات شعر أنت المتفضلة بالنظر إليها وهى :

قطع قلبى فراقكم قطعاً ‏ ‏ وكدت أقضى لبينكم جزعا
ماتكحل العين بالرقاد ولا ‏ ‏ ينام جنبى فى الليل مضطجعاً
لاعيش لى مذنات ولا وجدت ‏ ‏ عيناى فى الأرض قط متسعاً

قلت لها أفلا تحدثيني كيف سليت عنه وابتلى قالت كيف لا أحدثك اقتصدت تفاحة جارية محمد بن سليمان فدعينا إلى خورنق لمحمد بن سليمان فلما طعمنا دعت لنا بالشراب فبينا نحن كذلك إذا بحراقة سلطانية قد وردت وفيها عدة من أبناء الملوك وفيهم هذا العيار ولا علم لى بمكانه وكنت حملت العود وغنيت .

أبلى فؤادى وشفنى الأرق والدمع من مقلتى يستبق
من حب ظبى أغن ذى دعج وقلبه للشقاء منطبق

فلما وجبت العتمة انصرفنا وأبطأت الجارية وأتانى هؤلاء القوم من عنده يسلمون سخيمتى ويستعطفونى عليه ثم انصرفت عنها يا أمير المؤمنين ودخلت الحمام من ساعتى فما كان إلا أن دخلت حتى أتانى غلامى فقال جماعة من جلة الناس قد طرقوا دارك يطلبونك فلبست ثيابى وخرجت مسرعا فإذا بضمرة قد كبس دارى فى عدة من الرؤساء فقال والله لا برحنا حتى تنزق علينا الخمسمائة دينار التى أخذتها من الجارية سيدتى قلت أى والله بالسمع والطاعة ثم جذبنى إلى نفسه فلم يزل يناظر فى أمرها حتى أقبل المساء ثم انصرف إلى رحله فلما كان من الغد وردت له رقعة مع خادم وكيس فيه ألف دينار واستزارنى فقبلت ذلك وصرت معه إليه فلما نظر إلى تنحى عن مقعده وأقعدنى ثم قال هذا قد أعددته للنيروز لسيدتى هدية وأنت أولى من تجشم مع الخادم إليها قلت السمع والطاعة ثم صاح بى الدارها توا الهدية فإذا مائة تخت من ثياب وصندوق من ذهب مقفل عليه فقال فى التخت والصندوق مبلغ ثلاثين ألف دينار وأنت أولى تفضل بالايصال فصرنا إليها واستأذنا فلما مثلنا بين يديها أنكرتنى وقالت من الشيخ قلت الخليع شاعر العراق ومعى هدية عبدك ضمرة فصاحت فى الدار لك فإذا جارية كأنها الظبية المنفلتة من الشبكة قالت لها خذى هذه الهدايا وفرقيها على جوارى الدار ثم قالت أيطمع الخنوص من أن يجتمع معى بعد قبولى الهدية فى ثلاثين سنة قلت لها العفو عند المقدرة يعدل عتق رقبة قالت ففى خمس عشرة سنة قلت لها انقصيها أولى بك قالت ففى ثلاث سنين قلت لها حطة أخرى وقد اجتمعنا قالت لا والله لا آكل ولا أشرب حتى آتية وأمرت أن يسرج لها وبادرت إلى باب ضمرة مبشراً فما وصلت وأسمعت صلاصل اللجم فإذا هى قد سبقتنى فى جواريها وخدمها فدخلت فإذاهما يتعانقان ويتعاتبان فقالت ياسيدتى ما أنتما إلى شىء أحوج منكما إلى خلوة

قالا هوذاك فانصرفت عنهما ثم كرت عليهما فاذا هى فى المرقد الأول جالسة عليهاجبةوشىء مطير وهى تعصر الماء عن ذوائبها وتصلح قرونها فاستحيتنى وقالت لا تفكرن فى ريبةفوالله ماصابنا البارحة حتى بعثت إلى عبد الرحمن بن أبى ليلى القاضى فزوجت نفسى سيدى ولكن صر إليه فانه فى المرقد الثانى فصعدت إليه فلما نظر إلى وثب إلى وقبل بين عينى وقال ياشيخ قد جمع الله بينى وبين سيدتى بك ثم دعابدواة وقرطاس وكتب إلى ابن نوح الصيرفى فى ثلاثة آلاف دينار فرجعت إليها فقالت بماذا برك سيدى فأقرأتها الرقعة فقالت ونعجل إليك مثلها فدعت بمال وطيار ووزنت ثلاثة آلاف دينار ودعت بعشرة أثواب من ثياب مصر وقالت هذه وظيفتك علينا كل عام فخرجت من عندها وأخذت مرفوعى من آل سليمان وانصرفت إلى العراق وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالسا وقال أوه ياحسين لولا أن ضمرة سبقنى إليها لكان لى ولها شان من الشان .

﴿ ومنه مع الشعراء ﴾ قال استأذنت بنت لعبد الملك بن مروان فى الحج فأذن لها وكتب إلى الحجاج يأمره بالتقدم إلى عمر بن أبى ربيعة أن لايذكرها فى شعره فلما بلغ عمر مقدمها لم يكن له همة إلا أن يتهيأ بأجمل مايقدر عليه من الحلل والثياب وضربت لها قبة فى المسجد الحرام فكانت تكون فيها نهارا فإذا أمست تحولت إلى منزلها لتنظر إليه وتجلس ازاء القبة وقد خبر عمر بشأنها فإذا أرادت الطواف أمرت جواريها فيسترنها بالمطاريف فكانت تتطلع إلى عمر كثيراً وكانت تسأل من دخل عليها عنه رجاء أن يكون قد قال شيئاً فلم يفعل حتى قضت الحج ورحلت ونزلت من مكة على أميال فأقبل راكب من مكة فسألته من أين أقبلت ، قال من مكة ، قالت عليك وعلى فرقة أنت منها لعنة الله قال ولم يا ابنة عبد الملك قالت قدمنا مكة فأقمنا أشهراً فما أستطاع الفاسق عمر بن أبى ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتا كنا نلهو بها فى سفرنا هذا قال فلعله قد فعل قالت فاذهب إليه واساله ولك فى كل بيت تأتينى به منه عشرة دنانير فاقبل الرجل وأتى عمر بن أبى ربيعة فاخبره الخبر فقال له فعلت ولكن أحب أن تكتم على قال أفعل ثم أنشده :

راع الفؤاد تفرق الأحباب	يوم الرحيل فهاج لى أطرابى
فظللت مكتئبا اكفكف عبرة	سحا تفيض كوابل الاسراب
لما تنادوا للرحيـــل وقربوا	بزل الجمال لطية وذهاب

كادالأسى يقضى عليك صبابة والوجه منك لبين إلفك كابى
قالت سعيدة والدموع زوارف منها على الخدين والجلباب
ليت المغيرى الذى لم تجزه فيما أطـال تصيدى وطلابى
كانت ترد لنـا المنى أيامنا إذ لا نلام على هوى وتصابى
أيام نـكتم ودنـا ونوده سرا مخافـة منطق المعتاب
أخبرت ماقالت فبت كأنمـا يرمى الحشا بنوافذ النشاب
فبعث جاريتى وقلت لها اذهبى قولى لهـا فى خفية وقراب
أسعيد ما ماء الفرات وطيبه منى على ظمإ وطيب شراب
بالذ منك وإن نأيت وقل ما ترعى النساء أمانة الغياب
إن تبذلى لى نائـلا أشفى به سقم الفؤاد فقد أطلت عذابى
وعصيت فيك أقاربى فتقطعت بينى وبينهم عرى الأسباب
فبقيت كالمهريق فضلة مائه فى حر هاجرة للمع سراب

ثم أتى إليها بالأبيات فاعجبت بها وأمرت جواريها بحفظها ثم وفت له بما وعدت وسلمت إليه فى كل بيت عشرة دنانير. وقال أخبرنا محمد بن خلف قال أخبرنى أبو بكر العامرى قال حدثنى موسى بن عمر بن أفلح مولى فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قال حدثنى بلال مولى ابن أبى عتيق قال قام الحارث بن عبد الله بن عباس بن أبى ربيعة من الحج فأتاه ابن أبى عتيق ، فقال ، كيف تركت أبا الخطاب فقال هجرت الثريا عمر فقال.

من رسولى إلى الثريا فإنى ضقت ذرعا بهجرها والكتاب
سلبتنى مجاجة المسك عقلى فسلوها بما يحل اغتصابى
أبرزوها مثـل المهاة تهادى بين خمس كواعب أتراب
وهى مكورة تحير منهـــا فى أديم الخدين ماء الشباب
وتـكنفنها كـواعب بيض واضحات الخدود والأقراب
فى سخاب من القر نفل والدر نفيس واها له من سخاب
قلت لما ضربن بالسجف دونى ليس هـذا لوردنا بثواب

فتبدت حتى إذا جن قلبى — حال دونى ولائد بالثياب
حين شب القتول والعنق منها — حسن لون يلف كالزرياب
ذكرتنى ببهجة الشمس لما — طلعت فى دجنة وسحاب
دمية عند راهب وقسيس — صوروها فى مذبح المحراب
فارجحنت فى حسن خلق عميم — تتهادى فى مشيها كالحباب
ثم قالوا تحبها قلت بهراً — عدد الرمل والحصا والتراب

وقال لغلامه انطلق بكتابى هذا إلى أبى عتيق بالمدينة فادفعه إليه فأقبل الغلام بالكتاب حتى دفعه إليه فلما قرأه قال والله أنا رسوله إليها فسار حتى قدم مكة لا يعلم به أهله فاتى منزله فوجده غائبا فانطلق غلام عمر إلى عمر ، فقال ، إن رجلا قدم وهو يطلبك من شأنه وهيئته كذا ، قال ، ويحك ذلك ابن أبى عتيق اذهب إليه فقل له إن مولاى يأتيك الآن وكان عمر على فرسخين بل على رأس ثلاثة أميال من مكة فاتاه الغلام فاخبره فقال اسرج لى أنت برذون عمر فإن دابتى قد تعبت وكانت فأسرجه له فركب وأتى الحى فصهل البرذون وسمعت الثريا صهيله ، فقالت لجواريها هذا هو برذون الخبيث عمر ثم دعت ببغلة لها فوضعت عليها رحلها فخرجت فإذا هى بابن أبى عتيق فقالت مرحبا بعمى ماجاء بك ياعم ، قال ، أنت والفاسق جئتما بى قالت أما والله لو بغيرك تحمل علينا ما أجبناه ولكن ليس لك مدفع أمر بنا نحوه فاقبل حتى انتهى إلى عمر فخرج عمر إليه وقبل يده ثم قال انزل جعلنى الله فداك ، فقال ماء مكة على حرام حتى أخرج منها ثم دعا ببغلته فركبها وانصرف إلى المدينة وخلا عمر بالثريا. وحدث الزبير بن بكار عن أبى محرم عن إبراهيم بن قدامة قال عمر بن أبى ربيعة ألا أحدثك حديثا حلواً ، قال قلت نعم قال بينا أنا جالس إذ جاءنى خالد الخريت ، فقال يا أبا الخطاب هل لك فى هند وصواحبها فقد خرجن إلى نزهة، قلت وكيف لى بذلك قال تلبس لبسة أعرابى وتعتم عمامته وتركب مركبه كانك ناشد ضالة ، قال ففعلت وجئت حتى وقفت عليهن أنشد ضالتى فقلن إنزل فنزلت وقعدت أحادثهن وأغازلهن فلما رمت النهوض قالت لى هند اجلس لاجلست أنت ألا ترى أنك وقفت علينا غريبا ونحن والله وقفنا على غربتك نحن بعثنا خالداً وخدعناه وأطمعناه فى

أنفسنا حتى جاء بك فقال خالد صدقن والله خدعتنى وخدعتك فجلست وتحدثنا فانشدتهن فقالت هند ياسيدى لقد رأيتنى منذ أيام وقد أصبحت عند أهلى فأدخلت رأسى فى جيبى ونظرت إلى هنى فاذا هو ملء الكف ومنية المتمنى فناديت ياعمراه ياعمراه ، قال عمر: فقلت يالبيك يالبيك ثلاثا ومددت فى الثالثة صوتى فضحكت وحادثتهن ساعـــة ثم ودعتهن وانصرفت فذلك قولى :

عرفت مصيف الحى والمتربعا ببطن حليات دوارس بلقعا
إلى السفح من وادى المغمس بدلت معالمه وبلا ونكباء زعزعا
لهند وأتراب لهند إذ الهوى جميع وإذ لم نخش أن يتصدعا
وإذ نحن مثل الماء كان مزاجه إذا صفق الساقى الرحيق المشعشعا
وإذ لا نطيع الـكاشحين ولا نرى لواش لدينا يطلب الصرم مطمعا

وقال عمر مارأيت يوما غابت عواذله وحضرت عواذره بأحسن من يومنا ولاصبوة كصبوتنا ولاقيادة كقيادة خالد ولأملح ولقد وصفت ذلك فى شعر ، فقلت فى تمام ماتقدم

أتانى رسول من ثلاث حرائر ورابعة يزكو لهـا الحسن أجمعا
فقلت لمطريهن فى الحسن إنمـا ضررت فهل تستطيع نفعافتنفعا
لئن كان ماحدثت حقا لما أرى كمثل الأولى أطريت فى الناس أربعا
وهيجت قلباً كان قدودع الصبا وأشياعه فاشفع عسى أن تشفعا
فقال تعال انظر فقلت فكيف لى أخاف مقاما أن يشيع ويشنعا
فقال اكتفل ثم التثم وأت باغيا فسلم ولا تـكثر بأن تتورعا
فإنى سأخفى العين عنك ولاترى مخافة أن يفشو الحديث فيسمعا
فاقبلت أهوى مثل ماقال صاحبى لموعده أزجى قعوداً موقعا
فلما توافقنا وسلمت أشرقت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لمـا عرفننى فقلن أمرؤ باغ أضل وأوضعا
فلما تنازعن الأحاديث قلن لى أخفت علينا أن نغر ونخدعا

فما جئتنا إلا على وفق موعـد　　على ملأ منا خرجنا له معـا
رأينا خلاء من عيون ومجلسا　　دميث الثرى سهل المحلة ممرعا
وقلن كريم نال وصـل كرائم　　وحق له فى اليوم أن يتمتعا
وفيهن هند تـكمل الهم والمنى　　وإخداع عينى كلما رمت مهجعا

قال ولما أنشد عمر بن أبى ربيعة ابن أبى عتيق قصيدته التى يقول فيها :

فتنها　طبـــة عالمـــة　　تخلط الجد مراراً باللعب
ترفع الصوت إذا لانت لهـا　　وتراخى عند سورات الغضب

قال ابن أبى عتيق امرأتى طالق إن لم يكن الناس فى طلب مثل هذه منذ قتل عثمان يجعلونها خليفة فلم يقدروا عليها وأنت تريدها قوادة ، قال ولما هجا كثير بنى ضمرة فقال

ويحشر نور المسلمين أمامهم　　ويحشر فى أستاه ضمرة نورها

اشتدت بنو ضمرة عليه وعلى عزة وأرادوا قتله ووضعوا له العيون فمكث شهراً لا يصل إليها فالتقى جميل وكثير فشكى أحدهما إلى صاحبه مايلقى ، فقال جميل أنا رسولك إلى عزة فأخبرنى ما كان بينكما ، قال آخر مالقيتها بالطلحة مع أتراب لها قال فأتاهم جميل وهو ينشد ذوداً له ففطنت عزة ، فقالت تحت الطلحة ألتمس الذودا هناك فانصرف جميل فاخبر كثيرا فلما كان فى بعض الليل أتيا الطلحة وأقبلت عزة وصاحبة لها فتحدثا مليا وجعل كثير يرى عزة تنظر إلى جميل وكان جميلا وكثير دميما فغضب كثير وغار عليها وقال لجميل انطلق بنا قبل أن يصبح علينا الصبح فانطلقا فعند ذلك يقول :

رأيت ابنة الشبلى عزة أصبحت　　كمحتطب مايلق بالليل يحطب
وكانت تمنينا وتزعم أننـا　　كبيض الأنوق فى الصفا المتغيب

ثم قال كثير لجميل متى عهدك ببثينة ، قال فى أول الصيف بوادى الدوم ومعها جواريها يغسلن ثيابا فخرج كثير حتى أناخ بهم وهو يقول :

وقلت لها يا عز أرسل صاحبى ... على بعد دار والرسول موكل
بأن تجعلى بينى وبينك موعدا ... وأن تأمرينى بالذى فيه أفعل
أما تذكرين العهد يوم لقيتكم ... بأسفل وادى الدوم والثوب يغسل

فعلمت بثينة ما أراد فصاحت اخسأ اخسأ فقال عمها مادهاك يابثينة ، قالت إن كلبا يأتينا من وراء هذا التل فيأكل مايجد ثم يرجع فرجع كثير . قال لجميل قد وعدتك التل فدونك فخرج جميل وكثير حتى انتهيا إلى الدومات وقد جاءت بثينة فلم تزل معه حتى برق الصبح وكان كثير يقول مارأيت مجلسا قط أحسن منه . عمر بن شبة عن اسحق بن ابراهيم الموصلى . قال حدثنى شيخ من خزاعة قال ذكرنا ذا الرمة وعندنا عصمة بن مالك الفزارى وهو يومئذ ابن عشرين ومائة سنة فقال اياى فاسألوا عنه كان من أظرف الناس خفيف العارضين آدم حلو المضحك إذا أنشد اختصر وأتانى يوما فقال إن مية منقرية وأن بنى منقر أخبث حى وأعلمه باثر فهل عندك من ناقة نزورها عليها قلت أى والله عندى اثنتان قال فسرنا فخرجنا حتى أشرفنا على الحى وهم خلوف فعرف النساء ذا الرمة فعدلن بنا إلى بيت مى وأنخنا عندهن فقلن لذى الرمة أنشدنا يا أبا الحارث فقال أنشدهن فأنشدتهن قوله:

نظرت إلى أظعان مى كأنها ... ذرى النخل أو أثل تميد ذوائبه
فاشعلت النيران والصدر كاتم ... بمغرورق نمت عليه سواكبه
بكى وامق جاء الفراق ولم تجل ... جوائلها أسراره ومعاتبه

فقالت ظريفة منهن ابكى اليوم فررت فيها حتى انتهيت إلى قوله :

إذا سرحت من حب مى سوارح ... على القلب آبته جميعاً عوازبه

فقالت الظريفة قتلته قتلك الله فقالت ماأصحه وهنيئاً له فتنفس ذو الرمة تنفسا كادت حرارته تساقط لحيى ثم مررت فيها حتى انتهيت إلى قوله :

وقد حلفت بالله مية ما الذى ... أقول لها إلا الذى أنا كاذبه
إذا فرمانى الله من حيث لا أرى ... ولازال فى أرضى عدو أحاربه

فالتفت مى إلى ذى الرمة فقالت ويحك خف عواقب الله ثم أنشدت إلى أن انتهيت إلى قوله :

إذا نازعتك القول مية أو بدا　　لك الوجه منها أو نضا الدرع سالبه
فيالك من خد أسيل ومنطق　　رخيم ومن خلق يعلل جاذبه

فقالت تلك الظريفة أما القول فقد نازعتك والوجه فقد بدالك فمن لنا بأن ينض الدرع سالبه فقالت لها مى قاتلك الله ماأنكر ماتجيئين به اليوم فتحادثنا ساعة ثم قالت تلك الظريفة ما أحوج هذين إلى الخلوة فنهضت وسائر النساء فصرت إلى بيت قريب منهما حيث أراهما فما ارتبت بشىء ولارأيت أمراً كرهته فلبث ساعة ثم أتانى ومعه قارورة وثلاث قلائد فقال هذا طيب زودتناه مى وقلائد أتحفتك بها ابنة الجودى فكنا نختلف إليها حتى انقض المربع ودعانا الصيف فرحلوا قبلنا وأتانى ذو الرمة فقال قد ظعنت مى فلم يبق الا الديار والنظر إلى الآثار فاخرج بنا إلى دارها فخرجت معه حتى إذا وقفنا عليها أنشأ يقول :

ألا فاسلمى يادار مى على البلى　　ولازال منهلا بجرعائك القطر

حتى أتى على آخرها ثم انهملت عيناه بعبرة فقلت له ماهذا قال انى لجليد وإن كان منى ماترى فما رأيت أحداً أحسن شوقا وصبابة وعزاء منه : وعن سليمان رواية أبى نواس . قال كنت مع أبى نواس أسير حتى انتهينا إلى درب القراطيس فخرج من الدرب شيخ نصرانى وخلفه غلام كأنه غصن بان يتثنى كأحسن مارأيت فقال ياسليمان أما ترى الدرة خلف البعرة ثم قال هل لك أن تأخذ منى رقعة فتوصلها إليه قلت بلى فكتبها ودفعها إلى فاوصلتها إليه فإذا أملح غلام وأخفه روحا فقال من صاحب الرقعة قلت أبو نواس قال أين هو . قلت على باب درب القراطيس قال فليقف مكانه حتى أروح وكان فى الرقعة :

تمر فاستحييك أن أتكلما　　ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما
ويهتز فى ثوبيك كل عشية　　قضيب من الريحان أضحى منعماً
فحسبك أن الجسم قد شفه الهوى　　وأن جفونى فيك قد ذرفت دما

أليس عجيب عند كل موحد غزال مسيحى يعذب مسلما
فلو لا دخول النار بعد تنصر عبدت مكان الله عيسى بن مريما

وحدثنا الجماز قال كنت يوما على باب عدى الدراع فمر بى أبو نواس شبيها بالمجنون فإذا خلفه غلام كأنه مهر عربى فقلت له مالك فقال .

إن الرزية لارزية مثلها عوز المكان وقد تهيا المركب

فمدلت به وبالغلام فاتما ماسائر يومهما قال وكان عبيد الله بن يحى يتعشق غرما من دار المتوكل يقال له رشيق فلا يصل إليه حتى طال ذلك عليه وكان أبو الأخطل يخافه فى الموكب وينبسط إليه فقال له عبيد الله يوما يا أبا الاخطل من لى برشيق فقال الصفر الصغار والبيض الصحاح وجعل عبيد الله يلقى رشيقا فى الدار فيخلو به ويساره ويعطيه مائة دينار فى كل لقية إلى أن علم رشيق بما فى نفس عبيد الله وكان يتعذر عليهما الاجتماع لقضاء الوطر واللذة فركب أمير المؤمنين يوما ومعه أبو الأخطل فطالب عبيد الله وتعمد أبو الأخطل رشيقا فرده إليه فلما ظفر به فى منزله خاليا إقضى حاجته منه وركب يريد أمير المؤمنين مسرعا فوصل إلى الموكب وقد تصبب عرقا فقال أبو الأخطل :

لاخير عندى فى الخليل ينام عن سهر الخليل
قولوا لأكفر من رأيت لكل معروف جليل
هل تشكرن لى الغداة تلطفى لك فى الرسول
إذ نحن فى صيد الجبال وأنت فى صيد السهول

﴿ ماقيل فيه من الشعر ﴾

وتمشيت فى الجميل فأسرعت وان كنت لست تات جميلا
إن من مد للقيادة رجلا لحرى بأن يكون نبيلا

وقال آخر :

لهراه لإتلاف ومــلاه لاختلاف
ليس يقرأ من كتاب الله إلا لإيـلاف

وقال آخر :

إن الرقاشي من تكرمه بلغه الله منتهى همه
يبلغ من بره ورأفته حملان أضيافه على حرمه

﴿ ومن محاسن ذلك ﴾ حدثنا على بن الحسين بن على بن عثمان بن على بن الحسن قال كانت ضمير جارية مولدة لميمونة بنت الحسن بن على بن زيد فأدبتها وعلمتها الغناء فبرعت فيه وكانت من أحسن الناس وجها وبدنا وأبرعهم غناء وضربا فأ طيت بها مولاتها عشرة آلاف دينار فلما أرادت أن تبيعها وأحضر المال بكت وقالت ياسيدتى ربيتينى واتخذتينى ولدا ثم تريدين بيعى فأتغرب عنك ولا أرى وجهك قالت أشهد الله ومن حضر أنك حرة لوجه الله فلما ماتت ميمونة خطبها آل أبى طالب وغيرهم فغلب عليها جعفر بن حسن بن حسين فتزوجها وأحبها حبا شديدا فقدم بها البصرة فقال على بن الحسين وكان يجالسها ويسمع غناءها فأردت الخروج إلى الرضى بخراسان فودعت جعفرا وخرجت فأقمت بالأهواز أياما أتهيأ للخروج على طريق فارس فورد على كتاب جعفر انه قد وقع بينه وبين ضمير شر وأنها قد أغلظت له حتى تناولها ضربا وأنها على مفارقته وسأ لى القدوم لأصلح بينهما فقال على بن الحسين وكانت لى حاجة بالرضى وكنت أرجو لذلك فى وجهى منه ومن المأموم الفنى فلما قرأت كتابه لم أعط صبرا حتى انصرفت راجعا الى البصرة فجئت إلى جعفر أفاوقعت به شتما وعذلا ثم ارسلت اليها أقسمت عليك بحقى الا رجعت فخرجت مرهاء شعثة وسخة الثياب حتى جلست فجلست بينهما فاقبل جعفر يعطينى من نفسه لها كل ماأريد وهى ساكتة ثم قلت ياجارية هاتى العود فأخذته فأصلحت منه حتى تغنت وهى تبكى ودموعها تكف .

أرتجى خالقى وأعلم حقـــا ‏ ‏ أنه مايشـــاء ربى كفانى
لاتلمـــنى وارفق خليلى بشانى ‏ ‏ إنه ماعنـاك يوما عنانى

قال على بن الحسين فوالله مارأيت أحسن منها ولا أرق من غنائها بهذا الصوت فمابرحت حتى اصطلحا وألهتنى والله عن الغنى فاقمت بالبصرة ، وعن الـكلبى قال بينا عمر بن أبى ربيعة يطوف بالبيت فى حال نسكه فإذا هو بشاب قد دنا من شابة ظاهرة الجمال فالقى اليها كلاما فقال عمر ياعدو الله فى بلد الحرام وعند بيته تصنع هذا فقال ياعماه إنها ابنة عمى وأحب الناس الى وإنى عندها لـكذلك وماكان بينى وبينها من سوء قط أكثر مما رأيت قال ومن أنت قال أنا فلان ابن فلان قال أفلا تتزوجها قال أبى على أبوها قال ولم قال يقول ليس لك مال فقال انصرف والقنى فلقيه بعد ذلك فدعى ببغلة فركبها ثم اتى عم الفتى فى منزله فخرج اليه فرحا ورحب وقرب فقال ماحاجتك قال لم أرك منذ أيام فاشتقت اليك قال فانزل فأنزله والطفه فقال له عمر فى بعض حديثه إنى رأيت ابن أخيك فاعجبنى تحركه ومارايت من جماله وشبابه قال له أجل مايغيب عنك أفضل مما رأيت قال فهل لك من ولد قال لا الا فلانة قال فما يمنعك أن تزوجه إياها قال إنه لامال له قال فإن لم يكن له مال فلك مال قال فانى أضن به عنه قال لـكنى لاأضن به عنه فزوجه واحتكم قال مائة دينار قال نعم فدفعها عنه وتزوجها الفتى وانصرف عمر الى منزله فقامت اليه جارية من جواريه فاخذت رداءه والقى نفسه على فراشها وجعل يتقلب فاتته بطعام فلم يتعرض له فقالت اظنك والله قد وجدت بعض ماكان يعرض لك من حكم النساء فلا تكتمها فقال هاتى الدواة فـكتب

تقول وليدتى لمـــا رأتنى ‏ ‏ طربت وكنت قد اقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقا ‏ ‏ وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء ‏ ‏ إذا ماشئت فارقت القرينا
بعيشك هل أتاك لها رسول ‏ ‏ يسرك أم لقيت لهـا خدينا

فقلت شكا إلى أخ محب كبعض زماننا إذ تعلمينا
وذو القلب المصاب ولو تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا
فقص على ما يلقى بهند وأشبه ذاك ما كنا لقينا
فكم من خلة أعرضت عنها وكنت بودها دهراً ضنيناً
أردت فراقها فصبرت عنها ولو حن الفؤاد بها جنونا

قال : وقال عمر بن أبى ربيعة بينا أنا خارج محرما إذ اتتنى جارية كأنها دمية فى صفاء اللاجين فى ثوب قصب كقضيب على كثيب فسلمت على وقالت أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها قلت أنا والله ذاك قالت فهل لك أن أريك أحلى الناس وجها قلت ومن لى بذلك قالت أنا والله لك بذلك على شريطة قلت وماهى قالت أعصبك وأربط عينيك وأقودك ليلا قلت لك ذاك قال فاستخرجت معجراً من قصب عجرتنى به وقادتنى حتى أتت بى مضربا فلما توسطته فتحت العجارة عن عينى فاذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرر بحمرة مفروش بوشى كوفى وفى المضرب ستارة مضروبة من الديباج الاحمر عليها تماثيل ذهب ومن ورائها وجه لم أحسب أن الشمس تطلع من جبينها وتغرب فى شقائق خدها قالت أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها قلت أنا ذاك يامنتهى الجمال قالت أنت القائل :

بينما ينعتننى أبصرننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى أما تعرفن ذا قالت الوسطى بلى هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر

قلت أنا والله قائلها ياسيدتى قالت ومن هؤلاء قلت ياسيدتى والله ماهو عن قصد منى ولا فى جارية بعينها ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء. قالت ياعدو الله يافاضح الحرائر أنت قد فشا شعرك بالحجاز وأنشده الخليفة والأمراء ولم يكن فى جارية بعينها يا جوارى أخرجنه فخرجت الوصائف فاخرجننى ودفعننى إلى الجارية فعجرتنى وقادتنى إلى مضربى فبت بليلة كانت أطول من سنة فلما أصبحت بقيت هائما لا أعقل ما أصنع فمازلت أرقب الوقت فلما كان وقت المساء جاءتنى الجارية وسلمت على وقالت يا عمر هل رأيت ذلك الوجه قلت أى والله قالت فتحب أن أريكه ثانية قلت إذا تكرمت فتكونين أعظم

الناس على منة فقالت على الشريطة فاستخرجت المعجر وعجرتنى وقادتنى فلما توسطت المضرب فتحت العصابة عن وجهى فاذا انا بمضرب ديباج احمرمدثر ببياض مفروش بفرش أرمنى فقعدت على نمرقة من تلك النمارق فاذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر تتمايل من غير سكر فقعدت كالخجلة فسلمت على وقالت أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها قلت أنا ذاك قالت أنت القائل :

وناهدة الثديين قلت لها اتكى ... على الرمل فى ديمومة لم توسد
فقالت على اسم الله أمرك طاعة ... وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
فمازلت فى ليل طويل ملثما ... لذيذ رضاب المسك كالمتشهد
فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى ... فقم غيرمطرود وإن شئت فازدد
فما ازددت منها واتشحت بمرطها ... وقلت لعينى اسفحا الدمع من غد
فقامت تعفى بالرداء مكانهـــا ... وتطلب شذرا من جمان مبدد

قلت أنا قائلها قالت فمن الناهدة الثديين قلت ياسيدتى قد سبق فى الليلة الأولى والله ماهو منى قصد ولا فى جارية بعينها ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء قالت ياعدوالله أنت قد فشا شعرك بالحجاز ورواه الخليفة وتزعم أنه لم يكن فى جارية بعينها ياجوارى ادفعنه فوثبت الجوارى فأخرجننى ودفعننى إلى الجارية فعجرتنى وقادتنى إلى مضربى فبت فى ليلة كانت أطول من الليلة الأولى فلما أصبحت أمرت بخلوق فضرب لى وبقيت ارقب الوقت هائما فلما كان وقت المساء جاءتنى الجارية فسلمت على وقالت ياعمرهل رايت ذلك الوجه قلت أى والله قالت أفتحب أن أريكه الثالثة قلت اذا تكونين أعظم الناس على منة قالت على الشريطة قلت نعم فاستخرجت المعجر وعجرتنى به وقادتنى حتى اتت بى المضرب فلما توسطته فتحت العصابة عن عينى فاذا أنا فى مضرب ديباج أخضر مدثر بحمرة مفروش بخز أحمر وإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر كحورالجنان فسلمت على وقالت أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها قلت أنا ذاك قالت أنت القائل :

نعب الغراب ببين ذات الدملج ... ليت الغراب ببينها لم يشحج

مازلت أتبعهم وأتبع عيسهم حتى دفعت إلى ربيبة هودج
قالت وعيش أخي وحرمة والدي لأنبهن الحي إن لم تخرج
فلثمت فاها آخذاً بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
فتناولت كفي لتعرف مسها بمخضب الأطراف غير مشنج

قلت أنا قائلها : قالت : ياعدو الله أنت الذي فضحتها ونفسك وجهى من وجهك حرام إن عدت إلى يا جوارى أخرجنه فوثب إلى الوصائف وأخرجنني ودفعنني إلى الجارية فمجرتني وقادتني وقد كنت عند خروجي من مضربى ضربت يدى بالخلوق وأسدلت عليها ردائى فلما صرت إلى باب مضربها أخرجت يدى ووضعتها على جانب المضرب وضعا بينا فلما أصبحت صحت بغلمانى وعبيدى ولى ألف عبد من أتانى بخبر المضرب الذى ضرب فيه بكذا وكذا فهو حر لوجه الله فلما كان فى وقت المساء أتت وليدة سوداء ، فقالت. قد عرفت المضرب وهو لرملة أخت عبد الملك بن مروان فأعتقتها وأمرت لها بمائتى دينار وأمرت بمضربى فقلع وضرب بحذاء مضربها وكتب بالخبر إلى عبد الملك بن مروان فكتب إليها بالرحيل فركبت هودجها وركبت فرسى فزاحمتها فى بعض الطريق فأشرفت على من هودجها ، فقالت : إليك عنى أيها الرجل ، قلت . خاتم أو قميص أذكرك به ، فقالت لبعض جواريها ألقى إليه قميصا من قمصى فأخذته وأنا أقول :

فلا وأبيك ماصوت الغواني ولا شرب التى هى كالفصوص
أردت برحلتى وأريد حظا ولا أكل الدجاج ولا الخبيص
قميص ما يفارقنى حياتى أنيس فى المقام وفى الشخوص

وجعلت أنزل بنزولها وأركب بركوبها حتى كنا من الشام على ثلاث مراحل فاستقبلها عبد الملك فى خاصته فدخل إليها ثم قال يارملة ألم أنهك أن تطوفى بالبيت إلا ليلا فى الجوارى وفى الجوارى الخدم الوكلاء لئلا يراك عمر بن أبى ربيعة ، قالت والله وحياة أمير المؤمنين مارآنى ساعة قط فخرج من عندها فبصر بمضربى ، فقال ، لمن المضرب قيل لعمر ابن أبى ربيعة قال على به فأتيته بلا رداء ولا حذاء فدخلت عليه وسلمت عليه فقال ياعمر

ما حملك على الخروج من الحجاز من غير إذنى ، قلت شوقاً إليك يا أمير المؤمنين وصبابة إلى رؤيتك فاطرق مليا ينكت فى الارض بيده ثم رفع رأسه فقال ياعمر هل لك فى واحدة ، قلت وما هى يا أمير المؤمنين قال زملة أزوجكها قلت ياأمير المؤمنين وإن هذا لكائن ،قال أى ورب السماء ثم قال قد زوجتك فادخل إليها من غير أن تعلم فدخلت عليها فقالت من أنت هبلتك أمك فقلت يا سيدتى أنا المعذب فى الثلاث فارتحلت وأنا عديلها فأنشأت أقول :

لعمرى لقد نلت الذى كنت أرتجى　　وأصبحت لا أخشى الذى كنت أحذر
فليس كمثلى اليوم كسرى وهرمز　　ولا الملك النعمان مثلى وقيصر

فلم أزل معها بأحسن عيش وغبطة .

﴿ محاسن الدبيب ﴾

الأصمعى . قال ، أخبرنى رجل من بنى أسد أنه خرج فى طلب إبل قد ضلت فبينا هو يسير فى بلاء وتعب وقد أمسى فى عشية باردة إذ رفعت له أعلام . قال : فقصدت بيتاً منها فإذا أنا بامرأة جميلة ذات جرالة فسلمت فردت على السلام ثم قالت أدخل فدخلت فبسطت لى ومهدت وإذا فى حجرها صبى أطيب ما يكون من الولدان فبينا هى تقبله إذ أقبل رجل أمام الإبل دميم المنظر ضئيل الجسم كأنه بعرة دمامة واحتقاراً فلما بصر به الصبى هش إليه وعدا فى تلقائه فاحتمله وجعل يقبله ويفديه . فقلت : فى نفسى أظنه عبداً لها فجاءنى ووقف بباب الخيمة وسلم فرددت عليه السلام ، فقال ، من ضيفكم هذا فأخبرته فجلس إلى جانبها وجعل يداعبها فقمت أنظر إليها تارة وإليه أخرى أتعجب من اختلافهما كأنها الشمس حسناً وكأنه القرد قبحا ففطن لنظرى . وقال . يا أخا بنى أسد أترى عجبا . قال . تقول أحسن الناس وجها وأقبح الناس وجها فليت شعرى كيف جمع بينهما أخبرك كيف كان ذلك . قلت ما أحوجنى إلى ذلك : قال ، كنت سابع إخوتى كلهم لو رأيتنى معهم ظننتنى عبداً لهم وكان أبى وإخوتى كلهم أصحاب إبل وخيل وكنت من بينهم مطروحا لكل عمل دونى للعبودية تارة ولرعى الإبل أخرى فبينا أنا ذات يوم تعب مكتئب إذ ضلت لنا بعير فتوجه إخوتى كلهم فى بغائه فلم يقدروا عليه فأتوا أبى وقالوا ابعث لنا فلاناً ينشد لنا هذا البعير فدعانى أبى وقال اخرج فانشد هذا البعير . فقلت والله ما أنصفونى ولا بنوك أما إذا الإبل درت ألبانها وطاب ركوبها فأنتم جماعة أهل البيت أربابها وإذا ندت ضلالها فأنا باغيها ، فقال لى يا لكع فإنى أراه آخر

يومك فغدوت مقهوراً خلق الثياب حتى أتيت بلاداً لا أنيس بها فطفقت يومي ذلك أجول القفر فلما أمسيت رفعت لي أبيات فقصدت أعظم بيت منها فإذا امرأة جميلة مخيلة للسؤدد والجزالة فبدأتني بالتحية وقالت انزل عن الفرس وأرح نفسك فأتتني بعشاء فتعيشت وأقبلت هذه تسخر مني وتقول ما رأيت كالمشية أطيب ريحاً منك ولا أنظف ثوباً ولا أجمل وجهاً ، فقلت ، ياهذه دعيني وما أنا فيه فإني عنك في شغل شاغل فأبت علي . وقالت هل لك أن تلج على السجف إذا نام الناس فأغراني والله الشيطان فلما شبعت من القرى وجاء أبوها واخوتها فضجعوا امام الخيمة قمت ووكزتها برجلي قالت ومن أنت قلت الضيف ، قالت لا حياك الله أخرج عليك لعنة الله فعلمت أني لست في شيء من أمرها فوليت راجعاً فواثبني كلب لهم كأنه السبع لا يطاق فأراد اكلي فأنشب أنيابه في مدرعة صوف كانت علي وجعل يمزق فردني القهقرى وتعذر علي الخلاص فأهويت أنا والكلب من قبل عتمي في بئر فأحسن الله إلى أنه لا ماء فيها فلما سمعت المرأة الواغية أتت بحبل فأدلته وقالت ارتق لعنك الله فوالله لولا أنه يقتص أثري غداً لوددت أنها قبرك فاعتنقت الحبل فلما كدت أن أتناول يدها قضى أن تهور ما تحت قدميها فإذا أنا وهي والكلب في قرار البئر بئر أيما بئر أنما هي حفرة لا طي لها ولا مرقاة كأشد بلية بنا عضنا الكلب ينبح من ناحية وهي تدعى بالويل والثبور من ناحية وانا منقبع قد برد جلدي على القتل من ناحية فلما أصبحت أمها فقدتها فلما لم ترها أتت أباها فقالت ياشيخ أتعلم أن ابنتك ليس لها أثر بحس وكان أبوها عالماً بالآثار تابعاً لها فلما وقف على شفير البئر ولى راجعاً فقال لولده يابني أتعلمون أن أختكم وضيفكم وكلبكم في البئر فبادروا كالسباع فمن بين آخذ حجرا وآخر سيفاً أو عصاً وهم يومئذ يريدون أن يجعلوا البئر قبري وقبرها فلما وقفوا على شفير البئر قال أبوهم إن قتلتم هذا الرجل طولبتم بدمه وإن تركتموه افتضحتم وقد رأيت أن أزوجها إياه فوالله مايقدح لها في نسب ولا في حسب ثم قال لي افيك خير فلما شممت روح الحياة وثاب إلى عقلي . قلت وهل الخير كله إلا في فهات اختكم فقال . مائة بكرة وبكرة وجارية وعبد ، فقلت لك ذلك وان شئت فازدد فأخرجت أولا والكلب ثانياً واخرجت ثالثاً فأتيت ابي ، فقال لا : افلحت فأين البعير . قلت اربع عليك ايها الشيخ فإنه كان من القصة كيت وكيت ، قال افعل والله ولا اخذلك فدعا بالإبل فاعد منها مائة بكرة وبكرة وسقناها مع جارية وعبد واخذت منه هذه غرة نفسها ، قال هي والله كذلك وجعلت تصدف عن حديث زوجها صدوف المهرة العربية سمعت لجامها وربما قالت لا أطاب الله خبرك .

{ ضده — مساوىء الدبيب }

قال وقيل لخراش الأعرابي حدثنا ببعض هناتك ، قال : خرجت فى بغاء ذود لى فدفعت فى عشية شاتية إلى أخبية كثيرة فضافوا وحيوا ورحبوا فلما أردت النوم أقاموا فتاة لهم من موضع مبيتها وجعلونى مكانها لئلا أتأذى بالغنم وإنى لمضطجع إذا أنا بيد إنسان يحامشنى ويريد فى الظلمة مؤاتاتى فقعدت فاذا أنا برجل يمد يده ومعه علبة فيها أرنب مشوية فأخذتها وجعلتها فى شىء كان معى ثم مد يده ثانيا فناولته يدى فانبضنى على غرمول كمثل الوتد فلم أنفر منه ولم أره وحشة وجردت ما عندى وتناولت يده فانبضته على مثل ما انبضنى عليه ففطن ورمى بملحفة خز كانت عليه ووثب مذعورا فنفرت الابل وهاجت الغنم وكدت أغشى لما بى من الضحك وأخفيت ما بى وكتمته فلما أصبحت ركبت راحلتى ومعى الملحفة والعلبــة والأرنب فلما امتد الضحى إذا أنا بإبل فأخذت نحوها فإذا شاب حسن الهيئة فسلمت فرد السلام ثم قال إن كان معك ما نأكل نصب من هذا الوطب فأخرجت العلبة فلمـــا رآها عرفها وقال إنك هو ، قلت وما هو ، قال صاحب البارحة قلت نعم إن كنت إياه قال الحمد لله الذى أتى بك إذ لو لم تأت لظننت أنى أوسوس . وذلك أنى لصاحبة الستر عاشق وتعلم ما فعلت وفعلت البارحة ولا تطيقت له حتى ابتلانى الله بك البارحة وجعلت أقول حين أقبضتنى عليه أتراها تحولت رجلا وإنى لفى شك من أمرى حتى أتانى الله بك : فأكلت أنا وهو الأرنب وشربنا من اللبن وصرنا أصدقاء : الأصمعى قال أتى خالد بن عبد الله أعرابى فأضافه وأحسن إليه وبذل له صحن الدار فلما كان فى بعض الليل أشرف عليه يتعاهد منه ما كان يتعاهد من ضيفه فاذا هو قد دب على جارية وهو على بطنها فأعرض عنه فما لبث الأعرابى أن فرغ وقام يمسح فيشلته بالحائط فضربته عقرب فصاح واستغاث وأشرف خالد عليه وهو يقول :

ودارى إذا نام سكانها ... تقيم الحـــدود بها العقرب
إذا غفـــل الناس عن دينهم ... فإن عقاربنا تغضب

قال وكان أعرابى ضيفا لقوم فنظر إلى جارية جميلة فدب إليها فاذا عجوز فى صحن

الدار تصلى فعاد إلى فراشه ثم عاودها فنبح الكلب ثم عاد إليها فاذا القمر قد طلع فأنشأ يقول :

لم يخلق الله خلقا كنت أكرهه　　إلا العجوز وعين الكلب والقمر
هذا يصيح وهذا يستضاء به　　وهذه شيخة قوامة السحر

وقال وشرب سعيد بن حميد البصرى عند راشد فدب على غلامه فكتب إليه سعيد :

ما سمعنا من قبلها بأديب　　بارع الظرف ماجد قمقام
ضل عنه وهو المهذب علما　　فتكات الكئوس بالأحلام
أين ما جاء من حديث رسول الله　　مولاى سيد الحكام
ما على مثقل من النوم والسكرا　　ن عيب فيما أتى من آثام
ثم أين الذى به حكم المأ　　مون فى الظرف منه والاسلام
أيما ماجد أراد سروراً　　باجتماع من معشر الندام
فعليه طى البساط بما قد　　سنه السكر من قبيح وذام
حلت بينى وبين عقلى بأرطا　　لك والمترعات من كل عام
ثم وكلت فى السوف رشيقاً　　فسقانى بطرفه والمدام
ثم باكرتنى بعتبك واللو　　م لقد حدت عن سبيل الكرام
وتغضبت أننى قدت عمراً　　ثم ثنيت بعده بغرام
هل رأيت الإله يأخذ مجنو　　نا بسكر أو حالما فى منام
لن ترانى معاشراً لك ما عشت　　ولو دمت عائشاً ألف عام
أو ترى تائباً وتستغفر الله　　لما كان من شنيع الكلام

فأجابه راشد فقال :

يا أبا جعفر سليل المعالى　　ونجيب الأخوال والأعمام
إن يكن قد أتاك عنى مزح　　لم يكن عن حقيقة فى الكلام
أو أكن فيه كالذى كان يغدو　　بسلام عليك فى اللوام

إننى عـــالم بأنك لم تأ ... ت قبيحاً ولا ارتـكاب الاثام
هو ذنب المدام لا ذنب خل ... لم يزل حافظا لعهد الذمام
ثم ذنب العيون يا ابن حميـــد ... فله الذنب بعد إست غرام
قعـــدا فى طريق إيرك حتى ... عرضاه للظــ والاتهام
فتغمـــد أخاك بالصفـ ... ـح فالصفح دليل على سجايا الكرام
إننى تائب وأستغفر الله لما ... كـــان من شنيـــع الـكلام

ما قيل فى ذلك من الشعر :

فما أعين عشر على ساق نرجس ... تضاحك عين الشمس بالمقل الصفر
بأحسن ممن زارنى بعد هجعة ... يميس هوينا فى الظلام على ذعر

قال ودب رجل على قينة فى مجلس فغنت :

ماذا يشوش طـــرتى ... يا قوم فى وقت السحر
ماذا يعـــالج تـكتى ... ويلاه عـــذبنى السهر

وقال على بن حمزة :

متورد الخدين من خجل ... متخاذل الأعضاء من كسل
خاض الدجا والشوق يحمله ... وأتاك يمشى غير منتعل
ما راعنى إلا تدافعـــه ... كالغصن بين الصدر والـكفل

وقال عمر بن ابى ربيعة المخزومى :

قالت وأبثثتها سرى وبحت به ... قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى فقلت لها ... غطى هواك وما ألقى على بصرى

﴿ محاسن الباه ﴾

حكى عن عالج جارية مكشوح أنها حدثت مولاتها أنها كانت تغتسل كل يوم فسألتها

عن ذلك ، فقالت يا هذه إنه يجب على المرأة ما يجب على الرجل بعد احتلامه ، قالت أو تحتلمين قالت إنه لا تأتي علي ليلة لا أجامع فيها إلا واحتلم ، قالت فكيف يكون ذلك قالت أرى كأن رجلا جامعني ولقد رأيت ليلة كأني مررت بدكان أبي مالك الطحان وبغل له واقف قد أدلى ورماني تحته فاحتلمت ثم انتبهت وأنا أجد مسكة في مراق بطني قال وكانت مهدية بنت جبير التغلبية تقول ما في بطن الرجل بضعة أحب إلى المرأة من بضعة تناط بعقد الحالبين ومنفرج الرجلين ، حدثني جهم قال قلت لامرأة من كلب ما أحب الأشياء من الرجال إلى النساء قالت ما يكثر الأعداد ويزيد في الأولاد وقال أبو ثمامة لامرأة من زبيدة وهي تبكي عند قبر . من الميت ؟ قالت كان يجمع بين حاجبي والساق ويهزني هز الصارم الأعتاق ووالله لولا ما ذكرته لك ما استهلت بالدموع عيناي وقد كذبتك امرأة تبكي على زوجها لغير ما أعلمتك قال وركب الرشيد حماراً مصريا وطاف على جواريه ، فقالت له واحدة يا مولاي ما أكثر ما يركب هذا الحمار ، قال لأنه يسب طيفور ، قالت فمن يسب طيفور يركب قال نعم قالت ففي حر أم طيفور قال فنزل وواقعها وأنشد في مثله :

نظرت إليها حين مرت كأنها　　على ظهر عادى فتاة من الجن
ولي نظرة لو كان يحبل ناظر　　بنظرته أنثى لقد حبلت مني

﴿ ضده في مساوىء العنين ﴾

قال بعضهم تزوج العجاج امرأة يقال لها الدهناء بنت مسحل فلم يقدر عليها فشكت ذلك إلى أهلها فسألوه فراقها فأبى وقال لأبيها تطلب لابنتك الباه قال نعم عسى أن ترزق ولداً فان مات كان فرطاً وإن عاش كان قرة عين فقدموه إلى السلطان فأجله شهراً ثم قال :

قد ظنت الدهناء وظن مسحل　　أن الأمير بالقضاء يعجل
عن كسلاتي والحصان يكسل　　عن السفاد وهو طرف هيكل

ثم أقبل على امرأته فضمها إلى صدره فقالت :

تنح لن تملكني بضم ولا بتقبيل ولا بشم

ابن أبي الدنيا أن أعرابيا أخبره أن امرأة منهم زفت إلى رجل فعجز عنها فتذاكر الحي أمر الضعفاء من الأزواج عن الباه وامرأة الأعرابي تسمع فتكلمت بكلام ليس فى الأرض أعف منه ولا أدل على عجز الرجل عن النساء فقالت متمثلة :

تبيت المطايا حائدات عن الهدى إذا ما المطايا لم تجد من يقيمها

الرقاشي قال حدثني أبو عبيدة قال سمعت ناسا من الحجاز يقولون تزوج رجل منا امرأة فعجز عنها إلا أنه إذا لامسها ابتأر فيها فقضى ان حملت وما مكثت إلا أن رأس ولدها فجلس فى المجلس فقال له قائل لقد جئت من بلل قليل قال جئت من بلل لو أصاب مخيض أمك لكان كما قال الشاعر :

رطب الطباع إذا حركت جوهره وجدت أعضاءه غرقى من البلل
ولم أعجنه إلا أنه رجـــل قلت سلامته من جانب الكفل

الهلالي قال رأيت وافر بن عصام يساير المهدي فحدثه بحديث فضحك فقلت له حدثني ما حدثت به المهدي قال سألني ما عندك للنساء فقلت مالهن عندي إلا حديث ابن حزم قال وما حديثه قلت عمر حتى بلغ الثمانين فتزوج ابنة عم له فلما أهديت إليه قعد بين شقيها فأكسل وأراق على بطنها فأقبل عليها كالمتذر فقال هذا خير من الزناء قالت كل ذلك لا خير فيه . قال وشكت امرأة زوجها وأخبرت عن عجزه أنه إذا سقط عليها انطبق والنساء يكرهن وقوع الرجل على صدورهن فقالت زوجي عياياء طباقاء وكل داء له دواء وقيل فى ذلك :

جزاه الله شرا من رفيق إذا بلغت من ركب النساء
رماك الله من عرق بأفعى ولا عافاك من جهد البلاء

أجبنا فى الكريهة حين تلقى ونعظا حين تغبر فى الخلاء

﴿ محاسن النيروز والمهرجان ﴾

قال الكسروى كان أول من أبدع النيروز وأسس منازل الملوك وشيد معالم السلطان واستخرج الذهب والفضة والمعدن واتخذ من الحديد آلات وذال الخيل وسائر الدواب واستخرج الدر وجلب المسك والعنبر وسائر الطيب وبنى القصور واتخذ المصانع وأجرى الانهار كياخسرو بن أبرويز جهان وتفسيره حافظ الدنيا ابن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وكان الأصيل فيه أنه فى النيروز ملك الدنيا وعمر أقاليم ايران شهر وهى أرض بابل فيكون النيروز فى أول ما اجتمع ملكه واستوت أسبابه فصارت سنة وكان فى ملكه ألف سنه وخمسين سنة ثم قتله البيو راسف وملك بعده الف سنة إلى أفريدون بن أثفيان وفيه يقول حبيب :

وكأنه الضحاك فى فتكاته بالعالمين وأنت أفريدون

فطلب البيو راسف وملك بعده الف سنة وخمسين سنة وأسره بأرض المغرب وكبله وسجنه بجبل دناوند واستوفى عدة ما كتب الله له من عمره واتفق لافريدون سجن البيو راسف يوم النصف من مهرماه ومهر روز فسمى ذلك اليوم المهرجان فالنيروز لجم والمهرجان لافريدون والنيروز أقدم من المهرجان بألفى وخمسين سنة وقسم جم أيام الشهر وجعل الخمسة الأيام الأولى للاشراف وبعدها خمسة أيام نيروز الملك يهب فيها ويصل ثم بعدها خمسة أيام لخدم الملك وخمسة أيام لخواص الملك وخمسة أيام لجنده وبعدها خمسة أيام للرعاع فذلك ثلاثون يوما وابتدع المهرجان أفريدون لما أسر البير راسف روز مهر وكان الملك إذا لبس زينته ولزم مجلسه فى هذين اليومين أتاه رجل رضى الاسم مختبر باليمن طلق الوجه زلق اللسان فيقوم قبالة الملك ويقول إئذن لى بالدخول فيسأله من أنت ومن أين جئت وأين تريد ومن سار بك ومع من قدمت وما الذى معك فيقول جئت من عند الأيمنين وأريد الأسعدين وسار بى كل منصور واسمى خجسته أقبلت معى السنة الجديدة وأردت إلى الملك بشارة وسلاما ورسالة فيقول الملك ائذنوا له فيقول له الملك ادخل

ويضع بين يديه خوانا من فضة قد جمع نواحيه أرغفة قد خبزت من أنواع الحبوب من البر والشعير والدخن والذرة والحمص والعدس والأرز والسمسم والباقلى واللوبيا وجمع من كل صنف من هذه الحبوب سبع حبات فجعل فى جوانب الخوان ووضع فى وسطه سبعة من قضبان الشجر التى يتفاءل باسمها ويتبرك بالنظر إليها كالخلاف والزيتون والسفرجل والرمان منها ما يقطع على عقدة ومنها على عقدتين ومنها على ثلاث ويجعل كل قضيب باسم كورة من الكور ويكتب فى مواضع ابزود وابزائد ابزون وبروار وفراخى وفراهية تأويله زاد ويزيد وزيادة ورزق وفرح وسعة ويوضع سبع سكرجات بيض ودراهم بيض من ضرب سنته ودينار جديد وضغث من أسبند ويتناول ذلك كله ويدعو له بالخلود ودوام الملك والسعادة والعز ولا يؤامر يومه فى شىء اشفاقا من أن يبدو منه ما يكره فجرى على سنته وكان أول ما يقدم إليه صينية ذهب أو فضة عليها سكر أبيض وجوز هندى مقشر رطب وجامات فضة أو ذهب ويبتدىء باللبن الحليب الطرى منه قد انقع فيه تمر طرى فيتناول بالنارجيل تمرات ويتحف من أحب منه ويذوق ما أحب من الحلوى وكان يرفع فى كل يوم من أيام النيروز باز أبيض وكان ممن يتيمن بابتدائه فى هذا اليوم لقمة من اللبن الصرف الطرى والجبن الطرى وكان جميع ملوك فارس يتبركون بذلك وكان يسرق له فى كل يوم نيروز ماء فى جرة من حديد أو فضة ويقول استرق هذا الأسعدين ويتحمل الايمنين وجعل فى عنق الجرة قلادة من يواقيت خضر منظمة فى سلك الذهب ممدود فيها خرز من زبرجد أخضر ولم يكن يسرق ذلك الماء إلا الابتكار من أسافل دارات الارحاء وصنائع الغنى فكان متى اجتمع النيروز فى يوم سبت أمر الملك لرأس الجالوت بأربعة آلاف درهم ولم يعرف له سبب أكثر من أن السنة جرت منهم بذلك فصارت كالجزية فكان يبنى قبل النيروز بخمسة وعشرين يوماً فى صحن دار الملك اثنتا عشرة اسطوانة من لبن تزرع اسطوانة منها براً واسطوانة شعيراً وأخرى أرزاً وأخرى عدساً وأخرى باقلى وأخرى دخناً وأخرى ذرة وأخرى لوبيا وأخرى حمصاً وأخرى سمسماً وأخرى ماشاً ولم يكن يحصد ذلك إلا بغناء وترنم ولهو وكان يوم السادس من يوم النيروز وإذا حصد نثر فى المجلس ولم يكسر إلى روزمهر من ماه فروردين وإنما كانوا يزرعون هذه الحبوب للتفاؤل بها ويقال أجودها نباتا وأشدها استواء دليل على جودة نبات مازرع منها فى تلك السنة

فكان الملك يتبرك بالنظر إلى نبات الشعير خاصة وكان مؤدب الرماة يناول الملك يوم النيروز قوسا وخمس نشابات ويناول الملك قيمه على دار المملكة أترجة فكان فيما يغنى بين يدى الملك غناء المخاطبة وأغانى الربيع وأغانى يذكر فيها أبناء الجبابرة وتوصف الانواء وأغانى أفرين والخسروانى والماذراستانى والفهليد وكان أكثر ما يغنى العجم الفهليد مع أيام كسرى أبرويز وكان من أهل مرو وكان من أغانيه مديح الملك وذكر أيامه ومجالسه وفتوحه وذلك بمنزلة الشعر فى كلام العرب يصوغ له الألحان ولا يمضى يوم إلا وله فيه شعر جديد وضرب بديع وكان يذكر الأغانى التى يستعطف بها الملك ويستميحه لمرازبته وقواده ويستشفع لمذنب وإن حدثت حادثة أو ورد خبر كرهوا إنهاءه إليه قال فيه شعر أوصاغ له لحنا كما كان فعل حين نفق مركوبه شبديز ولم يجسروا على إنهاء ذلك فغنى بها وذكر انه ممدود فى آريه ماد قوائمه لا يعتلف ولا يتحرك فقال الملك هذا قد نفق إذاً قال أنت قلت ذلك أيها الملك وكان يضطر بأشعاره ان يتكلم بالذى يكره عماله إن يستقبلوه به .

(العلة فى صب الماء) ذكروا أن العلة فى صب الماء أنه كان أول من تكلم فى المهد قبل المسيح زو بن طهماسب وكان مات أبوه على قحط شديد قد شمل الأقاليم فتكلم ودعا الله تبارك وتعالى فسقى الناس الغيث وأخصبت أرضهم وعاشت مواشيهم فجعلوا صب الماء فيه سنة ، وقد حكى أيضاً عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسين صلوات الله عليه أنه قال فى ذلك أن ناساً من بنى اسرائيل أصابهم الطاعون فخرجوا من مدينتهم هاربين إلى أرض العراق فبلغ كسرى خبرهم فأمر أن يبنى لهم حظيرة يجعلون فيها لترجع أنفسهم إليهم فلما صاروا فى الحظيرة ماتوا وكانوا أربعة آلاف نفس ثم إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبى ذلك الزمان إن رأيت محاربة بلاد كذا فحاربهم ببنى فلان فقال يارب كيف أحاربهم بهم وقد ماتوا فاوحى الله إليه أنى أحييهم لتحاربهم بهم وتظفر بعدوك فامطر الله عز وجل ليلة صب الماء فاصبحوا أحياء فهم الذين قال الله تعالى فيهم « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » قال هؤلاء قوم أصابهم محنة من الأزل فخطوا زمانا فهزلوا وأجدب بلدهم فغيثوا فى هذا اليوم برشة من مطر فعاشوا وخصبت بلادهم فجعله الفرس سنة .

(صفة الأيام) قال كسرى يوم الريح للنوم ويوم الغيم للصيد ويوم المطر للهو والشرب وقال غيره يوم السبت يوم مكر وخديعة والأحد يوم غرس وبناء ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق والثلاثاء يوم حجامة والأربعاء يوم ضنك ونحس والخميس يوم الحج والجمعة يوم مسجد ونساء وكساء .

(فى البرد) سئل بعض الحكماء عن البرد أيه أشد فقال إذا أصبحت السماء نقية والأرض ندية والريح شامية .

﴿ محاسن الهدايا ﴾

قال وكتب الناس فى الهدايا فأكثروا من الكلام المنثور والشعر الموزون وكل يكتب ويقول بمقدار عقله وعلمه حتى قالوا إنها قرابة وصلة كالرحم الماسة والقرابة القريبة ولحمة النسب وأكثروا من التشفيع لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم تهادوا تحابوا وقيل الهدية تفتح الباب المصمت وتسل سخيمة القلب وروى عن عائشة أنها قالت اللاطفة عطفة وتزرع فى القلوب المحبة ، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقبل الهدية ويثيب عليها ماهو خير منها وقال عليه الصلاة والسلام ، لو أهدى إلى ذراع لقبلت ولو دعيت إلى كراع لأجبت ، وقال عليه الصلاة والسلام . الهدية رزق من الله عز وجل فمن أهدى إليه شيء فليقبله ، وقال صلى الله عليه وسلم نعم الشيء الهدية أمام الحاجة ما أرضى الغضبان ولا استعطف ولا استميل الهاجر ولا توقى المحذور بمثل الهدية والبر وقال الله عز وجل (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) وروى أن عاملا لعلى رضى الله عنه قدم من بعض الأطراف فأهدى إلى الحسن والحسين سلام الله عليهما ولم يهد إلى ابن الحنفية فقال متمثلا :

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصحبينا

فأهدى العامل إليه كما أهدى إلى أخويه وروى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أن قوماً من الدهاقين أهدوا إليه جامات فضة فيها الاخبصة فقال ماهذا قالوا يوم نيروز فقال نيروزنا كل يوم فأكلوا الخبيص وأطعم جلساءه وقسم الجامات بين المسلمين وحسبها لهم فى خراجهم

وقيل إن جلساء المهدى إليه شركاؤه فى الهدية والهدية تجلب المودة وتزرع المحبة وتنفى الضغينة وتركها يورث الوحشة ويدعو إلى القطيعة والهدية تصير البعيد قريباً والعدو صديقاً والبغيض وليا والثقيل خفيفاً والعبد حراً والحر عبداً وفيها قول الشاعر :

ما من صديق وإن أبدى مودته ... يوماً بأنجح فى الحاجات من طبق

إذا تقنع بالمنديل منطلقاً ... لم يخش نبوة بواب ولا غلق

لا تكثرن فإن الناس مذ خلقوا ... لرغبة كلما يعطون أو فرق

وقال آخر :

إذا أردت قضاء الحاج من أحد ... قدم لنجواك ما أحببت من سبب

إن الهدايا لها حظ إذا وردت ... أحظى من الابن عند الوالد الحدب

وقد قيل كل يهدى على قدره . وذكروا أن سليمان بن داود عليهما السلام بينا يسير بالريح إذ أتى على عش قنبرة فيها أفراخ لها فأمر الريح فعدلت عن العش فلما نزل وافق يومه ذلك النيروز فجاءت تلك القنبرة حتى رفرفت على رأس سليمان وألقت فى حجره جرادة فقيل له فى ذلك فقال كل يهدى على قدره . وكان مما تهديه ملوك الأمم إلى ملوك فارس طرائف ما فى بلدهم فمن الهند الفيلة والسيوف والمسك والجلود ومن تبت والصين المسك والحرير والسك والأوانى ومن السند الطراويس والببغاء ومن الروم الديباج والبسط وكان القواد والمرازبة والأساورة يهدون النشاب والأعمدة المصمتة من الذهب والفضة والوزراء والكتاب والخاصة من قراباتهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر وجامات الفضة الملوحة بالذهب والعظماء والاشراف البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود والسروج وآلاتها وربما أهدى الرجل الشريف سوطاً فقبله وكانت الحكماء يهدون الحكمة والشعراء الشعر وأصحاب الجوهر الجوهر وأصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهرى النادر والحمار المصرى والبغال الهماليج والظرفاء قرب الحرير الصينى مملوءة ماء ورد والمقاتلة القسى والرماح والنشاب والصياقلة والزرادون نصول السيوف والدروع والجواشن والبيض والأسنة وكانت نسوة الملك تهدى إحداهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائقة والأخرى الدرة النفيسة والجوهرة المثمنة وفص خاتم ومالطف وخف وأصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والوشى والديباج

وغير ذلك والصيارفة نقر الذهب والفضة وجامات الفضة مملوءة دنانير وأوساط الناس دنانير ودراهم من ضرب سنتهم مودعة أترجة أو سفرجلة أو تفاحة والكاتب واقف يكتب كل مهد وجائزة كل من يجيزه الملك على هديته ليودع ذلك ديوان النيروز .

ومن الهدايا التي لم يسمع السامعون بمثلها هدية ابرويز إلى ملك الروم بعقب محاربة بهرام جوبين وقد شارف الروم فانفذ رسولا يستنجده وبعث إليه مائة غلام من أبناء الأتراك مختارين في صورهم ونفوسهم في آذانهم أقرطة الذهب معلق فيها حب الدر على مراكب بسروج الذهب منظمة باليواقيت والزمرد وبعث معه بمائدة من عنبر فتحها ثلاثة أذرع مكللة المستدار بالدر لها ثلاث قوائم من ذهب إحداها ساعد اسد مع كفه والأخرى ساق وعل مع ظلفه والثالثة كف عقاب ، في كف الأسد ياقوتة خضراء وبين ظلفي الوعل ياقوتة حمراء وفي كف العقاب قبجة من اللازورد عيناها ياقوتتان حمراوان تتوقدان حمرة وفي وسط المائدة جام من جزع يماني فاخر فتحه شبر في شبر مملوء يواقيت حمر وسفط ذهب فيه مائة درة كل درة مثقال ومائة لؤلؤة كل لؤلؤة مثقال ومائة خاتم من ذهب مرصع بالجوهر مشبك الأعلى حشوه مسك وعنبر ووصل رسل أبرويز إلى ملك الروم بهذه الهدية فانجده وأرسل إليه عشرين ألف فارس بالسلاح الشاك وبعث إليه بألفي ألف دينار لأرزاق جنده والف ثوب منسوج وعشرين جارية من بنات ملوك الصقالبة بأقبية الديباج المطير في آذانهن أقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت وعلى رؤسهن اكلة الجوهر وأنفذ إليه عشرين مركباً على كل مركب صليب تحت كل صليب ألف فارس وألف برذون وألف شهري والف بغلة والف نجيب بسروج مذهبة واكف مذهبة ولجم من ذهب مصبوب وبرادع مذهبة وجلال وبرانع ديباج منسوج بالذهب واللؤلؤ وأوقر البغال من السندس والاستبرق والذهب واللؤلؤ وبعث إليه مساحة جريب أرض من ذهب فيه نخل من ذهب سعفه الزمرد وطلعه اللؤلؤ وشماريخه الياقوت الأحمر وكربه الجزع وبعث اليه الف الف لؤلؤة كل لؤلؤة بالف دينار وبعث إليه الف الف درهم مثاقيله الف الف دينار خسرواني واعتذر اليه من التقصير فقابله ملك الروم عامه المقبل يوم النيروز بفارس من ذهب على شهري من فضة عينا الشهري جزع ابيض محدق بسواد وناصيته وعرفه وذنبه شعرا سود بيد الفارس صولجان من ذهب والى جانبه ميدان من فضة في وسط الميدان كرة عقيق أحمر يحمل الميدان ثوران

من فضة والشهري يبول الماء فإذا بال انحط الصولجان على الكرة فر بها الى اقصى الميدان فتحرك بحركتها الثوران والميدان وبركض الفارس على عجل تحت حوافر الشهري ، فأما أهل الإسلام فلم يسمع مثل هدية حسان النبطي الى هشام بن عبد الملك فإنه اهدى اليه وإلى أمهات أولاده هدية كثيرة من الكساء والعطر والجوهر وغيرها فاستكثرها هشام وقال بيت المال أحق بهذا ثم أمر فنودى عليها فبلغت مائة الف دينار فبعث حسان أثمانها وقال يا أمير المؤمنين قد طابت الآن هذه مائة الف دينار تحمل الى بيت المال فاقبل هديتى فقبلها ونادى على مناديه حسان سيد موالى أمير المؤمنين قد طابت الآن هذه ، واستملح المأمون من أبى سلمة ذكر هدية لطيفة قال أهدى إلى أمير المؤمنين خوانا من جزع ميلا فى ميل فقال المأمون أوقبضت الهدية قيل نعم قال أهى فى دارى أم دارى فيها قال بل هى فى منديل فدعا بهديته فاذا خوان من جزع عليه ميل من ذهب قد صنع من مائة مثقال بطول الخوان وعرضه فاستملحه وقبله ، واهدت أسماء بنت داود إلى أسماء بنت المنصور مائة مركن من فضة فيها أنواع اللخالخ والريحان المليب ومائة جفنة مطيبة وأنواع من الأطعمة والأشربة وعمراً من الوصائف فى قد واحد فقومت هديتها فبلغت خمسين ألف دينار ، وبعث الحسن بن وهب إلى المتوكل بجام من ذهب فيه الفا مثقال من العنبر وكتب اليه :

يا إمام الهدى سعدت من الدهـ ـر بركن مـن الإله عزيز
وبظل من النعيم مديـد وبحرز من الليالى حريز
لا تزال ألف حجة مهرجان أنت تفضى به إلى النيروز
وبيوم ألذ من نظـر المعـ ـشوق من بعـد نبوة ونشوز

قال خالد المهلبى أهديت إلى المتوكل فى يوم نيروز ثوب وشى منسوج بالذهب ومشمة عنبر عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب ودرعا مضاعفة وخشبة بخزر نحو القامة وثوبا بغداديا فأعجبه حسنه ثم دعا به فلبسه : وقال يامهلبى إنما لبسته لأسرك به فقلت يا أمير المؤمنين لو كنت سوقة لوجب على الفتيان تعلم الفتوة منك فكيف وأنت سيد الناس . وأحسن من جميع ما تقدم ذكره قول عبد الله العباسى والى الحرمين فإنه قال هذا يوم

يهدى فيه إلى السادة والعظماء والواجب أن أهدى إلى سيدى الأكبر ثم دعا بعشرة آلاف دينار فقسمها على أهل الحرمين فكانت فكرته فى هذا أحسن من فعله .

﴿ التلطف فى الهدايا ﴾ كتب سعيد بن حميد إلى بعضهم : النفس لك والمال منك غير أنى كرهت أن أخلى هذا اليوم من سنة فأكون من المقصرين أو أدعى أن فى ملكى ما يفى بحقك فأكون من الكاذبين وقد وجهت إليك بالسفرجل لجلالته والسكر لحلاوته والدرهم لنفاقه والدينار لعزه فلا زلت جليلا فى العيون مهيبا فى القلوب حلواً لاخوانك كحلاوة السكر عزيزاً عند الملوك لاتحسن أفنيتهم إلا بك ولا زلت نافقاً كنفاق الدرهم .
وأهدى أحمد بن يوسف إلى ابراهيم بن المهدى وكتب إليه الأمراء أعزك الله تسهل سبيل الملاطفة فى البر فأهديت هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم مالا فلا أكثره تبجحاً ولا أقله ترفعا .

﴿ هدايا النيروز ﴾ قال كتب الحسن بن وهب إلى المتوكل فى يوم نيروز بهذه الرقعة أسعدك الله يا أمير المؤمنين بكر الدهور وتكامل السرور وبارك لك فى إقبال الزمان وبسط بيمن خلافتك الآمال وخصك بالمزيد وأبهجك بكل عيد وشد بك أزر التوحيد ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق بطيب أيام الخريف المغدق وقرب لك التمتع بالمهرجان والنيروز بدوام بهجة أيلول وتموز وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل وغبطة البها نهاية ضارب المثل وعمر ببلائك الاسلام وفسح لك فى القدرة والمدة وأمتع برأفتك وعدلك الأمة وسربلك العافية ورداك السلامة ودرعك العز والكرامة وجعل الشهور لك بالاقبال متصدية والأزمنة إليك راغبة متشوقة والقلوب نحوك سامية تلاحظك عشقا وترفرف نحوك طربا وشوقا وكتب فى آخره :

فداك الزمان وأهل الزمان　　إمام الهدى بك مستبشرينا
قد ألقوا إليك مقاليدهم　　جميعا مطيعين مستوسقينا
ولا زلت زينا لأعيـــادنا　　وللدين كهفا وحصنا حصينا
يعز بدولتك الصالحون　　ويشقى بك الشرك والمشركونا

فيـــا رب مشكلة أبرقت   فجللتهـــا السيف حقا يقينا
بصـــدق عزيمة مستبصر   وضرب يقد الطلى والمتونا
وسمت النصارى بشيطانها   وذللت منها الأغر البطينا
وكم فعلة لك فى المشركين   أقرت عيونا وأبكت عيونا

وكتب آخر :

المهرجان لنـــا يوم نسر به   يوم تعظمه الأشراف والعجم
وأنت فيه لنا بدر يضىء كما   أن السماء ببدر الليل تتسم

وكتب آخر :

عيد جديد وأنت جـــدته   يا من به للزمان تجديد
لا زال طول الزمان يرجعه   وظل ملك عليك ممـــدود

وقيل للمازنى أى هؤلاء أظرف فى شعره الذى يقول :

جعلت فداك للنيروز حق   فأنت على أعظم منه حقا
ولو أهديت فيه جميع ملكى   لـكان جليله لك مستدقا
فأهديت الثناء بنظم الشعر   وكنت لذاك منى مستحقا

أم الذى يقول :

دخلت السـوق أبتاع   وأستطرف ما أهـــدى
فما استطرفت للإهــدا   ء إلا طرف الحمـــد
إذا نحـــن مدحناك   رعينا حرمة المجـــد

أم الذى يقول :

وكم من مرسل لك قد أتانى   بما يهدى الخليل إلى الخليل

فأظهرت السرور وقلت أهلا وسهلا بالهدية والرسول

فقال أشعرهم جميعهم وأظرفهم الذى يقول :

فوالله لا أنفك أهدى شوارداً إليك يحملن الثناء المبجلا
ألذ من السلوى وأطيب نفحة من المسك مفتوتا وأيسر محملا

وبعث سعيد بن حميد إلى أحمد بن أبى طاهر قارورة ماء ورد وكتب :

وزائرة حـــورية فارسية كنشر حبيب حاد يوما عن الصد
ترد ربيعاً فى مصيف بنفحة إذا فقدت ورداً تنوب عن الورد
حكى نشرها منه خلائق نشره كنشر نسيم الروض فى جنة الخلد
وشبهتها فى صفوها بصفائه لإخوانه فى القرب منه وفى البعد
وأهدت لنا منه النسيم نسيمه وإن كان إن حالت يدوم على عهد

وعن إسحاق بن إبراهيم الموصلى . قال دار كلام بين الأمين وبين إبراهيم بن المهدى . قال فوجد عليه الأمين فهجره فوجه إليه إبراهيم بوصيفة مغنية مع عبد هندى فأبى الأمين أن يقبلهما فكتب إليه :

هتكت الضمـــير برد اللطف وكشفت هجرك لى فانكشف
فإن كنت تحقد شيئا مضى فهب للخلافة ما قد سلف
وجد لى بعفوك عن زلتى فبالفضل تأخذ أهل الشرف

فرضى عنه ودعاه للمنادمة .

﴿ هدايا الفصد ﴾ قال ابن حمدون النديم : افتصد المأمون فأهدى إليه إبراهيم بن المهدى جارية معها عود ورقعة فيها :

عفوت وكان العفو منك سجية كما كان معقوداً بمفرقك الملك

فإن أنت أتممت الرضى فهو المنى
وإن أنت جازيت المسيء فذا الهلك

فقال المأمون خرف الشيخ. يوم مثل هذا يذكر الثواب والآخرة فلم يقبل الوصيفة واغتم إبراهيم وكتب إليه مع الوصيفة :

لا والذى تسجد الجباه له   مالى بما دون ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها   ما كان إلا الحديث والنظر

فقال المأمون نعم الآن أقبلها فقبلها ، قال أبو القاسم بن أبى داود كنت عند أحمد ابن محمد العلوى وقد افتصد فخرج بعض الخدم ومعه طبق من فضة عليه تفاح طيب مكتوب حواليه بالذهب :

سر الغداة بوجهك اللعب   وجرى بيمن فصادك الطرب
وتداعت العيدان فى زجل   وتناولت راحاتها النخب
فاشرب بهذا الجام يا ملكى   شربا حثيثا إنه عجب
واحل لمن قد خف فى لطف   من زوره يخشى ويرتقب

فقال للخادم أخرجها إلى الستارة فخرجت وخلا ليلته بها . وقيل افتصد المعتصم فاهدت إليه شمائل صينية عقيق عليها قدح أسبل عليهما منديل مطيب مكتوب عليه بالعنبر فى كل ربع منه بيت شعر :

خضب الخليفة كفه من فصده   بدم يحاكى عبرة المشتاق
تاه الفصاد فما يقام لتيهه   إذ صار مفتصداً أبو إسحاق
وتوافت العيدان عند حضوره   قب البطون ذوابل الأعناق
ملك إذا خطر الشراب بباله   لبس السرور غلائل الإشراق

فلما قرأه أمر باحضار إسحق بن إبراهيم الموصلى وأمره أن يحمل له لحنا وأمر

مسروراً بإخراجها من وراء الستارة ثم لم يزل إسحاق يردد هذه الأبيات حتى أحكمتها شمائل وغنت فكأن سقط الدر يتناثر من فيها وأمر لإسحاق بمال وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار. المبرد قال أهدى اليزيدى الرشيد يوم فصد جام بلور وشمامات غالية وكتب إليه يا أمير المؤمنين تفاءلت فى الشرب فى الجام بجام النفس ودوام الانس والغالية للغلو فى السرور والازدياد من الخير والحبور وقلت :

دم الفصد من يدك العاليـــة ... يداعى لجسمك بالعافيـــة
كسا الدهر ثوبا من الأرجوان ... بديع الطرازين والحاشية
وعصفر صفحة وجه الربيع ... بصبغ من أسراره الجارية
فكم روضـــة نشرت وشيها ... وزهرة روض غدت زاهية
إمام أسال دم المكرمات ... فشجج أغناءها الحاميـــة
فلا زال فى عيشة راضيـــة ... ودامت له النعمة الكافية

قال اليزيدى افتصد المأمون فاهدت اليه رباح أترجة عنبر عليها مكتوب بماء الذهب :

تعالج من هويت بفصد عرق ... فأضحى السقم فى خلع الخضوع
وجاءت تحفة الألباب تسعى ... بورد فائض فيض الدموع

فقال المأمون لليزيدى ويحك ما تقول فيمن كتب هذين البيتين قال يكافأ بالدنيا وما استدق منها فأمر لها بمال كثير ووصلنى ببعضه . قال وافتصد عبد الله بن طاهر فأهدى له أبو دلف جميع ما أصاب فى السوق من الورد وكتب اليه :

تضاحك الورد فى وجهى فقلت له ... لم ذا فقال أبو العباس مفتصد
فقمت أطلب ما أهديه من طرف ... للفصد فى السوق حتى خاننى الجلد
يوم الفصاد له أزر مطيبة ... محجوبة لا يراها الجرد والزرد
فاشرب على الورد مسروراً بطلعته ... يا ابن الكرام فأنت السيد النجد

قال عمر بن بانة اعتل المعتصم فأشار إليه بختيشوع بالفصد وأنا عنده فأخرجت إليه

هدايا الفصد وكان فيما أخرج طبق صندل مكتوب عليه بجزع كما يدور عليه شمامات مسك وعنبر فأمر بقراءة عليه فإذا هو :

فصد الإمام لعلة فى جسمه ... فشفى الإله السقم بالفصد
وجرى إلى الطشت السقام مبادراً ... وجرى الشفاء إليه بالسعد
يامالكا ملك العباد بجوده ... اسلم سلمت بعيشة رغد

فقال ياعمرو من يلومنى على حب هذه الجارية والله ماأراها الا تزايدت فى عينى وخليق أن تنجب فإن لها همة فولدت له غلاما وكانت آثر جواريه عنده وأحظاهن لديه ، وأخبرنا إبراهيم القارىء قال كنت عند المأمون فاحتاج إلى الفصد فقال له الأطباء البلد بارد فقال لابدلى منه ففصدوه فلماكان وقت الظهر حضروا فراموا فجر العرق فإذا هو قد التحم فشدوا الرباط وفيهم ميخايل فما ظهر الدم فقال له المأمون عقرتمونى فحلوا الرباط وعلى رأسه بختيشوع وابن ماسويه فقال ماتقولون . قالوا ماندرى مانقول . قال فاشاروا هناك أن جلالة الخليفة ربما أدهشت الحاذق بالصناعة والمتقدم فى الرياسة فاعتزلوا ناحية وأبطئوا عليه فقال لاسود كان على رأسه ادن فمص الجرح ففعل فثار الدم فقال ادع هؤلاء الحاكة فجاءوا وشهدوا خروج الدم قال أين كنتم .قال ابن ماسويه لو فعل جالينوس مازاد عليه . قال وافتصد أحمد بن عيسى بالرى وهو أميرها فكتب إليه جعفر الشيبانى :

فصدت بأرض الرى طاب لك الفصد ... ووافق نجم النحس طالعك السعد
فأعقبك الحسنى التى لامدى لها ... ولازال برديك الجلالة والحمد
ثوردت الدنيا بفصدك مثلما ... بفصدك ياابن المصطفى ضحك الورد
فلا أبصرت عيناك ماعشت شانياً ... ومن كل ماتهواه لاخانك العهد

وفى مثله :

يا فاصداً من يد جلت أياديها ... ونال منه الذى يرجوه راجيها
يد الندى هى فارفق لاترق دمها ... فإن آمال طلاب الندى فيها

قال وكتب الحمدونى إلى الفضل بن جعفر وقد افتصد :

ألا ياطبيب الفصد هل أنت عالم ... بما صنعت كفاك فى كف ذى المجد
أسلت دما من ساعد ينثنى بها ... حياء ندى فاقصد بذرعك فى القصد
فداويت كفاً يعلم الناس أنها ... دواء من الامحال فى الزمن النكد
ولما أتانا المخبرون بفصــده ... أردت بأن أهدى على قدر ما عندى
وشاورت فاستصحبت آلى وجيرتى ... فلم أر أمرى من ثناء ومن حمد

وقال آخر:

تونق من ثنائك فى الهدايـــا ... غداة أردت فصــد الباسليق
فلم أر كالدعاء أتم نفعــاً ... وأجمــل فى مكافأة الصديق
وأكثرت الدعاء وقلت ربى ... يقيك شرور آفات العروق

وقال آخر:

على طيب أيام التمتع بالورد ... فصدت فأصبحت السلامة فى الفصد
ولا زالت لازالت من الله أنعم ... عليك قرير العين مغتبط الحسد
لقد رمت جهدى طرفة وهدية ... إليك فكان الشكر أكثر ماعندى

وقال آخر :

أيها الفاصد العليـل الصحيح ... بأبى ذاك الجارح الجريح
إن من علق الذراع من الفصـــ ... ـد إلى الجيد ذاك شىء مليح
أيهـــا الفاصد المهنا له الور ... د وفى وجنتيه ورد يلوح

وقال آخر :

أيها السيد الذى فصد العر ... ق وأرخى دونى ذيول السرور

لم تمنيت أن أكون طبيبا ومنى الصب ترهات الغرور

وقال آخر :

أجمل جعلت فداك بالجلد وامنن على بأجمل الرد
لو عاينت عيناك مضطربى وتفردى بالسد والشد
وتخشعى عند الطبيب كأنه مولى يريد عقوبة العبد
كالنار مبضعه يقلبه ويدير مقلة حازم جلد
حتى اعتزمت على محاجزة وصددت عنه أيما صد
ماكان من ألم شعرت به إلا كوقع شرطة الجلد
إذ سال منبعثا سوابقه كالنار خارجة من الزند
فسلمت والرحمن سلمنى ذوالمن والآلاء والحمد
مابعد طباخى لمفتخر فخر لمن قبلى ومن بعدى
نصب القدور بنفسه كرما لنصيب شهوتنا على عمد
فأجاد صنعتها وعجلها من غير ماتعب ولاجهد
ونبيذنا صاف ومجلسنا فى الطيب يحكى جنة الخلد
فهلم واحضر غير محتشم واجعل غذاءك سيدى عندى
لاتجمعن على محتسبا ضعف العليل ووحشة الفرد

﴿ محاسن الوصائف المغنيات ﴾

قال الاصمعى بعث إلى هرون الرشيد وهو بالرقة فحملت إليه فانزلنى الفضل بن الربيع ثم أدخلنى عليه وقت الغروب فاستدنانى وقال: ياعبد الملك وجهت إليك بسبب جاريتين اهديتا إلى وقد أخذتا طرفا من الادب احببت أن تبرز ماعندهما وتسير على الصواب فيهما ثم أمر باحضارهما فحضرت جاريتان مارأيت مثلهما قط فقلت لإحداهما ماعندك من العلم قالت ماأمر الله فى كتابه ثم ماينظر فيه الناس من الأشعار والاخبار فسألتها عن حروف القرآن

فأجابتنى كأنها تقرأ فى كتاب الله ثم سألتها عن الأشعار والأخبار والنحو والعروض فقصرت عن جوابى فى كل فن أخذت فيه فقلت لها فأنشدينا شيئا فأنشدت:

ياغياث البلاد فى كل محل   مايريد العباد إلا رضاك
لا ومن شرف الإمام وأعلى   ما أطاع الإله عبد عصاك

فقلت يا أمير المؤمنين ما رأيت امرأة فى مسك رجل مثلها وخبرت الأخرى فوجدتها دونها فأمر أن تصنع تلك الجارية لتحمل إليه فى تلك الليلة ثم قال لى ياعبد الملك أنا ضجر وأحب أن تسمعنى حديثا مما سمعت من أعاجيب الزمان تفرج به فقلت ياأمير المؤمنين كان لى صاحب فى بدو بنى فلان وكنت أغشاه وأتحدث معه وقد أتت عليه ست وتسعون سنة وهو أصح الناس ذهنا وأقواهم بدنا فغبت عنه ثم أتيته فوجدته ناحل البدن كاسف البال فسألته عن سبب تغيره فقال قصدت بعض القرابة فالفيت عندهم جارية قد طلت بالورس بدنها وفى عنقها طبل تنشد عليه

محاسنها سهام للمنايا   مريشة بأنواع الخطوب
ترى ريب المنون بهن سهما   تصيب بنصله مهج القلوب

فقلت :

فدى شفقى من موضع الطبل ترتمى   كما قد أبحت الطبل فى جيدك الحسن
هبينى عوداً جوفه تحت متنه   يمتعنى ما بين نحرك والذقن

فلما سمعت شعرى رمت بالطبل فى وجهى ودخلت الخيمة فوقفت حتى حميت الشمس على مفرقى ولم تخرج فانصرفت تريح القلب فهذا التغير من عشقى لها فضحك الرشيد حتى استلقى وقال ويلك ياعبد الملك ابن ست وتسعين يعشق فقلت قد كان هذا فقال ياعباس اعط عبد الملك مائة ألف درهم ورده إلى مدينة السلام فانصرفت ثم أتانى خادم فقال أنا رسول ابنتك يعنى الجارية — تقول لك أن أمير المؤمنين قد أمر لها بمال وهذا نصيبك فدفع إلى ألف دينار ولم تزل تواصلنى بالبر الواصل حتى كانت فتنة محمد وانقطع خبرها وأمر الفضل لى بعشرة آلاف درهم ، على بن الجهم لما أفضت الخلافة إلى المتوكل أهدى إليه الناس على أقدارهم

فاهدى إليه ابن طاهر جارية أديبة تسمى قبيحة تقول الشعر وتلحنه وتحسن من كل علم احسنه فحلت من قلب المتوكل محلا جليلا فدخلت يوما للمنادمة وخرج المتوكل وهو يضحك وقال ياعلي دخلت فرأيت قبيحة قد كتبت على خدها بالمسك جعفر فما رأيت أحسن منه فقل فيه شيئا فسبقتني محبوبة واخذت عودها فغنت :

وكاتبة بالمسك فى الخد جعفرا ... بنفسى خط المسك من حيث أثرا
لئن أودعت سطرا من المسك خدها ... لقد أودعت قلبى من الوجد أسطرا
فيامن لمملوك يظل مليكه ... مطيعاً له فيما أسر وأجهرا
ويامن لعينى من رأى مثل جعفر ... سقى الله صوب المسكرات لجعفرا

قال فتقلت خواطرى حتى كانى ما أحسن حرفا من الشعر ولمت للمتوكل أنل فقد والله غرب عنى ذهنى فلم يزل يعيرنى به ثم دخلت عليه للمنادمة بعد ذلك فقال ياعلى أعلمت أنى قد غاضبت محبوبة وأمرتها بلزوم مقصورتها ومنعت أهل القصر من كلامها فقلت ياسيدى إن غاضبتها اليوم فصالحها غدا فدخلت عليه من الغد فقال ويحك ياعلى رأيت البارحة فى النوم كانى صالحت محبوبة . فقالت جاريته شاطر ياسيدى لقد سمعت الآن فى مقصورتها هينمة فقال تنظر ماهى فقام حافياً حتى وصلنا مقصورتها فإذا هى تغنى:

أدور فى القصر كى أرى أحداً ... أشكو إليه فــلا يكلمنى
فمن شفيــــع لنا إلى ملك ... قد زارنى فى الكرا يماتبنى
حتى إذا ما الصباح عاد لنا ... عاد إلى هجره ففارقنى

فصفق المتوكل طربا فلما سمعته خرجت تقبل رجليه وتمرغ خدها فى التراب حتى أخذ بيدها راضيا عنها ، حدث أبو على بن الاسكرى المصرى وأسكر هى القرية التى ولد فيها موسى عليه السلام — قال كنت من جلاس تميم بن تميم وممن يخفف عليه فأتى من بغداد بجارية رائعة فائقة الغناء فدعا بجلسائه وقدمت السيارة فغنت :

وبداله من بعد مااندمل الهوى ... برق تألق موهنا لمعــانه

يبدو كحاشية الرداء ودونه صعب الذرى متمنع أركانه
وبدا لينظر كيف لاح ولم يطق نظراً إليـــه وهده هيجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سحت به أجفانه

قال فأحسنت ماشاءت فطرب تميم ومن حضر ثم غنت :

سيسليك مما دون دولة معضل اوائـــله محمودة وأواخره
ثنى الله عطفيه وألف شخصه على البر مذ شدت عليه مآزره

فطرب تميم ومن حضر ثم غنت :

استودع الله فى بغداد لى قمرا بالـكرخ من فلك الأزرار مطلعه

فافرط تميم فى الطرب جداً وقال لها تمنى ماشئت فلك هناك قالت اتمنى أيها الأمير عافيته وسلامته فقال والله لابد أن تتمنى ، قالت على الوفاء أتمنى ان أغنى هذه النوبة ببغداد فتغير وجه تميم وتكدر المجلس وقمنا فلحقنى بعض خدمه فردنى فلما وقفت بين يديه قال ويحك أرأيت ما امتحنا بهولابدلنا من الوفاء ولم أثق فى هذا بغيرك فتأهب لحملها إلى بغداد فإذا غنت هناك فاصرفها فقلت سمعا وطاعة ثم اصحبها جارية سوداء تخدمها وتعادلها وأمر بناقة لى فحمل عليها هودج وأدخلت فيه وسرنا مع القافلة إلى مكة فتضينا حجنا ثم لما وردنا القادسية أتتنى السوداء فقالت تقول لك سيدتى اين نحن ، فقلت لها ، نحن الآن بالقادسية فأخبرتها فسمعت صوتا قد ارتفع ناشدا :

لما رأينا القادســية حيث مجتمــع الرفاق
وشممت من أرض الحجا ز نسيم أنفاس العراق
أيقنت لى ولمن أحــب بجمع شمل واتفاق
وضحكت من فرح اللقا ء كما بكيت من الفراق

فصاح الناس من أقطار القافلة أعيدى بالله فلم يسمع لها كلمة فلما نزلنا الناصرية على خمسة أميال من بغداد فى بساتين متصلة تبيت الناس فيها ثم يبكرون ببغداد فلما قرب الصباح اذ السوداء قد أتتنى مذعورة فقالت إن سيدتى ليست بحاضرة فلم أجدها ولا وجدت لها ببغداد

خيرا فقضيت حوائجى وانصرفت إلى تميم وأخبرته خبرها فلم يزل واجداً عليها واخبار القينات كثيرة فنقتصر منها على هذا القدر

﴿ محاسن الجوارى مطلقاً ﴾

قيل كان يقال من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر ، وكان مسلمة بن مسلمة يقول : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر ، وقال السرور باتخاذ السرارى، وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم حتى نشأ فيهم على بن الحسين بن على رضى الله عنهم وفاق أهل المدينة فقها وعلما وورعا فرغب الناس فى اتخاذ السرارى قال وليس من خلفاء بنى العباس من أبناء الحرائر الا ثلاثة السفاح والمنصور والأمين والباقون كلهم أبناء الجوارى وقد عابت الجوارى لأنهن يجمعن عز العرب ودهاء العجم .

﴿ ضده ﴾

إذا لم يكن فى منزل المرء حرة   رأى خللا فيما تولى الولائد
فلا يتخذ منهن حــــر قعيدة   فهن لعمر الله شر القعــــائد

وكان يقال : الجوارى كخبز السوق والحرائر كخبز الدور ، ومن أمثال العرب لا تمازح أمة ولا تبك على أكمة . قال بعضهم لا تفترش من تداولتها أيدى النخاسين ووقع ثمنها فى الموازين وقال لاخير فى بنات الكفر وقد نودى عليهن فى الأسواق ومرت عليهن أيدى الفساق.

﴿ محاسن الموت ﴾

فى الحديث المرفوع الموت راحة وقال بعض السلف مامن مؤمن إلا والموت خير له من الحياة لأنه إن كان محسنا فالله يقول « وماعند الله خير للأبرار » وإن كان مسيئا فالله تعالى جده يقول أيضاً « ولايحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خير لانفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » ، وقال ميمون بن مهران أتيت عمر بن عبد العزيز فكثر بكاؤه ومسئلته الله الموت فقلت

يا أمير المؤمنين تسأل ربك الموت وقد صنع الله على يدك خيرا كثيرا أحييت سننا وأمت بدعا وفعلت وصنعت ولبقائك رحمة للمؤمنين ، فقال ، ألا أكون كالعبد الصالح حين أقر الله عينه له أمره قال « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث » إلى قوله «والحقني بالصالحين» فما دار عليه أسبوع حتى مات رحمه الله قالت الفلاسفة لا يستكمل الإنسان حد الإنسانية إلا بالموت لأن حد الإنسانية أنه حد ناطق ميت وقال بعض السلف ، الصالح إذا مات استراح والصالح إذا مات استريح منه قال الشاعر :

وما الموت إلا راحة غير أنه ... من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

وقال آخر :

جزا الله عنا الموت خيراً فإنه ... أبر بنا من كل بر وأرأف
يعجل تخليص النفوس من الأذى ... ويدنى من الدار التى هى أشرف

وقال منصور الفقيه :

قد قلت إن مدحوا الحياة فاسرفوا ... فى الموت ألف فضيلة لا تعرف
منها أمان بقائه بلقائـــه ... وفراق كل معاشر لا ينصف

وقال أحمد بن بكر الكاتب :

من كان يرجو أن يعيش فإننى ... أصبحت أرجو أن أموت فأعتقا
فى الموت ألف فضيلة لو انها ... عرفت لكان سبيله أن يعشقا

وقال لنكك البصرى :

نحن والله فى زمان غشـــوم ... لو رأيناه فى المنام فزعنا
أصبح الناس فيه من سوء حال ... حق من مات منهم أن يهنا

— ضده —

فى الحديث المرفوع أكثروا ذكر هازم اللذات يعنى الموت ، قال الشاعر :

ياموت ما أجفاك من نازل ... تنزل بالمرء على رغمـــه
تستلب العذراء من خدرها ... وتأخذ الواحد من أمه

وقال :

وكان ذى غيبة له إياب وغائب الموت لايؤوب

وقال بعضهم الناس فى الدنيا أغراض تنتضل فيها سهام المنايا وقال ابن المعتز الموت كسهم مرسل إليك وعمرك يقدر سفره نحوك وقال بعضهم الموت أشد مما قبله وأهون مما بعده ونظر الحسن رضى الله عنه إلى ميت يدفن فقال إن شيئا أوله هذا لحقيق ان يخاف آخره وإن شيئا هذا آخره لحقيق أن يزهد فى أوله وسئل بعض الفلاسفة عن الموت فقال مفازة من ركبها ضل خبره وعفى أثر .. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

تم بعـــون الله كتاب المحـــاسن والأضـــداد

وصلى الله على نبيه خير الخلق بيانا وأفصحهم لسانا

﴿ فهرس كتاب المحاسن والأضداد ﴾